الأوضاع الحضارية
فى بلاد الشام
فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد

عصر الحروب الصليبية

تأليف
دكتور محمود محمد الحويرى
مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب بسوهاج - جامعة أسيوط

١٩٧٩

دار المعارف

الناشر : دار المعارف ـ ١١١٩ كورنيش النيل ـ القاهرة ـ ج٠م٠ع

الإهـــداء

الى روحى امى وابى فى اكرم

جوار وفاء وعرفانا ..

محمود

مقدمة

من الحقائق المسلم بها فى دراسة تاريخ العصور الوسطى ، أن الانتصارات الكبيرة التى احرزها الصليبيون فى الشرق الأدنى ، حينما وصلوا اليه اول مرة اواخر القرن الحادى عشر للميلاد ، لم يكن مردها قوة خارقة ، بقدر ما كان ضعف القوى الاسلامية فى المنطقة (١) • وهناك اسباب عديدة أدت الى ضعف المسلمين ووهنهم فى منطقة الشرق الأدنى فى ذلك الدور • فالسلاجقة وهم اصحاب النفوذ فى بلاد الشام عندئذ ، كانوا منقسمين على أنفسهم ، يتقاتلون فيما بينهم من اجل الظفر بعرش السلطنة ، وشغلتهم اهواؤهم الشخصية عن ادراك ابعاد الخطر الأجنبى ، مما سهل للصليبيين احراز النصر فى حروبهم الأولى (٢) •

والواقع ان السلاجقة بعد وفاة السلطان ملك شاه عام ١٠٩٢ م اصابهم التداعى والانهيار ، بسبب الحرب الداخلية التى نشبت بين أبنائه • ويشير البعض الى ان الحروب الصليبية لو تقدمت عن موعدها عشر سنوات ، لما تحقق لها ما اصابته من نجاح ، لانها ربما اصطدمت عندئذ بامبراطورية عربية تركية موحدة تحت زعامة ملك شاه (٣) •

وكان تفاقم الخلاف بين السنة والشيعة ايضا ، من الأسباب الرئيسية لضعف المسلمين فى ذلك الدور ، مما أدى الى ايجاد الفرقة بين المسلمين بعضهم وبعض ، وازدادت حدة الخلاف بين الخلافة العباسية السنية فى بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة ، ومن الطبيعى ان ينعكس الخلاف بالشام فى صورة صدام عنيف بين الخلافتين ، لأن بلاد الشام بحكم موقعها الجغرافى تعتبر حلقة الوصل بين مصر والعراق ؛ وقد واكب ضعف الخلافة

---

(١) سعيد عاشور : شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، ص ١٥ •

(٢) عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، ص ١٠٢ •

(٣) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ١٢٠ ،
الباز العرينى : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، المقدمة •

العباسية فى بغداد انحسار نفوذها فى كثير من البلاد ومن جملتها الشام (١). فانتهز الفاطميون الفرصة ومدوا نفوذهم الى الشام ، وظلـــوا حتى مجىء الصليبيين يضـــعون أيديهم على الأجزاء الجنوبية والساحليـــة من بلاد الشام (٢) .

ولم يقف الأمر على التنافس الشديد بين السنة والشيعة ، بل أن الأمراء المحليين استغلوا ضعف السلطة المركزية فى كل من بغداد والقاهرة ، وأسسوا امارات لهم فى أنحاء مختلفة من الشام ، ومكنوا لانفسهم فيها ، مثل بنوطىء فى ما وراء نهر الأردن ، وبنو عمار فى طرابلس ، وبنو الجراح فى غزة والرملة، وبنو منقذ فى شيراز ، وبنو مرداس فى حلب ، وابن ملاعب فى حمص ، وابن أبى عقيل فى صور (٣) .

والحركة الصليبية دفعتها بواعث حقيقية ، انبعثت من صميم المجتمع الأوربى الغربى ، والقول بان الاباطرة البيزنطيين بسبب تعرضهم لضــغط الأتراك السلاجقة ، استنجدوا بالبابوية ، أمر لم يكن ليلقى اهتماما اذا لم يكن للغرب أسباب قوية جعلته يتحــرك استجابة لدعــوة الامبراطوريـــة البيزنطيـــة (٤) .

ومهما يكن من أمر ، فانه ما كادت تنقضى اثنى عشرة سنة على وصول الحملة الصليبية الأولى الى أرض الشام ، حتى كان الصليبيون قد اقامـوا لأنفسهم ثلاث امارات كبرى ، الرها وانطاكية وطرابلس ، فضلا عن وضـــع نواة مملكة بيت المقدس الصليبية ، وأدى هذا النجاح الى تدفق الجمـــوع الصليبية من الغرب الأوربى على بلاد الشام ، بحيث لايكاد يمر عام دون وصول جماعة صليبية ـ كبيرة أو صغيرة ـ بعضهم اتى فى صورة حجاج ، ولكن يمتشقون الحسام ، ويعتقدون انهم بمحاربة المسلمين وقتلهم ، انمـا يكتسبون ثوابا مضاعفا .

---

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) Ziadeh : Urban Life in Syria, P. 76.

محمد كرد على : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٢٧٥ .

(٣) Ziadeh : op. cit. PP. 76—77

محمد كرد على : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٢٦١ .

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٧ .

وهكذا ترتب على الحركة الصليبية خلق وضع حضارى جديد فى بلاد الشام وخاصة فى الجانب الاجتماعى ، بسبب كثرة الاجناس والأصول وما صحب ذلك من تعدد اللغات ، وتداخل العادات والتقاليد ، والتقاء التيارات الحضارية الوافدة من الغرب المسيحي بما هو سائد فى بلاد الشام الاسلامية ٠

وقد حاولت فى هذا الكتاب ان أقوم بدراسة الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام ، فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد ، وهى الفترة التى تمثل مرحلة الازدهار والنضج بالنسبة للحركة الصليبية ، فقسمت البحث الى عدد من الفصول ، الفصل الأول المجتمع الاسلامى ، والفصل الثانى المجتمع المسيحى ، والفصل الثالث النشاط الاقتصادى ، والرابع الفنون الحربية ، والخامس النشاط الفكرى والتفاعل الاجتماعى بين المسلمين والصليبيين ٠

واستعنت فى هذه الدراسة بعدد كبير من المصادر المعاصرة ، فضلا عن المراجع الحديثة ٠ هذا ولا يخفى على باحث التاريخ ـ لاسيما فى فترة العصور الوسطى ـ ان دراسة الموضوعات الحضارية ، تختلف اختلافا واضحا عن دراسة الموضوعات السياسية ٠ فالأخيرة بوصفها كانت موضع اهتمام المؤرخين المعاصرين ، رتبوا أحداثها ترتيبا زمنيا ، وتناولوا سردها بالتفصيل وربما أوجزوا حينا واستطردوا احيانا فى هذا السرد ٠ أما الموضوعات الحضارية ، فلم يعتن بها المؤرخون ، ولم يتناولوها بطريق مباشر ، ومن ثم لايستطيع الباحث الوصول الى هدفه الا بعد التنقيب عنه فى صبر وأناة بالغين ، خاصة اذا كان موضوع البحث يتضمن دراسة شاملة عن النواحى الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والفنية ٠

وثمة عدد لابأس به من المصادر العربية استفدت منها فائدة كبيرة ؛ أهمها ما كتبه ابن الأثير ، وأسامة بن منقذ ، وعماد الدين الأصفهانى ، وابن شداد ، وابن القلانسى ، وأبو شامة ، وابن واصل ، والقلقشندى ٠

فابن الاثير كتب كتابين هما : « الكامل فى التاريخ » وهو الموسوعة التاريخية المعروفة ، وتاريخ « الدولة الاتابكية » الذى قصره ابن الأثير على تاريخ البيت الزنكى ٠ واهمية هذا المؤرخ أنه ولد عام ٥٥٥ هـ (١١٦٧م)، وتوفى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) ، أى أنه عاصر جزءا هاما من حوادث الحروب الصليبية ببلاد الشام ، ولهذا جاء صادقا فيما رواه من حوادث ٠ وجدير بالذكر انه ليس هناك من القرائن والادلة ، مايثبت أن ابن الأثير كان متعصبا فى روايته ، أو متحاملا على فريق دون آخر ٠

أما اسامة بن منقذ ، فقد اعتمدت على كتابه الشهير «الاعتبار» عندما تناولت دراسة النشاط الفكرى والتبادل الاجتماعى بين المسلمين والصليبيين فى الفصل الخامس ، بالاضافة الى بعض المواضع الأخرى ٠ وأهمية هـــذا المصدر ترجع الى أن اسامة بن منقذ تكلم عن الحوادث التى شاهدها بنفسه ٠ فقد ولد اسامة عام ١٠٩٥ م (٤٤٨ هـ) فى شيزر ، شمالى حماه من أعمال الشام وتوفى عام ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) فى دمشق ٠ وقام الصليبيون بالاستيلاء على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م وهو فى الرابعة من عمره ، واستعادها صـــلاح الدين قبل وفاة أسامة بعام ٠ وطوال حياته ، كان أسامة على صلات مستمرة بالفرنجة ، يخاصمهم حينا ، ويصادقهم أحيانا (١) ٠ ولما ملك صلاح الدين دمشق استدعاه وهو شيخ جاوز الثمانين ، وأغرم بشعره ، فقد كان شاعرا أديبا فارسا ، الف كثيرا من الكتب الادبية والتاريخيـــة ، اهمها : كتاب « الاعتبار » وله بالغ الاهمية بين المؤلفات العربية ، لأن مصنفه كتب فيه مذكرات صور فيها تصويرا حيا العصر الذى عاش فيه ، فى حالتى الســـلم والحرب (٢) ٠

ومن المصادر التى اعتمدت عليها كتاب « الفتح القسى فى الفتح القدسى» للعماد الأصفهانى المتوفى عام ١٢٠١ م (٥٩٧ هـ) ٠ والواقع ان العماد بعد وفاة نور الدين محمود فى ١٥ مايو سنة ١١٧٤ م (١١ شوال سنة ٥٦٩ هـ) اتصل بالسلطان صلاح الدين الأيوبى اتصالا وثيقا ، وقربه اليه ، ورفع من شأنه ولم يزل كذلك الى أن توفى صلاح الدين ٠ وقد حرص العماد على تسجيل الوقائع الصلاحية فى نثره المسجوع ، والمراسل الحربى اليوم الـــذى يغذى صحف العالم كلها ووكالات الانباء بالأخبار الحربية ، اشبه مايكون بالعمـــاد الأصفهانى فى تتبعه اخبار صلاح الدين فى ميادين القتال والاسرى والقتلى والجرحى (٣) ٠

وثمة مصدر هام تحدث عن صلاح الدين الأيوبى وحياته وعصره ؛ وهو « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » ، الفه القاضى بهاء الدين بن شداد، الذى ولد بالموصل عام ١١٤٥ م (٥٣٩ هـ) ، واتصل بخدمة صلاح الدين عام ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) ، وولاه قضاء العسكر ، وقربه اليه ، وأغدق عليـــه

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « أسامة بن منقذ » ٠

(٢) أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١

(٣) نظير سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ، ص ٦٤ ٠

حبه ، وشهد معه معارك عدة حدثت بينه وبين الصليبيين ، وتوفى بحلب عام ١٢٣٩ م (٦٣٢ هـ) • وترجمته لصلاح الدين امتازت بالأسلوب السهل الدقيق ، ومنذ عام ١١٨٨ م يعتبر ابن شداد حجة فيما كتبه عن صلاح الدين الأيوبى ، شأنه فى ذلك شأن عماد الدين الأصفهانى •

أما ابن القلانسى ، فيعتبر كتابه « ذيل تاريخ دمشق » من المراجع الأصلية فى تاريخ الشرق الأدنى منذ بداية القرن السادس الهجرى ، وقد انتهى فيه الى عام ١١٦٠ م (٥٥٥ هـ) ، متخذا مدينة دمشق محورا للحوادث، وقد ألقى ابن القلانسى ضوءا على كثير من الحقائق الهامة فى بداية عهد الصليبيين ببلاد الشام •

أما أبو شامة ، فهو عبد الرحمن بن اسماعيل ، ولد عام ١٢٠٣ م (٥٩٩ هـ) بدمشق ، ومن مؤلفاته فى التاريخ : « كتاب الروضتين فى تاريخ الدولتين » ، الذى أرخ فيه لبطلين من ابطال الحروب الصليبية ، وهما نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى ، وسار فيه على طريقة السنين (١) وتألف كتابه الى حد كبير من الاقتباسات المستمدة من ابن القلانسى ، وبهاء الدين بن شداد ، وابن أبى طى ، والقاضى الفاضل ، والعماد الأصفهانى •

وهناك مرجع آخر يعتبر من أهم المراجع وهو كتاب « مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب » لمؤلفه جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، الذى ولد مع مولد القرن السابع الهجرى ، وتوفى قبيل نهايته (٦٠٤ ــ ٦٩٧ هـ = ١٢٠٨ م ــ ٩٨ م) وطنه الأصلى حماه ، ولكنه طوف فى بلدان الشرق الادنى الكبرى ، واقام فى القاهرة سنوات طويلة فى عهد الملك الصالح نجم الدين ايوب ، وشهد خلال مقامه فى مصر حملة لويس التاسع ، واحتضار الدولة الأيوبية ، وقيام دولة المماليك ، وما عاصر ذلك من غزوات التتار للعراق والشام وسقوط بغداد ، وانتهاء الخلافة العباسية ، ثم انتقالها الى القاهرة؛ ثم اتصل بالسلطان الظاهر بيبرس (١٢٦٠ ــ ١٢٧٧ م) ، وأرسل سفيرا عنه الى منفرد بن فردريك الثانى ملك الصقليتين وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة (٢) •

---

(١) احمد بدوى : الحياة العقلية ، ص ٢٧٥ ــ ص ٢٧٧ •

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب ، ج ١ ، ص ٤ •

على أنه لايمكن التحدث عن مصادر البحث دون ذكر أسم القلقشندى ، المتوفى سنة ١٤١٨ م (٨٢١ هـ) • فلا ريب ان كتابه « صبح الأعشى فى صناعة الانشا » ،يعتبر أكبر موسوعة ضمت بين دفتيها الكثير من النظم الحضارية التى تهم باحث التاريخ فى العصور الوسطى • وقد أفادنا هذا الكتاب فى بحث موضوع القبائل العربية ، والطوائف الدينية الاسلامية ببلاد الشام •

هذا فضلا عن عدد آخر من المراجع العربية الحديثة التى ذكرناها فى قائمة المصادر والمراجع فى نهاية الكتاب •

اما عن المصادر والمراجع الأجنبية التى اعتمدت عليها فهى كثيرة ، من بينها كتاب أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس •
Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum.
وهو لمؤلف مجهول ، تناول احداث الحملة الصليبية الأولى حتى سقوط بيت المقدس فى ايدى الصليبيين عام ١٠٩٩ م •

اما وليم الصورى صاحب كتاب
William of Tyre : A history of Deeds done beyond the sea.
فهو المع المؤرخين الصليبيين قاطبة ، ولد فى بيت المقدس قبيل عام ١١٣٠ م وتعلم العربية واليونانية ، واتصل عام ١١٦٢ م بالملك عمورى الأول ، ثم تعين عام ١١٦٧ م كبيرا لشمامسة صور ؛ والمتتبع لكتابات وليم التاريخية يجد أنه امتلك أعظم صفتين لكتابة التاريخ فى عصره : المعرفة الشخصية بأصحاب الحوادث بحكم منصبه الرسمى العالى ، وايمانه الشديد بالحقيقة، وبوصفه كان دبلوماسيا ، واسقفا ، ومؤدبا ملكيا ، ورئيسا لديوان انشاء مملكة بيت المقدس •

ومن المصادر التى أفدت منها مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية
Receuil des Historiens des Croisades (Historiens Occidentaux)

ومن المصادر التى اعانتنى فى كتابة هذا الكتاب ، كتاب « رحلة ماركوبولو » Marco Polo : Travels وماركوبولو أول الاوروبيين الذين توغلوا فى الصين ، ولمؤلفه الذى قص فيه اخبار رحلته التى استغرقت أربعة وعشرين عاما (١٢٧١ ـ ١٢٩٥ م) عبر آسيا كلها • وكانت له عناية بما يشاهد وروح قوية للملاحظة ، لايفوتها تفصيل ما • وقد أفدت من كتاب ماركوبولو

عند الحديث عن طائفة الاسماعيلية ، التى لعبت دورا رئيسيا فى احـــداث الشام أبان الحروب الصليبية ٠

ومن بين الكتب التى اعتمدت عليها عند الحديث عن النشاط الاقتصادى ببلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كتاب :
Heyd : Histoire du Commerce du Levant au Moyen age. 2 Vols.
وهو يقـــع فى جزءين ، ويعالج تاريخ التجارة فى العصور الوسطى ، وتعرض للتاريخ التجارى لبلاد الشام على عصر الحروب الصليبية ٠ ويعتبـر هذا الكتاب مرجعا كبيرا ، يمتاز بحسن عرضه ، ولا غنى عنه لباحث يتناول دراسة النشاط الاقتصادى فى العصور الوسطى ٠

ومن الكتب الأجنبية التى استفدت منها :
King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, Camb 1932.
وقد تناول هذا الكتاب نشاة طائفة الاسبتارية ونظمها والدور الذى لعبته فى تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية ، هذا بالاضافة الى أنه تناول احـــداث الطائفة الشهيرة الأخرى ، وهى الداوية ، التى كانت المنافسة الخطيـــرة للاسبتارية ٠

وثمة مراجع أخرى تناولت كافة احداث الحروب الصليبية ببلاد الشام، فضلا عن الأنظمة الحضارية التى وجدت مواكبة لتلك الحروب ٠ وأخص بالذكر منها :
Chalandon : Histoire de la Première Croisade.

ومن المراجع القيمة التى تناولت النظام الاقطاعى فى مملكـــة بيت المقدس كتاب :
La Monte : Feudal Monarchy in the Latin Kingdom.

وعند دراستى للفنون الحربية فى الفصل الرابع اعتمدت على عـــدة كتب منها :
Oman : A History of the Art of War in the Middle Ages. (2 Vols.)

وثمة كتاب آخر تناول دراسة القلاع الصليبية ببلاد الشام ، افدت منه ايضا وهو :
Fedden : Crusader Castles.

ومن الكتب التى تناولت النشاط الاقتصادى والاجتماعى فى العصـــور الوسطى كتاب :

Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages. (2 Vols.)

وهو من المراجع التى خدمت البحث ، اذ تناول مؤلفه طومسون فترة الحروب الصليبية ببلاد الشام .

وبعد ، فان هذه اهم مصادر ومراجع الكتاب وليست كلها ، وبصرف النظر عما اذا كان هذا الكتاب قد أتيت فيه بالجديد من المادة العلمية ، فانه على قدر طاقتى محاولة متواضعة .

ولا يسعنى سوى تقديم خالص شكرى وامتنانى لأستـــاذى الجليل الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، لما أمدنى به من توجيه ونصح وارشاد .

والله ولى التوفيق . ،،،

القاهرة فى يوليو ١٩٧٩ م

المؤلف

الفصل الأول

المجتمع الاسلامى

العناصر السكانية :

- القبائل العربية
- الاتراك
- التركمان
- الأكراد

الطوائف المذهبية :

- الاسماعيلية
- الدروز
- النصيرية

اولا ـ العناصر السكانية :

حفلت بلاد الشام خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر بعناصر سكانية عديدة متباينة قلما نجدها فى بلد آخر ، وذلك بسبب موقعها من ناحية واهميتها الدينية من ناحية ثانية ، فضلا عن الظروف التاريخية التى مرت بها تلك البلاد فى ذلك الدور من ناحية ثالثة · ولعلنا لانغالى اذا قلنا ان تلك البلاد عاش فيها مزيج متباين من الاجناس ، مكونا بذلك مجتمعين اساسيين هما : المجتمع الاسلامى والمجتمع المسيحى (١) · ومما لاشك فيه أن المجتمع الاسلامى فى الشام كان يمثل السمة الغالبة على العناصر الوطنية صاحبة البلاد الأصلية ، فالبعض منه يرجع الى اصل عربى خالص ، والبعض الآخر انحدر من أصول غير عربية دانت بالاسلام منذ أمد بعيد ·

والواقع ان هجرة القبائل العربية من شبه الجزيرة العربية الى بلاد الشام لم تتوقف عبر العصور القديمة ، وذلك لأسباب عديدة ، منها مزاولة النشاط التجارى ، ومنها الجفاف المتزايد لشبه الجزيرة بين عصر وآخر · وأخيرا ماكان يحدث من حروب بين مختلف قبائل شبه الجزيرة ، الأمر الذى دفع بعضها الى الهجرة الى بلاد الشام فى شكل موجات بشرية (٢) · ومن المعروف أن بلاد الشام ماهى الا امتداد لشبه الجزيرة العربية من ناحية الشمال ، ومن ثم حدثت هجرات للقبائل العربية نتيجة انتظام الفصول الاربعة · فالقبائل كانت تقضى فصل الشتاء فى الجزيرة العربية لاسيما فى نجد ، وفى فصل الربيع كانت القبائل تتحرك الى الشمال بحثا عن المراعى · وفى تقدمها تصل الى حدود الاقاليم المتحضرة مثل الشام (٣) · ومع موجة الفتوحات العربية فى صدر الاسلام ، اندفعت القبائل العربية وبطونها الى الشام ، حاملة معها الدماء العربية واللغة العربية والدين الاسلامى الى تلك البلاد ·

وقد انقسم العرب فى بلاد الشام الى حضر وبدو ، والحضر هم أهالى

---

(١) Rapport : Histoire de la Palestine. p. 87.

(٢) François Nau : Les Arabes Chrétiens. pp. 7—10.

(٣) Nau : op. cit. pp. 31—32.

المدن والقرى الشامية ، واشتغلوا بالنشاط الاقتصادى من زراعة وصناعة وتجارة ٠ ومن أهم القبائل العربية التى استقرت فى بلاد الشام ، ويهمنا ذكرها خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر :

١ ـ بنو كلاب :

رحل عدد كبير من تلك القبيلة الى الشام زمن الفتوحات الاسلامية ، وربما قبل ذلك ، ثم تدفقت اعداد منهم الى الشام ببداية عهد الخلافة العباسية ، الى أن كان تحركهم الكبير من أرض نجد فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، حيث شاركوا فى أحداث الشام (١) ، حتى نجحوا فى اقامة امارة لهم فى حلب ، بزعامة صالح بن مرداس امير بنى كلاب عام ٤١٤ هـ ، الذى استطاع انتزاعها من أيدى حكامها الفاطميين (٢) ٠ ومن حسن حظ بنى مرداس ، أن صادفت جهودهم فى حلب فترة ركود مرت بها الامبراطورية البيزنطية ، بعد وفاة امبراطورها الشهير باسيل الثانى عام ١٠٢٥ م وولاية سلسلة من الاباطرة الضعاف ، لم تمتد همتهم لمد سيطرتهم شمال الشام (٣) ٠ وعلى الرغم من أن امراء بنى مرداس ، بذلوا جهدا كبيرا من أجل الحفاظ على نفوذهم فى حلب ، فانهم عجزوا ، لأنهم كانوا مهددين من ناحية الفاطميين ، كما كان لضعفهم اثر كبير فى عدم استقرار الامور فى ولايتهم ، وعلى الأخص منذ بداية النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى، وقد عجلت هذه الحالة بزوال حكم المرداسيين فى حلب بعد أن ظلوا يحكمونها ما يقرب من ستين عاما (٤) ٠ هذا ولم يتيسر للفاطميين القضاء على سلطة بنى مرداس على الرغم من محاولاتهم المتكررة ٠ وفى أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) تعرضت حلب لهجوم السلاجقة وبعض امراء العرب ، فسار اليها مسلم بن قريش بن بدران العقيلى صاحب الموصل،

---

(١) بيشوف : تاريخ حلب ، ص ٢٧ ـ ص ٢٨ ،
محمد الشيخ : الامارات العربية فى الشام ، ص ٨ ٠

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ ١ ، ص ٣٥٤ ،
ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٢ ص ١٨٠ ،
جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى الشام ، ص ٥٥ ٠

(٣) Gibb: The Caliphale and the Arab States. p. 91.

(٤) جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٥٧ ٠

واستولى عليها من المرداسيين عام ١٠٧٩ م(٤٧٣هـ) ثم أرسل الى ملك شاه سلطان السلاجقة ليقره عليها ، فأجاب السلطان طلبه ، وبذلك قضى على المرداسيين (١) • ومما عرف عن المرداسيين انهم يتكلمون التركية ، ويركبون الأكاديش ، وهم رجال حروب ، من اشد القبائل العربية بأسا ، ولو انقادوا لأمير واحد لم يبق لاحد من العرب بهم طاقة (٢) •

٢ ـ بنـــو طيء :

أضحت القبائل العربية ابتداء من القرن الرابع الهجرى (العاشـــر الميلادى) سادة الموقف ببلاد الشام ، واستمرت صاحبة النفوذ حتى قيـام الدولة الفاطمية فى مصر ؛ ومن مصر انطلقت الدولة الفاطمية لتثبت أقدامها فى الشام ، فاصطدمت بالقبائل العربية هناك . وفى القرن الرابع الهجرى حدث تغيير فى أماكن استقرار القبائل العربية ، منها انتقال بنى طيء المقيمين فى حمص الى فلسطين جنوب الشام ، فى الاقليم الواقع شرق نهر الاردن والاطراف الغربية لصحراء الشام (٣) •

وفى أواخر القرن الرابع الهجرى ، حاول بنو طيء تكوين دولة فى فلسطين مستقلة عن الخلافة الفاطمية ، فثار زعيمهم مفرج بن دغفل بن الجراح بالرملة عام ٩٩٨ م (٣٨٨ هـ) ، ولكن الفاطميين اخضعوا ثورته وعفوا عنه . وفى عام ١٠٠٩ م (٤٠٠ هـ) زحف حسان بن مفرج بن دغفل بن الجراح الى الرملة . واستولى عليها بعد أن قتل واليها من قبل الفاطميين (٤) . غير أن الفاطميين لم يتوانوا عن قتال بنى الجراح ، فأرسلوا جيشا عام ١٠١٣ م (٤٠٤ هـ) استطاع ايقاع الهزيمة بالطائيين • ومنذ ذلك الوقت ، ضعف شأن بنى الجراح ، وتمكن الفاطميون من استرداد سيطرتهم على البقـاع الجنوبية من الشام (٥) •

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٨ •

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١ ، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١ ، جـ ٤ ، ص ٢٣١ ـ ٢٣٢

(٣) Lammens : La Syrie Précis Historique, Vol. II PP. 9—16 and Gibb : op. cit. P. 89

(٤) جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٤٦ ــ ص ٤٧ •

(٥) نفس المرجع السابق والصفحة

ومن طيء انحدر آل ربيعة ، وهم بنو ربيعة بن حازم بن على بن مفرج ابن دغفل بن الجراح . وكان ظهور ربيعة فى عهد الأتابك عماد الدين زنكى (١١٢٧ - ١١٤٦ م) صاحب الموصل . وصارت له الزعامة على عرب الشام فى عهد طغتكين السلجوقى صاحب دمشق . ووفد على السلطان نور الدين محمود فاكرمه وشاد بذكره (١) . وفى أيام الدولة الأيوبية ، ثم من بعدها دولة المماليك البحرية ، حاز البعض من آل ربيعة على مكانة وأبهة ، وصار لهم عند السلاطين «حرمة كبيرة وصيت عظيم» (٢) . وقد انقسم آل ربيعة الى ثلاثة افخاذ ، لكل منها امير يتزعمها ، والفخذ الاول (آل فضل) وديارهم ممتدة من حمص الى قلعة جعبر والرحبة فى جانب الفرات ؛ والفخذ الثانى من آل ربيعة (آل مرا) ومنازلهم حوران ؛ أما الفخذ الثالث من آل ربيعة (آل على) وديارهم غوطة دمشق (٣) .

٣ - بنـو كلب :

يرجع نسب تلك القبيلة الى كلب بن وبرة بن ثعلبه بن حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة ، وكانوا قبل الاسلام ينزلون دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام (٤) . وقبيلة كلب من القبائل التى أدت الى اضطراب الأوضاع السياسية بالشام فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، بغرض تحقيق استقلال ذاتى لها . فاستقرت فى وسط الشام (٥) . وتحقيقا لهذه الغاية ، دخلت فى الحلف الذى دعى صالح بن مرداس امير بنى كلاب لعقده عام ١٠٢٤ م (٤١٥ هـ) ، كى ينحد زعماء القبائل العربية جميعا لاخراج الفاطميين من بلاد الشام ، وتقسيمها بينهم ، على أن يكون من حلب الى عانة على نهر الفرات (شمال الشام) لصالح بن مرداس ، ومن الرملة

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٠٣ ،
الخالدى : المقصد الرفيع المنشا ، ورقة ١٥٥ ب
(٢) الخالدى : المقصد الرفيع ، ورقة ١٥٦ أ .
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٠٤ - ص ٢١٠ ،
ابن خلدون : تاريخه ، القسم الرابع ، ص ٩٣٦ - ص ٩٣٩ .
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١ ، ص ٣١٦ .
(٥) Gibb : op. cit. Vol. 1 P. 87
عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبى ، ص ٦٠ - ص ٦١ .

الى حدود مصر (جنوب الشام) لحسان بن مفرج بن الجراح أمير الطائيين، ودمشق وما يحيط بها (وسط الشام) لسنان بن عليان امير الكلبيين (١) ولما رأى الفاطميون الخطر الذى يهدد نفوذهم من جراء ذلك الاتفاق ، جهزوا جيشا عام ٤٢٠ هـ ، لمحاربة هذه القوى المتحالفة ، وقد تمكن من الحاق الهزيمه بها عند طبرية ، وبذلك استرد الفاطميون البقاع الجنوبية والوسطى من بلاد الشام (٢) ٠

٤ ـ بنــو عمــار :

حدث قبل أن تفقد الامارة المرداسية استقلالها بنحو عشر سنوات ، أن شهدت بلاد الشام قيام امارة عربية ، اسسها أمين الدولة ابو طالب بن عمار عام ١٠٧٠ م (٤٦٢ هـ) فى مدينة طرابلس منسلخا بها عن طاعة الخلافة الفاطمية (٣) ٠ وكانت طرابلس قد دخلت فى أيدى الفاطميين ابتداء من سنة ٩٧١ م (٣٦٠ هـ) ، اذ تذكر المصادر صراحة أن كان يليها من قبلهم ريان الخادم (٤) ٠ وامتاعة طرابلس ، استطاعت أن تسلم من الغزوات البيزنطية ابتداء من الربع الأخير من القرن العاشر الميلادى ، كما نجت من هجوم السلاجقة ، لتحتفظ باستقلالها (٥) ٠ وعندما طرق الصليبيون بلاد الشام فى أواخر القرن الحادى عشر ، وتداعت أمامهم قوات الأتراك السلاجقة ، فرحت الأسرات العربية بشمال الشام ، وأظهرت الاستعداد لعقد اتفاقات مع الصليبيين ، ومن بين تلك الأسر كانت اسرة بنى عمار فى طرابلس ؛ والواقع أن الصليبيين رحبوا بصداقة بنى عمار لما لذلك من بالغ الاهميه ، اذا وضعنا فى الحسبان ضرورة زحف الجيش الصليبى جنوبا (٦) ٠ على أن طرابلس

---

(١) جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٤٧ ،
الباز العرينى : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ص ١٥ ٠
(٢) جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٤٧ ــ ص ٤٨ ٠
(٣) محمد الشيخ : نفس المرجع ، ص ١١٤ ٠
(٤) ابن الفرات : تاريخه ، ج ٨ ، ص ٧٧ ،
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٠ ٠
(٥) محمد الشيخ : المرجع السابق ، ص ١١٦ ــ ص ١١٧ ٠
(٦) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « ابن عمار » ٠

تعرضت للهجوم الصليبي عام ١١٠٩ م . الذى استطاع أن يفتح أبوابها ، ويعيث فيها فسادا ونهبا ٠

٥ ـ بنــو منقــذ :

قامت بشيزر امارة عربية عام ١٠٨١ م ، انشأها على بن منقذ ، الذى اشترى المدينة وقلعتها فى تلك السنة (١) ٠ وقد ظلت شيزر محتفظة باستقلالها وسط الاتراك السلاجقة ، لاسيما بعد وفاة ملكشاه عام ١٠٩٢ م ، وحدوث النزاع بين ورثته ، اذ قام النزاع بين أخيه تتش وابنه باركياروق ، وبعد انهزام تتش اقتسم ولداه سوريا ، فاخذ رضوان حلب واخذ دقاق دمشق (٢) وعندما اتى الصليبيون الى الشام ، كان من الطبيعى ان يرسم بنو منقذ لأنفسهم سياسة تمكنهم من الاحتفاظ بنفوذهم فى المدينة والقلعة ، ولهــذا وقفوا موقف الحياد من الجيش الصليبى الزاحف ٠ وقد رحب الصليبيــون بحياد بنى منقذ كى يطمئنوا الى سلامة الجيش الزاحف جنوبا (٣) ٠ وطالما تردد ذكر امراء شيزر فى احداث شمال الشام ، حتى انقرضت الاسرة بعد تدمير شيزر بسبب الزلزال الذى حدث عام ١١٥٧ م (٤) ٠ ومن هذه الأسرة ، أسامة بن منقذ مؤلف كتاب « الاعتبار » الذى وصف فيه الحياة الاجتماعية بالشام ، فى فترة من فترات الحروب الصليبية ٠

٦ ـ التنوخيــــون :

يرجع نسب التنوخيين الى أصل قحطانى ، ونزلوا قبل الاسلام فى شمالى الشام ، وقد سموا تنوخيين لأنهم حلفوا على المقام بالشام ، فالتتنخ والتنوخ المقام (٥) ٠ ويرى لامنس (٦) ان قبائل تنوخ وبنى حمرة وبنى بحتر ، انتشرت فى لبنان الوسطى ، قادمة من شمال سوريا ، فى فترة من

---

(١) الباز العرينى : المرجع السابق ، ص ١٥ ٠
(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « شيزر »
(٣) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٧٧ ٠
(٤) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « شيزر »
(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١ ، ص ٣١٨ ،
محمد كرد على : خطط الشام ، جـ ١ ، ص ٦١ ، ص ٦٢ ٠
(٦) La Syrie Précis Historique, Vol. II P. 9

المستحيل تحديدها تاريخيا ، ولكنها على أية حال قبل مجيء الفرنجة الى الشـــــام ٠

وفي عهد الدولة النورية ، تقرب كرامة بن بحتر بن على بن ابراهيم التنوخي من السلطان نور الدين محمود ، فاقطعه عام ١١٦٠ م (٥٥٦ هـ) الغرب وما يتبعه من قرى ، فسمى لذلك امير الغرب (١) ٠ ويبدو ان ازدياد قوة المسلمين باستيلاء نور الدين محمود على دمشق عام ١١٥٤ م ، جعل كرامة بن بحتر يترك الفرنجة وينضم الى نور الدين ٠ وتلى ذلك ان بعد الامير كرامة عن حياة البداوة ، وفضل الاستقرار بدلا من التنقل والترحال ، وبنى له حصنا بسرحمور (٢) ، وهي قرية قريبة من عرامون ٠ كما اقطع صلاح الدين الأيوبي ايام فتح بيروت سنة ١١٨٧م (٥٨٣ هـ) املاك كرامة ابن بحتر ، لابنه حجى مكافأة له من أجل خدمته ومناهضته للفرنجة (٣) ٠ واقر الأفضل بن صلاح الدين أمراء الغرب على مابأيديهم ، نظرا لحاجته الى عونهم فى صراعه ضد أخيه العزيز عثمان، اذ رد عام ١١٩٦م على كتاب ورد اليه من حجى (جمال الدين حجى بن كرامة) الداخل فى طاعته ، وحثه فى هذا الرد على الجهاد ، ووافق فى النهاية على اقطاعه الغرب جميعه (٤) ٠ وبعد غزوة هولاكو قائد جيش التتار لبلاد الشام ، توجه جمال الدين حجى الى دمشق ، حيث يقيم كتبغا نائب هولاكو فى الشام ، فاجتمع به ، وأظهر الطاعة للتتار، فكتبوا له منشـــورا عام ١٢٦٠ م (٦٥٨ هـ) باقراره على مابيـــــده من اقطاعات (٥) ٠ ويتضح من هذا ان امراء الغرب كانوا مع من غلب ، فقـــد ظلوا يتارجحون بين الولاء للصليبيين حينا وللمسلمين احيانا ، كما تارجحوا بين الولاء للمماليك من ناحية وخصوم المماليك من ايوبيين وتتار من ناحية أخرى : وبمعنى آخر لافرق عندهم بين مسلم أو صليبى أو مغولى (٦) ٠

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٧٠ ،
صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٤٨ ٠
(٢) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٧٠ ٠
(٣) جورج ينى : تاريخ سوريا ، ص ٤٣٨ ،
ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية ، ص ٤٠ ، ص ٣٨٦ ٠
(٤) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٥٢ ٠
(٥) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٥٦ ـ ص٥٧ ٠
(٦) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٠٩ ٠

ولهم منشور من صاحب صيدا الفرنجى Arnaud de Sagette عـــام ١٢٥٥ م (٦٥٤ هـ) ، يستفاد منه ومن غيره حسن العلاقات التى كانت قائمة بين الصليبيين المستقرين بالســاحل والامراء البحتريين المسلمين أصحاب جبال لبنان المشرفة على تلك السواحل (١) ٠ ويبدو أن الظاهر بيبرس غضب عليهم بسبب تقلبهم ، فاعتقل بعض زعمائهم فى مصر ، ورفض ان يطلق سراحهم الا بعد الانتهاء من حروبه ، وبالفعل ما ان تم له فتـح انطاكيه حتى أطلق سراحهم ٠ وبالرغم من ذلك ظل بيبرس يتشكك فى ولاء البحتريين ، حتى أرسل ضدهم حملة قوية اجتاحت بلادهم وعاقبتهم فى عنف ، وبعد بيبرس لجأ السلطان قلاوون الى اضطهاد البحتريين ، فصادر اقطاعاتهم ووزعها على حماية طرابلس من المماليك ؛ وســرعان ما أدرك البحتريون عاقبة عنادهم ، فعادوا الى الولاء لدولة المماليك ، وعندئذ ردت اليهم اقطاعاتهم على عهد الأشرف خليل بن قلاوون عام ١٢٩١ م (٢) ٠ ومما يدل على ولائهم ايضا ، انه عندما فتحت بيروت ســنة ١٢٩١ م (٦٩٠ هـ) على يد السلطان الاشــرف خليل ، كان امراء الغرب أول من دخلها (٣) ٠ ومن المعروف أن أمراء الغرب من بنى تنوخ تولوا أعمال الدرك بلبنان ، فضلا عن التجسس على أخبار العدو (٤) ٠

وثمة فريق آخر من التنوخيين ، هم الأرسلانيون ، ومركزهم قـرب بيروت ، وكانوا موالين لدولة المماليك ، واشتهروا بمواقفهم ضد التتــار والصليبيين ٠ ففى حروب التتار ــ وخاصة فى موقعة عين جالوت فى سبتمبر ١٢٦٠ م ــ كان الأمير زين الدين صالح الارسلانى يقود رجاله بجــانب المماليك حتى تم لهم النصر (٥) ٠

٧ ــ الشــهابيون :

عندما دبت الوحشة بين صلاح الدين الأيوبى ونور الدين محمود ،

---

(١) لويس شيخو : بيروت تاريخها وآثارها ، ص ٦٠ ــ ص ٦١ ٠
(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٠٩ ٠
(٣) لويس شيخو : المرجع السابق ، ص ٧١ ٠
(٤) ابراهيم طرخان : المرجع السابق ، ص ١٩٨ ٠
(٥) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢١٠ ٠
محمد كامل حسين : طائفة الدروز ، ص ٢٥ ٠

جهز الأخير الجيوش فى حوران للتوجه بها الى مصر والقضاء على صلاح الدين ؛ فما كان من الامير منقذ الشهابى الا ان جمع الشهابيين ، ورحل بهم من حوران الى وادى التيم عام ١١٧٢ م (٥٦٨ هـ) ، حتى لايتدخلوا فى أى نزاع يشب بين الطرفين ، « لما لهم عند السلطان صلاح الدين من المحبة والمنزلة الرفيعة (١) • ويبدو أن صلاح الدين كان قد اتصل بالشهابيين ، واستمالهم اليه ، وطلب منهم اعاقة ارسال الحملة اذا فكر نور الدين فى توجيهها الى مصر ، فلما رأوا أنهم لاقبل لهم بنور الدين ، رأوا من الاصوب شد الرحال الى وادى التيم ارضاء لصلاح الدين • ولما سمع نور الدين بما ازمع عليه الشهابيون ، استفسر عن الأسباب التى ادت بهم الى ذلك ، فتعللوا بان بلادهم أضحت خرابا • وعلى أية حال ، فانهم نزلوا بوادى التيم فى خمسة عشر الفا ، ولما احس الصليبيون بهم أرسل لهم صاحب قلعة الشقيف جيشا ضخما التقى بهم فى حاصبيا ، بيد انهم انزلوا به هزيمة منكرة ، الأمر الذى جعلهم يثبتون أقدامهم فى وادى التيم (٢) • وقد اشترك الشهابيون بنجاح فى قتال الصليبيين ثم التتار ، وبخاصة اثناء اغاراتهم على بلاد الشام فى عهد السلطان المنصور قلاوون عام ١٢٨١ م • وقد حالف الشهابيون بنى معن وأصهروا اليهم (٣) •

٨ ـ المعنيون :

يرجع المعنيون فى اصلهم الى الامير معن ، الذى ظهر فى لبنان على عهد الخليفة العباسى المسترشد (١١١٨ ـ ١١٣٥ م) ، وتوفى عام ١١٤٩ م فى عهد السلطان نور الدين محمود (٤) • وفى عام ١١٢٠ م (٥١٤ هـ) جمع الامير معن أهله وعشيرته ، مغادرا سهل البقاع فى لبنان ، ونزل بهم فى جبل الشوف ، فى الجزء الجنوبى من غرب لبنان ، المطل على السهل الساحلى

---

(١) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ٢ ص ٤٠ ـ ص ٤١ •
محمد كامل حسين : طائفة الدروز ، ص ١٣ •
(٢) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ٢ ، ص ٤١ •
(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢١٠ •
(٤) Hitti : The Origins of the Druze People. p. 5

بين بيروت وصيدا ، وكان ذلك الجبل خاليا من السكان ؛ واتصل الامير معن بالامير بحتر التنوخى امير الغرب اذ ذلك ، وتقرب اليه فى مودة (١) . وبدلا من حياة التنقل والترحال ، أثر المعنيون حياة الاستقرار ، مما جعل الامير معن يبنى المنازل والديار ؛ وقد حارب المعنيون الى جانب المسلمين ضد الصليبيين ، كما كانوا الملجأ الامين لكل من فر أمام الفرنجة (٢) . وعندما وفد الشهابيون الى وادى التيم عام ١١٧٢ م (٥٦٨ هـ) ، جاء اليهم الامير يونس بن معن مهنئا اياهم (٣) . وقد حالف المعنيون اقرباءهم التنوخيون فى الغرب والشهابيون فى وادى التيم .

والى جانب تلك القبائل الهامة ، سكنت قبائل عربية أخرى عديدة فى أنحاء متفرقة من بلاد الشام ، ترجع فى أصولها الى القحطانيين والعدنانيين. ومن القبائل القحطانية التى نزحت الى الشام : جرم وهم بنو ثعلبة بن عمرو بن الغوث من طىء ومنازلهم بلاد غزة والداروم (٤) ؛ وجذام التى تفرع منها بنو صخر بالكرك ، وبنو مهدى بالبلقاء ، وبنو عقبة وبنو زهير بالشوبك وبنو سعيد بصرخد وحوران (٥) ، وزبيد التى استقرت فى صرخد ودمشق وحوران (٦) . ومن القبائل العدنانية التى سكنت الشام : بنو خالد فى حمص الذين يدعون النسب الى خالد بن الوليد ، على الرغم من اجماع النسابة على انقراض عقبه (٧) ؛ وجماعة من ولد جعفر بن أبى طالب بوادى بنى زيد وبصرخد (٨) .

هذا عن الحضر ، أما البدو فقد عاشوا حياة التنقل والترحال ، ففى

---

(١) Hitti : op. cit. PP. 5—6

(٢) محمد كرد على : خطط الشام ، جـ ١ ، ص ٣٠٢ .

(٣) محمد كرد على : خطط الشام جـ ٢ ص ٤١ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١ ، ص ٣٢٢ .

(٥) صبح الأعشى ، جـ ١ ، ص ٣٣٤ ،
الخالدى : المقصد الرفيع المنشأ ، ورقة ١٥٦ ب .

(٦) صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢١٣ ـ ص ٢١٤ .

(٧) صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢١٤ .
الخالدى : المقصد الرفيع ، ورقة ١٥٧ أ .

(٨) صبح الأعشى ، جـ ١ ، ص ٣٥٩ ـ ص ٣٦٠ .

فصل الشتاء يتحركون ناحية الشرق ، بحثا عن المناخ المعتدل الملائم والمراعى الوفيرة (١) • أما فى الصيف فانهم يعودون مرة أخرى الى الغرب ، لاسيما جبال لبنان ، التى تزخر بالرعاة المتجولين من مكان الى آخر سعيا وراء العشب والكلا والماء (٢) • وأولئك البدو ، ألفوا حياه البداوة واستمرارها ، اذ جعلتهم بمنأى عن كل سلطة • وقد حاول سلاطين المماليك ادخالهم ـ ببلاد الشام ـ فى النظام الاقطاعى ، فأضفوا على زعمائهم القاب الامارة ، واقطعوهم الاقطاعات ، وفرضوا عليهم التزامات معينة أهمها الولاء للدولة ، وحراسة الطرق والدروب الصحراوية ، وتقديم الرجال وقت الحرب ، ولكنهم أنفوا من ذلك النوع من التنظيمات التى تفقدهم الكثير من حريتهم (٣) •

فاذا تركنا جانب العنصر العربى ، وجدنا ان المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام ضم عناصر اخرى عربية تركت بصماتها واضحة فى تشكيل هذا المجتمع ، أهمها :

١ ـ الأتراك :

ترجع الهجرات الاولى لقبائل الاتراك من أقصى التركستان فى خلال القرون الثانى والثالث والرابع الهجرية ، ميممة وجهها شطر الغرب ، فاستقرت فى اقليمى ما وراء النهر وخراسان • ولقد هاجرت القبائل التركية تحت ضغط ظروف قاهرة ، كغلبة احداها على الأخرى ، أو سوء الحالة الاقتصاديه، أو حدوث قحط يستحيل معه استمرار الحياة• وفى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، بدأ الأتراك ولا سيما السلاجقة يستقرون فى بلاد ما وراء النهر ، ومن المعروف أن سمات البداوة قد غلبت عليهم ، فمالوا الى التنقل والارتحال طلبا للرزق ، وسعيا وراء مواطن العشب والكلأ ، فكانت جذور الحياة القبلية راسخة فى أعماق نفوسهم ، مما اثر فى دولتهم ، وفى حاضرهم ومستقبلهم تأثيرا بالغا (٤) • وأثرت البداوة فى تعصب الاتراك الشديد للاسلام بعد اعتناقهم له ، وميلهم الشديد الى أهل السنة والجماعة

---

(١) Les Guides Bleus sous la direction de Marcel. Monarche p. xxxIx.

(٢) Loc. cit.
Robin Fedden : The journal of a voyage. p. 1—6

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٢٠٥ ـ ص ٢٠٦ •

(٤) عبد المنعم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، ص ١٦ ـ ص ١٧ •

بعد اتباعهم المذهب السنى (١) • ومن المؤكد أن قيام دولة الاتراك السلاجقة عام ١٠٣٧ م (٤٢٩ هـ) ، واعتراف الخليفة العباسى بها ، يعتبر حدثا جديدا فى تاريخ ايران والعالم الاسلامى ، لأن تلك الدولة سرعان ما لعبت دورا رئيسيا فى احداث الدولة الاسلامية ، ولم تلبث ان سيطرت على جانب كبير من ممتلكات الدولة البيزنطية والمناطق المجاورةلايران (٢)• ويعتبر « طغرل » الذى توفى عام ١٠٦٣ م (٤٥٥هـ) المؤسس الحقيقى لدولة الاتراك السلاجقة فى ايران والعراق ، فهو الذى اظهرها ، وجعل السلاجقة من بعده يشرفون على بلاد الروم (٣) . وسواحل البحر المتوسط • وفى الشام الف الترك الأرستقراطية الاقطاعية ، وهى فئة قليلة العدد متناثرة ، لم تتغلب على الشام الا قبل مجئ الصليبيين بوقت قصير (٤) • ويمكن القول ان الأتراك فى الشام لم يكونوا كتلة واحدة ووسطا واحدا ، فنزولهم فى جزء صغير من شمال الشام ، جعل من مدينة حلب حدا بين البلاد العربية والتركية اذ فى شمال تلك المدينة يقل المتكلمون باللغة العربية ، وتصير البلاد الى التركية أقرب (٤) • وخدم الأتراك فى جيش صلاح الدين ضد الصليبيين ، وكان يفضل عنصرهم ــ هم والتركمان والأكراد ــ ، لما اعتادوه من عيشة التقشف والخشونة ، والقدرة على احتمال الأسفار والقتال (٦) •

٢ ــ التركمـــــان :

التركمان اصلهم قبيلة من الأتراك عاشوا فى المنطقة بين بحر الخزر ونهر جيجون ، ثم انتقلت جموع منهم غربا ليستقروا شرقى أسيا فى قونيه وقيصرية وسافوستا Savosta، بالاضافة الى شمالى بلاد الشام (٧) ، وهم من العناصر البعيدة عن السامية التى كونت أقلية ضئيلة وسط اغلبية من العرب فى شمال الشام (٨) • وقد تعددت الاراء الخاصة حول تفسير معنى

(١) عبد المنعم حسنين : المرجع السابق ، ص ٢١ •

(٢) عبد المنعم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، ص ٢٩ •

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٤ ــ ص ٤٥ •

(٤) Miller : Essays on the Latin orient. P. 527

(٥) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٨٢ •

(٦) نظير سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ، ص ٢٨ ــ ص ٣٠ ، دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « الاتراك » •

(٧) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « الاتراك » •
Marco Polo : The Travels, P. 20

(٨) Les Guides Bleus, P. XLI

لفظ « تركمان » غير أنه بانتشار الاسلام بين كافة العناصر التركية وخاصة منذ القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) ، تغير مفهوم لفـــظ « تركمان » فصار يطلق على جميع الأتراك الذين أسلموا كلمة «ترك» ، أما « تركمان » فقد أطلق على أولئك المشتغلين بالرعى من ناحية ، والذين عاشوا عيشة بدوية من ناحية أخرى · ولكن ليس معنى ذلك أن التركمان انعزلوا انعزالا تاما عن حياة المدن والمشاركة فى أحداثها ، اذ استطاعوا تكوين دويلات صغيرة فى أنحاء الشرق الأدنى (١) ·

وقد ظهر التركمان لأول مرة فى الشام فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وفى القرن الذى تلاه اضحوا قوة ، وازداد نفوذهم · ولهذا راى عماد الدين زنكى الاستفادة منهم ، فقد نقل طائفة منهم تسمى التركمان الايوانية الى بلاد الشام ، واسكنهم حلب ، وكلفهم بمحاربة الفرنجة ، على أن يكون لهم الحق فى الاستيلاء على كل أرض ، يستطيعوا انتزاعها من الفرنجة ؛ وبذلك نشروا السلام فى شمال الشام · وقد سار نور الدين محمود على سياســـة أبيه ، فحرص على انزالهم منطقة الحدود بين املاكه وأملاك الصليبيين ، مما أدى الى اتساع الجهات التى نزلوا بها ، وكونوا الكثرية فيها · وفرارا من وجه التتار ، فرت أعداد كبيرة من التركمان من وسط آسيا الى الاناضول ، وهبط جانب كبير منهم فى ديار بكر ، كما استقدم البعض منهم الى الشام · أما فى القرن الثالث عشر ، وعلى عهد سلطنة المماليك ، انخـــرط التركمان فى جيوش الشام ، ووصل عددهم عام ١٢٧٦ م (٦٧٤ هـ) الى عشرين ألف جندى وثلاثين الف فارس ، كانوا على أهبة الاستعداد للالتحاق بجيش السلطان الظاهر بيبرس ·

ولم ينس التركمان أنهم بدو رحل ، فعاشوا عيشة البداوة ، متمسكين ببعض عاداتهم ، فكبيرهم كان حكمه نافذا على « قاصى التركمان ودانيهم ، وكلمته لاتخالف » (٢) · كما أدى تحمسهم البالغ للمذهب السنى · الى كرههم

---

(١) حامد زيان : حلب فى العصر الزنكى ، ص ١٠١ ·

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٥٣٦ هـ

الشديد للمذهب الشيعى ، وبغضهم للشيعة ، وعزفوا عن الفلسفة أو الجدل فى أمور الدين (١) ويكاد التركمان يختصون بأعمال الدرك ، فبنو عساف التركمان . مكلفون بالدرك من حدود انطلياس على نهر الكلب الى مغارة الأسد بالشام . فلم يسمحوا بعبور نهر الكلب الا لمن يحمل « ورقة جواز » من الوالى فى تلك الجهات أو من امراء الغرب من بنى تنوخ (٢) ٠

٣ ــ الأكـــراد :

سكن الأكراد منذ القدم ــ ابتداء من عام ٦٥٠ ق٠م ــ جبال ووهاد كردستان ، وهم من الشعوب الهندوأوروبية (٣) ٠ والواقع أن المؤرخين اختلفوا فى أصل الكرد ، فمنهم من ذكر أنهم من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان (٤) ومنهم من ذكر أنهم من قبائل العجم ؛ كما زعم الأكراد المروانية أنهم من نسل مروان بن الحكم ؛ وزعم بعض الأكراد الهكارية أنهم من ولد عتبة بن أبى سفيان بن حرب (٥) ٠ وكل ذلك محاولات من الأكراد للاتصال بالنسب العربى الصريح ٠

والاكراد قوم أشداء ، غالبهم أهل بادية وخشونة ، يقيمون فى الخيام ، وهم أقل قبولا للحضارة من الترك ، ومقامهم فى الغالب فى كردستان وأرمينيا واعالى العراق كالموصل وديار بكر (٦) ٠ وعاشوا فى الشام منذ القدم فى شكل جماعات وأقوام رحل ، كما ان البعض منهم سكن المدن أيضا ، ولا سيما الجهات الشمالية من الشام (٧) ٠

---

(١) أحمد أمين : ظهور الاسلام ، ج ١ ، ص ٦١ ــ ص ٦٢ ٠
(٢) ابراهيم طرخان النظم الاقطاعية ، ص ١٩٨ ٠
(٣) أمين زكى : خلاصة تاريخ الكرد ، ص ٦٠ ــ ص ٦٤ ٠
(٤) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ٠
(٥) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٣١ ــ ص ٢٣٢ ،
السلوك ، ج ١ ، ص ٣ ــ ص ٤ ،
المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٨٨ ــ ص ٨٩ ٠
(٦) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ ،
ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ٢٧٦ ٠
(٧) أمين زكى : المرجع السابق ، ص ٣٦ ٠

على أن الاكراد لم يكن لهم شأن يذكر فى الاسلام الا على عهد الدولـــة الأيوبية ، ومؤسسها صلاح الدين الأيوبى (١) ، الذى لم يكن من أصل عربى، ولكنه من الاكراد الروادية أحد بطون الهذبانية من دوين فى آخر آذربيجان (٢) وارتفع شأن الاكراد فى أيام الدولة الأيوبية ، وتولوا الامارات والولايات فى مصر والشام وكردستان واليمن وخراسان . وانتشرت عشائر كثيرة فى حلب وأطرافها ، وفى حارم والمنبج ، وعلى شاطىء نهر العاصى فى الجنوب الغربى لبلدة النماغور ، وحمص ، وطرابلس (٣) . وكان معظم جيش صلاح الدين الأيوبى مؤلفا من كثير من العشائر الكردية والامراء الاكراد الذين اشتركوا فى حروبه وفتوحاته ، أمثال الاكراد الهكارية والمهرانية والحميدية والزرزارية(٤)، مما يدل على ان صلاح الدين كان متعصبا لبنى جنسه من الاكراد دون الأتراك والعـــرب .

وعقب سقوط بغداد ، وانقراض الخلافة العباسية ، اضطر العديد من الأكراد للفرار من وجه المغول ، والهجرة الى بلاد الشام ومصر (٥) . وانخرط البعض منهم فى جيوش المماليك فى الشام (٦) .

ومن الصفات الحميدة التى تحلى بها الكرد الشجاعة والنجدة (٧) ، فانهم اذا وعدوا أوفوا بعهدهم ، ومن شاركهم طعامهم صار آمنا ، لايتعرضون لـه بأذى (٨) . وهم بخلاف ذلك يتعصبون لبعضهم كما يفعل العرب أحيانا ، وبهم ميل الى الغدر فى بعض الأوقات (٩) . ومنهم من يعتنق الدين المسيحى على مذهب النساطرة واليعاقبة(١٠). والأكراد تسودهم عوامل الشقاق والتفرقة،

---

(١) جورجى زيدان : المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٠٣ .
(٢) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٤١ ـ ص ٤٢ . ،
ابن خلكان : وفيات الاعيان ، جـ ٦ ، ص ١٣٩ .
(٣) امين زكى : المرجع السابق ، ص ٤٣٣ .
(٤) أمين زكى : المرجع السابق ، ص ١٥٥ ـ ص ١٥٦ .
(٥) المرجع السابق ، ص ١٦٦ .
(٦) Ziadeh W op. cit. p. 45
(٧) الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٤٧ .
(٨) Lamb : The Crusades, p. 37
(٩) الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٤٧ .
(١٠) أمين زكى : المرجع السابق ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

وأسباب التخاذل والنفور ، مما أدى الى عدم توحيدهم ، ولم يستطيعوا ايجاد جبهة مشتركة للدفاع عن أنفسهم كشسب كردى واحد ٠ ويعزو المسعودى سبب فظاظة الأكراد الى أنهم سكنوا الجبال التى يتميز سكانها بالجفاف والغلظة(١)٠

ثانيا ـ الطوائف المذهبيـــة :

قدر للعالم الاسلامى فى الشرق الأدنى ـ قبل مجىء الصليبيين ـ أن يظل منقسما على نفسه بين خلافتين ومذهبين متنافسين ، الخلافه العباسيـــة السنية ببغداد ، والخلافة الفاطمية الشيعيه بالقاهرة ٠ وكان هذا الوضـــع وما نجم عنه من تنافس حاد ، من الأسباب الرئيسية التى أدت الى اضعاف قوى المسلمين ٠

وكان ولابد أن يظهر ببلاد الشام صدى للنزاع العنيف بين الخلافتين العباسية والفاطمية ٠ فبعد ان استولى الفاطميون على مصر فى القرن العاشر الميلادى ، اخذوا يوجهون انظارهم نحو بلاد الشام ، حتى تمكنوا فى نهايـــة الأمر من تثبيت أقدامهم على الأجزاء الساحلية بالشام ٠ وصحب ذلك انتشار المذهب الشيعى ، وصارت بلاد الشام مسرحا للفتن والثورات بين السـنة والشيعة (٢) ٠ وعلى الرغم من غلبة أنصار المذهب السنى فى دمشق وفلسطين، فان انصار المذهب الشيعى كانوا يكونون الأغلبية فى شمال الشام ، لاسيما فى حلب (٣) ٠

ولم يقتصر الأمر ببلاد الشام على الصراع القائم بين المذهب السنى والمذهب الشيعى ، فمن الملاحظ أن الأخير شهد انقســامات طائفية مثــل الاسماعيلية والدروز والنصيرية ، وكان لها التأثير البالـــغ فى الحيـــاتين الاجتماعية والسياسية ببلاد الشـــام ٠

١ ـ الاسماعيلية :

ينتمى أتباع تلك الطائفة الىاسماعيل بن جعفر الصادق المتوفى عام ٧٦٢م

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٢ ، ص ١٢١ ٠

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. IV. pp. 302—309.

(٣) Cahen : La Syrie du Nord a l'époque des Croisodes. pp. 190—191.

(١٤٥ هـ) ، وقد نجح أتباع اسماعيل هذا فى اقامة الدولة الفاطمية فى مصر . على أنه حدث بعد وفاة الخليفة الفاطمى المستنصر عام ١٠٩٤ م (٤٨٧ هـ) ، أن قام الوزير الأفضل بن بدر الجمالى باقصاء ابنه نزار ولى عهده وأكبر ابنائه عن العرش ، وبايع أخاه الصغير الامير أبا القاسم أحمد الذى لقب بالمستعلى بالله . وقد ادى هذا الى ظهور فريق يتشيع له بمصر ، بل دعا الى امامته بعض أهالى فارس من الاسماعيلية ، الذين كانوا يدعون الى انتقال الامامة من جعفر الصادق الى ابنه اسماعيل وبنيه من بعده ؛ ويرجع نشاط هذه الطائفة فى بلاد الفرس الى العصر العباسى الأول ، منذ لجأ محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق الى دماوند (قرب الرى) بسبب ماتعرض له العلويون من اضطهاد على يد العباسيين (١) .

ومن اهم المبادىء التى أقام الاسماعيلية عليها مذهبهم ، ايمانهم بان لكل عقيدة ظاهرا وباطنا (٢) ، ولكل تنزيل تأويل . وقد أدى بهم هذا الرأى الى تأويل احكام الشريعة ، فجعلوا لكل نوع من انواع العبادة باطنا ، مما جعل الناس يطلقون عليهم اسم الباطنية .

وكان أول ظهور للباطنية أو الاسماعيلية فى عهد السلطان ملكشاه السلجوقى ، فقد اجتمع منهم ثمانية عشر صلوا صلاة العيد فى بلدة ساوة (بين الرى وهمذان) ، ولكنهم حبسوا ثم أطلق سراحهم . ثم انهم دعوا مؤذنا بأصبهان لاعتناق دعوتهم ، فلم يجبهم ، فخافوا أن ينم عليهم فقتلوه ، فكان ذلك أول دم اراقته الباطنية (٣) . ولما بلغ خبر هذا الحادث نظام الملك وزير السلطان ملكشاه ، أمر باحضار من يتهم بقتله ، فانحصرت التهمة فى نجار يسمى « طاهر » فقتل ومثل به فى الاسواق ، فكان أول قتيل من الباطنية . وسرعان ما انتقم الباطنية من الوزير نظام الملك وقتلوه وقالوا : « قتل نجارا فقتلناه به » (٤) .

---

(١) جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ١١٣ ــ ص ١١٦ .
(٢) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٩٢ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٤٩٢ هـ .
(٤) الاصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٦٢ ــ ص ٦٣ .
ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٤٩٢ هـ .

ولما قتل الوزير نظام الملك ومات السلطان ملكشاه ، ازداد نفوذ الباطنية، حتى استولوا على اصبهان ، ونشروا بها دعوتهم فى عهد زعيمهم احمد بن عبد الملك بن عطاش • واخذوا يلحقون الأذى بمخالفيهم ، وامضوا فى سرقة اموالهم وتقتيلهم ، وأدخلوا الفزع بين الاهالى ؛ وسرعان ما استولى الباطنية على كثير من القلاع ، من بينها قلعة أصبهان التى بناها السلطان ملكشاه السلجوقى وملكوا قلعة الموت (١) فى طبرستان بنواحى قزوين ، وقد قيل عن هذه القلعة أن ملكا من ملوك الديلم كان يكثر من الصيد ، فأرسل يوما عقابا وتبعه ، فرآه قد نزل على موضع تلك القلعة ، ووجده حصينا ، فامر ببناء قلعة عليه سماها الموت (بفتح الالف مع الهمزة وفتح اللام) (٢) ومعناها فى لغة الديلم « تعليم العقـــاب » •

وبعد وفاة احمد بن عبد الملك بن عطاش ، حل محله تلميذه الحســـن ابن الصباح الذى وصف بانه كان شهما عالما بالهندسة والحساب والنجوم والسحر (٣) • وسرعان ما أستند ساعد الحسن بن الصباح فى فارس ، وساعده على ذلك تفكك الدولة الاسلامية وضعف الخلافة العباسية من ناحية ، ثم بعد فارس عن مركز الخلافة العباسية من ناحية أخرى (٤) وقد لجأ الحســـن ابن الصباح فى نشر دعوته الى سلاحين : الأول استمالة بعض الزعماء المحليين وامراء القلاع فى بلاد فارس ، والثانى محاولة امتلاك بعض القلاع المنيعـة لتكون معاقل له ولأتباعه •

وقد عمل الحسن بن الصباح على تنظيم جماعته تنظيما دقيقا ليضمن لها البقاء • وكان الفدائيون أهم مراتب ذلك التنظيم ، فهم الأداة الفعالة التى قامت بتنفيذ سلسلة الاغتيالات الشهيرة فى الحروب الصليبية • لذلك اهتم الحسن بن الصباح بتدريبهم تدريبا خاصا طويلا يتناول الجانب الروحى

---

(١) شيدت تلك القلعة على قمة صخرة شاهقة . يكاد يتعذر ارتفاعها ، فى قلب جبال البرز على مسيرة يومين من شمالى الشمال الشرقى لقزوين • وقد استولى عليها حسن الصباح عام ١٠٩٠ م (٤٨٣ هـ) وجعلها مقرا لطائفته •

(انظر دائرة المعارف الاسلامية) مقالة « قلعة الموت » •

(٢) ابن الوردى : تاريخه ، ص ٢٢ ـ ٢٣ •

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٣ •

(٤) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٥١ ٥ ـ ص ٥٥٢ •

والمادى ويبدأ منذ الطفولة ، فيدرب الأطفال المختارون لتلك المهمة على حياة الزهد والمخاطرة (١) ٠

ويذكر الرحالة البندقى ماركوبولو فى القرن الثالث عشر ، أن شيخ الجبل علاء الدين ، شيد بالقرب من قلعة الموت ، فى وادى بين جبلين ، اكبر وأجمل حديقة تقع عليها العين ، تتوافر فيها كل الفواكه الموجودة فى العالم ، كما شيد أجمل القصور المزينة بالصور الجميلة ذات المنظر الجذاب ٠ وفضلا عن ذلك صنع قنوات احداها تفيض بالنبيذ ، والأخرى يجرى فيها اللبن ، والثالثة العسل ، والرابعة الماء ، وفى تلك القصور والحدائق فتيات حور عين رائعات الجمال ، لهن القدرة على العزف على الآلات الموسيقية والغناء والرقص ، وجعل الشيخ أتباعه يصدقون ان هذه المغريات هى الجنة (٢) ٠ ولا يسمح بدخول تلك الحديقة الا من وقع عليه اختيار شيخ الجبل ، ليكون فدائيا ٠ ويختار الشيخ الفتية الفداوية ، من الذين يتراوح سنهم ما بين الثانية عشرة والعشرين ، ولهم القدرة على حمل السلاح ٠ واعتاد الشيخ ان يجتمع بالبعض من الشباب ، ثم يامر باعطائهم جرعة مخدرة (لعلها الحشيش) توقعهم فى النوم سريعا ، ثم بعد ذلك يحملون الى الحديقة ، حتى اذا افاقوا اعتقدوا انهم صاروا فى الجنة فعلا ٠ مالفتيات الحسان تبقين مع الشباب تداعبه ، ويعزفن له ، ويغنين ، ويبعثن جوا من المرح الزائد ، بالاضافة الى قضاء الشباب وقتا ممتعا معهن ٠ وهكذا كان يحصل الشباب على ماتمناه ، واذا تركت له حرية الاختيار ، لايود مغادرة الجنة ، ولكنهم سرعان مايحملوا ــ وهم فى غيبوبة ــ الى دار شيخ الجبل ، وعندما يفيقون يسألهم عن المكان الذى أتوا منه ، فيرددون انهم كانوا فى الجنة ٠ اما الشباب الذى كان فى حضرة الشيخ ، والذين لم يروا تلك الجنة ، فبمجرد سماعهم ما ذكره الشباب، حتى تحرقهم الرغبه للذهاب الى تلك الجنة ، كما انهم فى سبيل الذهاب اليها ، على استعداد تام للموت ، وفى انتظار اليوم الذى يسمح لهم بذلك(٣)٠

ولهذا ، فعندما يرغب شيخ الجبل فى قتل شخصية كبيرة ، أو أى رجل

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٤ ص ٢٧١ ــ ص ٢٧٢ ٠

(٢) Marco Polo : The Travels, PP. 49—50

(٣) Marco Polo : op. cit. PP.50—51

آخر ، فانه كان يستخدم بعض الفداوية (الحشاشين) ، ويخبرهم ان القتل هو الوسيلة الوحيدة لدخولهم الجنة ، فاذا حدث ان ماتوا اثناء تأدية مهمتهم، فسيذهبون الى الجنة على الفور . وقد نفذ الفداوية تعاليم الشيخ وهم فى منتهى السعادة ، ومن ثم لايهرب من يرام التخلص منه من الموت . على أن الشيخ كان يرسل رجالا من قبله لمراقبة الفداوية الذين كلفوا بمهمة الاغتيال ، ويخبروه بمدى شجاعة كل منهم (١) .

وحوالى الوقت الذى كان فيه الصليبيون يدخلون الشام من الشمال الغربى ، كان الباطنية يدخلونها من الشمال الشرقى . وبمعنى آخر أخذ نشاط الباطنية الهدام يمتد الى بلاد الشام منذ بداية القرن الثانى عشر . وينقسم الدور الذى قام به الاسماعيلية فى عصر الحروب الصليبية الى قسمين: اولهما مقاومة المذهب السنى ، وثانيهما مقاومة الصليبيين . ولم يفرق الاسماعيلية خلال كل ذلك بين المسلمين السنيين والصليبيين والمسيحيين ، وانما اهتموا بتحقيق مصالحهم على حساب الجميع . وفى سبيل هذه المصالح الخاصة لم يتحرج زعماؤهم من محالفة الصليبيين حينا أو مهادنة المسلمين أحيانا (٢) .

وفى حلب ضاقت الطائفة الاسماعيلية ذرعا بالأمر الذى اصدره نور الدين محمود عام ١١٤٨ م (٥٤٣ هـ) بابطال « حى على خير العمل » ولكنها لم تستطع القيام بعمل مضاد ، خوفا من نور الدين (٣) . وحاولوا عدة مرات قتل صلاح الدين الأيوبى نفسه ، لولا أن الله اراد له النجاة ، ففى عام ١١٧٥م (٥٧١ هـ) وثب باطنى فى زى جندى على صلاح الدين خلال حصاره لاعزاز (٤) ، فضربه بسكين فجرحه ، ثم كرر المحاولة باطنى آخر ، ولكنه قتل مما جعل صلاح الدين يركب الى خيمته كالمذعور غير مصدق بنجاته (٥) . وفى العام التالى ١١٧٦ م (٥٧٢ هـ) توجه صلاح الدين الى قلعة مصياف

---

(١) Marco Polo : op. cit. PP. 51—52

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٥٥٣ ـ ص ٥٥٤ .

(٣) أبو شامه : الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٧ .

(٤) بليدة فيها قلعة شمالى حلب (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٦ ص ١٨٨)

(٥) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٧١ هـ .
ابن كثير : البداية والنهاية ، ص ٢٩٣ .

ـ أعظم حصون الاسماعيلية ـ بغرض قتالهم ، وضيق عليهم ، ولكن سنان (١) مقدم الاسماعيلية أرسل الى شهاب الدين الحارمى صاحب حماة ، وهوخال صلاح الدين ، يسأله أن يسعى فى الصلح ، فاجابه صلاح الدين الى ذلك ، ورحل عنهم (٢) .

ويبدو أن الباطنية فى عدائها الشديد لأهل السنة ، تقربت الى الصليبيين بالشام ضد الايوبيين ثم المماليك ، وفى الوقت نفسه رأى الصليبيون فى الباطنية قوة يمكن الاعتماد عليها فى الحد من بطش سلاطين الايوبيين ثم المماليك من بعدهم • لذلك دأبت القوى الصليبية فى الشام على ارسال الهدايا الى الباطنية ، اتقاء لشرهم من ناحية ، وطمعا فى محالفتهم من ناحية أخرى (٣) • وبالرغم منذلك لم يسلم الفرنجة ببلاد الشام من حركة الاغتيالات التى قام بها الباطنية • ويقال ان ريتشارد قلب الأسد هو الوحيد الذى أبقى عليه الاسماعيلية ، وذلك لأنهم رغبوا فى تذليل العقبات أمام منافسه صلاح الدين (٤) •

أما عن الزيارة التى قام بها هنرى دى شامبينى لراشد الدين سنان زعيم الباطنية ببلاد الشام ، فقد حدث خلالها ان أشار سنان بيده لاثنين من الباطنية على قمة برج القلعة ، وفى التو سقطا من شاهق ، ثم تمزقا الى اشلاء • ونستشف من ذلك الحدث أن سنان أراد ان يوضح لصديقه الصليبى

---

(١) هو راشد الدين سنان بن سليمان صاحب الدعوة الباطنية ببلاد الشام ، أصله من البصرة ، وكان فى حصن الموت ، ولما أظهره من يقظة وذكاء ، ولى زعامة الباطنية فى الشام ، على عهد نور الدين محمود ابتداء من عام ١١٦٢ م وشغل هذا المنصب مدة ثلاثين عاما ، لعب فيها دورا هاما فى أحداث الشام الى أن توفى عام ٥٨٨ ه •

أنظر : ابن أيبك الدواداری : كنز الدرر وجامع الغرر ج ٧ ص ١٢٠ ـ ص ١٢١ .
النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١١٧ •
مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٤١٩ •

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص ٨١ •

(٣) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ٥٩ •

(٤) برنارد لويس : العرب فى التاريخ ، ص ٢١٤ •

مدى تفانى أتباعه فى مرضاته ، والطاعة العمياء التى يبذلونها (١) ، وعندما كان لويس التاسع ملك فرنسا فى عكا ، سعت طائفة الاسماعيلية لصداقته ، وكسب وده ، فجاءه وفد من الباطنية محملين بالهـــدايا ، منها حيوانات مصنوعة من الزجاج ، وخاتم شيخ الجبل وقميصه ، وكان القميص يرمز الى أن لويس كان من سنان بمنزلة قميص سنان من جسده قربا ، وقابل لويس هذه الهدايا بمثلها (١)

واذا كان صلاح الدين الايوبى قد فشل فى اخضاع طائفه الاسماعيلية والقضاء عليها ، فان النهاية كانت على يد السلطان الظاهر بيبرس ، فمن ناحية المبدأ لم يرض المماليك عن الباطنية بسبب شذوذ مذهبهم من ناحية ، ثم بسبب موقفهم المائع بين الصليبيين والمسلمين من ناحية أخرى (٢) ، ولهذا كان من المستحيل ان يقبل بيبرس وضعهم على ذلك النحو ببلاد الشام، ومن ثم وجه جهوده للقضاء عليهم ، وأول مافعله ، بادر الى منعهم من دفع الجزية للصليبيين ولا سيما الاسبتارية فى حصن الاكراد ، وأجبرهم على دفعها له ، ويؤكد ذلك ما رواه المقريزى أن رسل الاسماعيلية وفدوا على الظاهر بيبرس عام ١٢٦٧ م (٦٦٥ هـ) ، ومعهم حملا من الذهب لينفق فى المجاهدين المسلمين (٤) ، ومما يدل على سيطرة بيبرس على الأسماعيلية ، انه صار يتدخل فى تعيين البعض من زعمائهم ، وعزل البعض الآخر ، ففى عام ١٢٦٩م (٦٦٨ هـ) قلد بيبرس زعامة الاسماعيلية لصارم الدين بن الرضى وعزل نجم الدين الشعرانى (٥) ، وطوى بيبرس صفحة الاسماعيلية بالاستيلاء على حصونهم ببلاد الشام حصنا بعد آخر : العليقة (٦) ، والخوابى ، والمنيقة، والقدموس ، والكهف ، « وعفيت المنكرات منها ، وأظهرت شرائع الاسلام وشـــعائره (٧) ،

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٢٩

Hitti : Hist. of the Arabs T. III P. 517

(٢) Grousset : Histoire des Croisades. T. III P. 517

(٣) سعيد حسن عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢١١ ،

(٤) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٩٣ ،

(٥) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٥٨٦ ــ ص ٥٨٧ ،

(٦) المقريزى : السلوك، جـ ١ ص ٥٩٩ ، ص ٦٠٨ ،

(٧) الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٥٢ ،

من كل ما تقدم نلمس الدور الكبير الذى لعبته طائفه الاسماعيلية على عصر الحروب الصليبية بالشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . واذا كان المسلمون نظروا الى الاسماعيلية كزنادقة ملحدين وكفره ، الا ان التجربة المستفاده من دراستنا للطائفة . أنها اعطت العالم صورة من الشجاعة التى وصلت الى حد التهور . وقد وصف المؤرخ الحسن بن عبد الله (١) شجاعة الفداويه قائلا : « وقد استخدم السلطان الظاهر بيبرس الفدائيين خلال حروبه مع الفرنجة والتتار ، وكذلك سيرهم السلطان الأشرف خليل بن قلاوون فى عمليات فدائية امضوها بنجاح ، باذلين أرواحهم » .

٢ ـ الدروز :

تأثر المذهب الشيعى بما طرأ عليه من تغيرات عظيمة فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) . ويرجع ذلك الى تأثير بعض الشيعة بالفلسفة اليونانية ، وأخذهم ببعض العقائد المبنية على الرجعة والتناسخ . ولهذا صار المذهب الشيعى فى عهد الفاطميين خليطا من الدين والفلسفة ، ونشأت بسبب ذلك مذاهب أخرى منها الدروز . وفى أوائل القرن الخامس الهجرى (القرن الحادى عشر الميلادى) ، وفد الى مصر دعاة من غلاة الشيعة الفرس . جهروا بتأليه الحاكم بأمر الله الفاطمى (٩٩٦ ـ ١٠٢٠ م) وهم : حمزة بن على الزوزنى ، والحسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم، ومحمد بن اسماعيل الدرزى (٢) . وينسب الى محمد بن اسماعيل الدرزى أنه كتب رسالة . قدمها الى ذلك الخليفة ، شرح فيها دعوته واصول مذهبه ، واعلن فيها ربوبية الحاكم ، فقربه اليه وجعله محل رعايته وعطفه . وجاء فى تلك الرسالة أن روح آدم انتقلت الى على بن أبى طالب ، ومنه الى أسلاف الحاكم . متقمصة من واحد الى آخر ، حتى انتهت الى الحاكم بأمر الله (٣). والواقع ان الاعتقاد بالحلول (أى ان الله يتجسد) قديم العهد بين غلاة الشيعة . وهو اعتقاد يحاول فيه اتباعه ان يسدوا الفجوة البعيدة ، التى

---

(١) آثار الاول ، ص ١٥٢ ـ ص ١٥٣ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٥٩ .
جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٩٦ ـ ص ٩٧ .

(٣) حنا أبى راشد : جبل الدروز مع صحيفة أعمال زعيمهم الحربى سلطان باشا الأطرش ، ص ٣٤ .

تفصل الانسان المحدود عن الله غير المحدود ، كوسيلة لاقامة علاقات شخصية انسانية مع ذات الله (١) . وليس هذا المعتقد الأساسى سوى استمرار للعقيدة الاسماعيلية أتباع الامام السابع اسماعيل المتوفى عام ٧٦٠ م (١٤٣ هـ) الذين يعرفون أيضا بالسبعية .

أثار اعلان محمد بن اسماعيل الدرزى ربوبية الحاكم فى الجامع الأزهر سخط المصريين السنيين والمعتدلين من الشيعة ، فتوجهوا الى الحاكم ، وطالبوه بتسليمه ولكنه ما طلهم ، وسهل له طريق الفرار ، بعد ان طلب منه الخروج الى الشام ، ونشر الدعوة فى الجبال (٢) . وسرعان ما لقيت دعوته تربة صالحـة فى وادى التـيم عند سفل جبل الشيخ ، واستطاع ان يستميل اليه العديد من الانصار ، الذين اضحـوا يعرفون باسم الدرزية . ومن العجيب ان الدروز لم يرضـوا عن تلك التسـمية ، لانهم استنكروا دعوة الدرزى واحتقروه ، واتهموه بالكفر والالحاد ، وآثروا ان يسموا بالعقال أو «الموحدين» أى الذين يؤمنون بآله واحد ، وهو الاسم الذى ورد فى كتبهم المقدسة . وبعد سنتين قضاهما الدرزى فى الدعوة لتاليه الحاكم ، قتـل عام ١٠٢٠ م (٤١٠ هـ) (٣) ومن جنوب لبنان ، أخذت الدعوة الدرزية فى الانتشار فى الجبال شمالا ، متحاشية الساحل والبقاع ، وانضمت الى طائفة الدروز قبائل عربية أو مستعربة مثل التنوخيين والمعنيين وآل ارسلان وآل جنبـلاط واليزبكية (أسرة تلحوق) والنكدية ، الذين تزعموا ولازالوا الدروز (٤) . وعلى أية حال ، فان كثيرا من الاسس التى وضعها حمزة بن على الزوزنى وانصاره من دعاة الدرزية الأوائل لازال قائما الى اليوم ، من أهمها اتخاذ الدروز تنويما

---

(١) Gerard de Nerval : Voyage en Orient, P. 52

فيليب حتى : لبنـان فى التاريخ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ١٨٨ .

جمال الدين سرور : المرجع السـابق ، ص ٩٧ .

(٣) مجهول المؤلف : الدروز ، ص ٢٣ .

حنـا أبى راشـد : المرجع السابق ، ص ٣٥ .

فيليب حتى : المرجع السـابق ، ص ٣١٥ .

(٤) محمد كامل حسين : طائفة الدروز ، ص ١٠ ـ ص ١٨ .

Hitti : op. cit. PP. 20—22

يؤرخون به حوادثهم ابتداء من عام ١٠١٧ م (٤٠٨ هـ) ، وهى السنة التى ظهرت فيها دعوى تأليه الحاكم (١) .

ولاتوجد لدى الدروز وثائق واضحة تتعلق باصلهم كشعب وطائفة ، ولا يقل اصلهم الأنثروبولوجى عن معتقداتهم الدينية وطقوسهم غموضـا وابهاما . فقد عاشوا حياة شبه مستقلة منعزلين فى معاقل جبال لبنان ، غافلين عن ازدهار العالم الذى يحيط بهم ، ويكاد العالم الخارجى لايعرفهم تماما . وهم حتى اليوم لازالوا يعيشون فى مجتمعات اقطاعية قروية صغيرة ، خاضعة لسيطرة الشيوخ . وهؤلاء خاضعين لأمراء ، والجميع ينظمهم شكل حكومة ثيوقراطية (دينية) (٢) . ولا زال هذا التنظيم هو السمة المميزة للحيـاة الوطنية للدروز .

ولكى نصل الى ادراك شامل وعلمى لعقيدة الدروز ، تواجهنا صعوبات جمة ، ويرجع السبب فى ذلك الى ندرة المصادر من جهة ، والسرية التى يزاول الدروز بها طقوسهم واحتفالاتهم الدينية الغامضة من جهة أخرى . حتـى المخطوطات القليلة التى وقعت فى الأيدى لاتشفى الغليل ، لغلبة الصفة المجازية عليها ، فضلا عن عناية الدروز الفائقة فى عدم افشاء كتاباتهم المقدسة . كذلك فانهم يؤمنون بمبدأ التقية ، أى من حق أى درزى اظهار غير مايبطنه ، اذا كان ذلك سيؤدى به الى الحصول على الأمان (٣) . كل تلك الأمور متضامنة ، جعلت العقيدة الدينية للدروز لغزا بالغ الحيرة فى التاريخ .

وعلى أية حال ، فان من أهم خصائص الدعوة الدرزية ، اغلاق الباب بوجه كل طالب ، وحصرها فى الذين آمنوا ، فمن لم يؤمن بقى كذلك الى الابد ، ومن آمن فقد آمن بلاردة (٤) . وبهذا قطعوا كل علاقة دينية مع غير أبناء مذهبهم . وانقسم الدرزية الى طائفتين : الأولى طائفة الروحانيين ، أى الذين يلموا بأصول المذهب الدرزى . وتنقسم هذه الطائفة الى ثلاثة أقسام رؤساء وعقلاء واجاويد . والرؤساء هم الذين بيدهم مفاتيح جميع

---

(١) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ .

(٢) Hitti : op. cit. PP. 1—5

(٣) Hitti : op. cit. P. 24

(٤) حنـا أبى راشـد : الدروز ، ص ٢٨ ، ص ٢٩ .

اسرار الدرزية ، والعقلاء بيدهم الاســـرار الداخلية التى تتعلق بالتنظيم الداخلى للمذهب ، والاجاويد بيدهم مفاتيح الأسرار الخارجية التى تختص بعلاقة مذهبهم بغيره من المذاهب (١) • أما الطائفه الثانية فهى طائفـــة الجسمانيين ، أى الذين لايبحثون فى الروحانيات ، بل يبحثون فى الامـور الدنيوية ، وتنقسم هذه الطائفة الى قسمين امراء ، وجهـــال • والامراء الجسمانيون بيدهم مفاتيح الاسرار الخاصة ، والجهال او العامة فهم الذين لايعرفون من أصول المذهب الا اسمه ، ويظل الفرد منهم فى نظر الطائفة الدرزية جاهلا ، حتى لو حصل على ارقى الشهادات العلمية ، ونال قسطا وافرا من الثقافة،ولا يجوز لطبقتى الجسمانيين الدخول فى مجالس طائفة الروحانيين • وهكذا يعيش الجاهل منهم درزيا ، ويموت درزيا ، ولا يعلم من اسرار الدرزية، سوى أنه ولد من أب درزى وأم درزية فقط(٢) • والنساءفى المجتمع الدرزى ينقسمن ايضا الى عاقلات وجاهلات ، لا فرق فى ذلك بين المراة والرجل (٣) •

وطبقا لتعاليم الدروز فهم الأن خلال فترة « غياب الحكيم « اى « فترة الاخفاء « (زمان الستر) ، ومن ثم لا بد ان تكون معتقداتهم وطقوسهم فى طى الكتمان ، ولا تذاع على الملأ • ويعبر الدروز عن أهدافهم فى كتبهم ورسائلهم بطريق الرمز والكناية ، كاسرار الماسونية ، وهناك بعض اصـــطلاحات تقليدية نتداولها كل جمعية سرية ، خوفا على أسرارها من الافتضاح (٤) • وللطائفة الدرزية مجالس خاصة ، يجتمع فيها جميع (العقال والأجاويد) اجتماعات سرية ، وهى أشبه بمحافل الماسون من حيث كتم الاســـرار ، والرموز ، ومن حيث التقاليد والطقوس ، ولا يمكن لغير العقـــال والأجاويد ارتياد هذه المجالس ولو تنكروا فى ازيائهم ، ذلك لان الزائر ، اذا لم يبح بكلمة السر ، لايستطيع الدخول (٥) • ولا يوجد مساجد بجبـــل الدروز ، فالدروز ليس لهم أمكنة معينة للعبادة ، بل لهم « خلوات » يجتمعون فيها من يوم الخميس الى الجمعة من كل أسبوع •

---

(١) محمد كامل حسين : طائفة الدروز ، ص ٢٨ ـ ص ٢٩ •
حنـــا أبى راشـــد : الدروز ، ص ٣٥ •
(٢) حنـــا أبى راشـــد : الدروز ، ص ٣٥ ـ ص ٣٦ •
حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ٢٦٢ •
(٣) محمد كامل حسين : المرجع الســابق ، ص ٢٩ •
(٤) Hitti : op. cit. PP. 24—25
حنـــا أبى راشـــد : جبل الدروز ، ص ٤١ •
(٥) حنـــا أبى راشـــد : جبل الدروز ، ص ٣٢ ـ ص ٣٣ •

والدروز يكفرون المسلمين عامة ، ويسمونهم الكفار أو المشركين ، فى الوقت الذى يطلقون على أنفسهم الموحدين · غير ان المسلمين يرون ان الطائفة الدرزية « أشد كفرا ونفاقا من النصيرية » ، كما يرى ابن تيمية أن « قتالهم وقتال النصيرية أولى من قتال الأرمن ، لأنهم عدو فى دار السلام (١) · وعلى الرغم من ذلك ، فقد حارب الدروز خلال الحروب الصليبية الى جانب المسلمين ضد الفرنجة ، فابان الحروب الصليبية كانت اقطاعات الدروز فى لبنان فى يد اسرتين : التنوخيين والأرسلانيين ، اما وادى التيم وحوران فكان اقطاع الدروز فى يد بنى شهاب ، وكان الصليبيون يعملون لانشاء دولة لاتينية على ساحل البحر المتوسط تتسع فى الشمال وتضيق حتى جبل الدروز ، فكان على الدروز أن يدافعوا عن بلادهم لاسيما ان المسلمين طلبوا اليهم العمل على سلامة الساحل (٢) · ويرى البعض أن ثمة احتمال فى أن الدروز تاثروا فى نظمهم وتعاليمهم بفرسان الداوية (٣) ·

وقد عاشت طائفة الدروز ـ ولازالت ـ على ماتنتجه الأرض من محاصيل زراعية ، فالدروز لايميلون الاللزراعة ، ولم تجذب التجارة والصناعة انتباههم، ومما يدل على ذلك أن موائم التجار فى حلب ودمشق وبيروت وصيدا ، لاتجد من بينها اسما درزيا واحدا ، والنظام السائد فى المجتمع الدرزى هو النظام الاقطاعى الذى كانوا عليه منذ عدة قرون · ومن تقاليد الدروز انـــه لايجوز عندهم الجمع بين امراتين ، فان لم يطلق الدرزى التى عنده ، لايمكنه التزوج بغيرها ، كما ان المرأة لاترث شيئا من دار أبيها (٤) ·

٣ ـ النصـــيرية :

اذا نظرنا الى خريطة لبنان من الشرق الى الغرب ، ومن الشمال الى الجنوب ، الفيناه يتكون من سلسلة من السهول الساحليـــة الصغيرة فى

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٤٨ ـ ص ٢٤٩ ·
(٢) محمد كامل حسين : المرجع السابق ، ص ١٠
(٣) Hitti : op. cit. P. 13
(٤) Hitti : op. cit. P. 5
محمد كامل حسين : طائفة الدروز ، ص ٢٩ ·
حنا ابى راشد : جبل الدروز ، ص ٤٤ ·

الغرب ، ثم سلسلة من الجبال ، ثم الجبال ، ثم سهل البقاع الذى يكون منبسطا متسعا من الارض تحضنه سلسلة لبنان الغربية من جهة الغرب ، وسلسلة لبنان الشرقية (أو انتيليبان) من الجهة الشرقية . ومن الطبيعى ان تظهر قوة الحركات الانفصالية ، وتزداد وضوحا فى المناطق الجبلية بالشام، على سائر الجهات الزراعية السهلة والمدن . ولم تكن جبال لبنان موطنا للموارنة والدروز فقط . ولكنها كانت أيضا موطنا لظهور فرقة متطرفة منبثقة من المذهب الشيعى ، وهى طائفة النصيرية . وكانت تلك الطائفة تقيم فى شمال الشام ، وموطن اتباعها جبل النصيرية (أو الانصارية) . وهو جزء من لبنان ، وتمتد بلاد النصيرية شرقا الى سهل حماه وحمص وحلب ، وشمالا الى ما وراء انطاكية على حدود بلاد الأناضول (١) . ومن المرجح أن طائفة النصيرية أطلق عليها ذلك الاسم نسبة الى الفقيه الشافعى محمد بن نصير المتوفى عام ٨٧٣ م (٢٦٠ هـ) ، وكان من اتباع الحسن العسكرى الامام الحادى عشر عند طائفة الامامية الاثنا عشرية (٢) . واقدم ذكر للطائفة النصيرية جاء فى كتابات حمزة بن على وغيره من كتاب الرسائل والمواعظ الدرزية (٣) . وثمة تفسير آخر لايزال مألوفا عند السنيين المجاورين للنصيرية ، ولكن هذا التفسير يدخل فى نطاق الاشتقاق المتداول لهذا الاسم ، فيجعله ذا صلة بلفظ نصرانى أو نصارى ، مما يقرب الى الذهن ان النصيرية لايزالون يحتفظون ببعض تقاليد أو طقوس دينية خاصة ، منها احتفالهم ببعض الاعياد المسيحية ، مثل عيد الميلاد وعيد القيامة . ويعتبرونهما من الأعياد الكبرى ، كما أن البعض منهم يحمل اسماء مسيحية الاصل (٤) . ويرى البعض أن سلسلة جبال النصيرية يتميز اهلها بالشكل الأشقر اللون ، وهو كثير فى العلويين ، مما يدعو الى التفكير الى انهم من أصل آرى ، أو انهم نتيجة الاتصال الذى حدث من قبل بين السكان مع سكان امارة انطاكية النورماندية (٥) .

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢١٠ .

(٢) حسن ابرايهم حسن : المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٦٥ .

(٣) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٢٢ .

(٤) حسن ابراهيم : المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٦٥ .

(٥) Les Guides Bleus, P. XXXVIII

وتحتفظ طائفة النصيرية باسرار معتقداتها ، وتمنعه عن الناس ، وليس لأحـــد من أبنـــاء الطائفة أن يذيع ما لقن من أســــرار معتقداتهم ، وان اقتضى الامر ضرب عنقه ، وقد جرب هذا كثيرا (١) • ومازال تحتفظ ديانتهم بمعالم واضحة ، تنبىء عن معتقداتهم التى هى مزيج من عناصر غيـــر متجانسة تماما ، تقوم على اساس نظام دينى يتصـــل بعبادة النجـــوم والكواكب (٢) • ولهذا فانهم يزعمون أن السحاب مسكن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، واذا مر بهم السحاب قالوا : السلام عليك يا أبا الحسن ، ويقولون ان الرعد صوته ، والبرق ضحكه ، وهم من أجل ذلك يعظمـــون السحاب (٣) ويبدو أن حسين بن احمد الخنتبى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، هو الذى وضع عقائد النصيرية ، واتباعـــه يفدون لزيارة ضريحه بالقرب من حلب ، ويولون هذا الضريح ما يليق به من الاحترام والاكبار ، ويعرف هذا الضريح باسم ضريح الشيخ برقق (بفتح الباء والقاف الاولى وسكون الراء) (٤) •

ويقوم مذهب النصيرية على مبدأ تاليه على بن أبى طالب مغالاة فيه (٥)، ولذلك أطلق على النصيرية أسم « العلوية » اى الذين يعبدون عليا ، منـــذ الانتداب الفرنسى فى ديارهم بعد الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ـ١٩١٨م) (٦)، ويدعى النصيرية أن سلمان الفارسى رسول على بن ابى طالب ، ويميلـــون (يحبون) عبد الرحمن بن ملجم المرادى قاتل على ، زاعمين انـــه « خلص اللاهوت من الناسوت » ، ويخطئون من يلعنه (٧) • ويرى النصيرية أن الخلفاء الثلاثة الصديق وعمر وعثمان تعدوا على على بن أبى طالب ، ومنعوه حقه من الخلافة ، كما تعدى قابيل على أخيه هابيل ، وكما اعتدى النمرود على

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ١٣ ، ص ٢٥٠ •
(٢) حسن ابراهيم : المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٦٤ ـ ص ٢٦٥ •
(٣) صبح الاعشى ، جـ ١٣ ، ص ٢٥٠ •
(٤) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٦٦ •
(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٢ •
صبح الاعشى ، جـ ١٣ ، ص ٢٤٩ •
(٦) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٦٦ ـ ص ٢٦٧ •
(٧) صبح الاعشى ، جـ ٣ ، ص ٢٥٠ •

الخليل عليه السلام ، وكما يقوم كل فرعون من الفراعنة على نبى من الأنبياء عليهم السـلام (١) ٠

ويؤمن النصيرية بمبدأ التجسد ، ويدور حول هذا التجسد ثلاثة اسماء تكون تثليثا شبيها بتثليث النصارى ، وهذه الاسماء تتمتع بالوحدانية فى ثلاثة هم : على بن أبى طالب ويرمزون له بالمعنى ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ويرمزون اليه بالاسم ، وسلمان الفارسى ويرمزون اليه بالباب ، وعلى بن ابى طالب عند النصيرية هو الكائن الاسمى ، والنور المشع الذى ينبعث عن فيضه محمد صلى الله عليه وسلم وسلمان الفارسى (٢) ٠

وتتالف طائفة النصيرية من قبائل يقوم بينها تحالف ، كالكلبيـة والخياطين والحدادين ، وبعض العشـائر اليمنية التى ارتحلت شمالا قبل الاسلام ، ثم اختلطوا مع الشماليين كالأراميين وغيرهم واحتفظوا بلغتهم الجنوبية التى اختلطت قليلا أو كثيرا باللغة الأرامية ، التى لاتزال آثارها بادية فى بعض اللهجات العربية ، وفى أسماء الاشخاص والقرى والانهار (٣)

وتاريخ النصيرية عبارة عن حروب دائمة بينهم وبين جيرانهم ، بسبب الاضطهادات التى تعرضوا لها ، باعتبارهم ملحدين أو وثنيين ، الامر الـذى اثار شعوب جمهور المسلمين (ومنهم الشيعيون المعتدلون) ضـد هؤلاء النصيرية ، الذين ظهروا فى نظر المسلمين زنادقة مغالين ٠ والبعض من المؤرخين صورهم بأنهم « طائفة ملعونة مرذولة مجوسية المعتقد » (٤) ٠

ولم يفعل النصيرية كما فعل الموارنة ، الذين انضموا الى صـفوف الصليبيين وحاربوا الى جانبهم ، ولكننا لانعرف عن النصيرية شىء يذكر سوى ان عددا كبيرا منهم لقى مصرعه على يد الفرنج (٥) ٠

---

(١) نفس المكان ٠
(٢) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٦ ـ ص ٢٦٧ ٠
(٣) نفس المكان ٠
(٤) القشقندى : صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٥٠ ٠
(٥) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، ج ١ ، ص ٢٨٤ ٠

أما نظام النصيرية الاجتماعى والدينى ، فهو من النوع الذى يتميز بالطبقيه . وهم من الباطنية . اى الجماعة التى تقول بان للنصوص الدينية معنى غير المعنى الظاهر أو المعنى الحرفى (١) . ويقال ان طائفة النصيرية لاتحرم البنات ولا الأخوات ولا الامهات (٢) . ويقيم الآن نحو ثلاثمائة الف من اتباع هذا المذهب . معظمهم من الفلاحين فى شمال ووسط بلاد الشام . يعيشون فى قراهم الجبلية حتى قيليقية التركية ، واحتفظوا بمعظم اســـاليب معيشتهم وتقاليدهم التى درجوا عليها منذ العصور الوسطى . وهم يمتنعون عن اكـــل لحم الجمل والارنب وثعبان الماء والسمك الذى لاقشر له (٣) . وحتى العصر الحديث ، عاش النصيرية فى الجبل المعروف باسمهم شمال اللاذقية . لايعرفون المدنية . بهم ميل الى الفوضى . ويصرفون معظم اوقاتهم بقطع السبيل ونهب القرى . والقاء الفتن فى البلاد ، متناثرين ، منضمين فى عصبة واحدة (٤) . وتعظم طائفة النصيرية الخمر ، ونتيجة لذلك عظموا شجرة العنب اصـــل الخمر ، وحرموا قلعها او احتطاب اصولها (٥) .

وثمة فريق من النصيرية ، هم الكسروانيون ، ويبدو انهم وقفوا من المماليك موقفا عدائيا ، لاسيما خلال الصراع بين المماليك والصليبيين بالشام، من ذلك ما حدث خلال حصار السلطان المنصور قلاوون لمدينة طرابلس عام ١٢٨٩ م ، اذ هب الكسروانيون لنجدة بوهيموند السابع امير طرابلس . وقد اغضب ذلك السلطان قلاوون ، فزحف المماليك على جبل كسروان لتاديب أهله ونجحوا فى كسر شوكتهم . وعندما استولى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون على عكا ، لجا بعض الصليبيين الى جبل كسروان وحاولوا استثارة أهله ضد سلاطين المماليك . فبادر الأشرف خليل بارسال حملة فى مستهل عام ١٢٩٢ م . ولكن الكسروانيين انزلوا الهزيمه بالعسكر المماليكى فى تلك الواقعة . الامر الذى زاد من نفوذ الكسروانيين وبطشهم (٦) .

(١) فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٣٢٢ .
(٢) صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٥٠ .
(٣) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ٢٦٧ .
(٤) جورجى ينى : تاريخ سوريا ، ص ٣٥٤ .
(٥) صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٥٠ .
(٦) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٠٧ ـ ص ٢٠٨ .

وعلى أى حال ، فان المجتمع الاسلامى ببلاد الشام على زمن الحروب الصليبية ـ كما رأينا ـ كان متنوعا من ناحية السلالات العرقية . والعقائد الدينية بشكل لانجده فى أى بلد عربى آخر • فالى جانب القبائل العربية التى وفدت الى الشام مع موجة الفتح الاسلامى وقبله ، وفى كنف الدولة العربية الاسلامية بالشام ، عاش الأتراك والتركمان والاكراد •

أما من ناحية العقائد الدينية ، فمن الملاحظ ـ كما قلنا ـ أن السنة والشيعة والفرق العديدة الأخرى اقتسمت بلاد الشام من الناحية المذهبية • فعلى سبيل المثال ، نجد أن الشيعة تركزوا فى طرابلس وصور ، فيروى ناصر خسرو أن معظم سكان صور من الشيعة ، وكل سكان طرابلس شيعة (١) وفى حلب انتشر بها مذهب الشيعة عندما اضـــحى للفاطميين نفوذا فى الشام (٢) • وطالما قامت الصراعات بين السنة والشيعة فى حلب ، وضاقت المصادر التاريخية بذكر حوادث عن تلك الصراعات • ومن الفرق التى تفرعت من الشيعة ، وتوزعت فى انحاء الشام : الدروز فى جنوبى لبنان ، والنصيرية فى جبال سوريا الشمالية ، والاسماعيلية (الحشاشون) الى الشرق من مواطن النصيرية (٣) •

ولا ريب أن تلك الفرق ، أوجدت وضعا قلقا مزمنا ببلاد الشام على عصر الحروب الصليبية ، فهى لم تنصهر فى بوتقة واحدة بمرور الزمن ، بل ظلت كما هى ، وسبب ذلك السمة أو الظاهرة الجغرافية التى تســود الشام ، فتضاريسه من جبال وسهول واودية متقطعة ، ساعدت على قيام طوائف دينية منعزلة مستقلة ، الامر الذى اضر بالبلاد حتى وقتنا الحالى •

هذا بالنسبة للمجتمع الاسلامى الذى سكن أرض الشام، وكون أجناسا ومذاهب متباينة • أما المجتمع المسيحى بالشام فسنستعرضه فى الفصل القـــادم •

---

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ١٣ ـ ص ١٥ •

(٢) بيشو : تاريخ حلب ، ص ٤٣ •

(٣) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، جـ ٢ ، ص ٢٢٥ ـ ص ٢٢٦ •

الفصل الثانى

المجتمع المسيحى

أولا ـ الجنسيات الأوروبية التى استقــرت فى بـــلاد الشـــام على زمن الحـــروب الصليبية وأثرت فى بنائها الاجتماعى :

ثانيا ـ الهيئات الدينية الحربيـــة :

١ ـ هيئة الاسبتارية ٠

٢ ـ هيئة الداويـــة ٠

٣ ـ هيئة فرسان التيوتون ٠

٤ ـ هيئة مونتجـــوى ٠

٥ ـ هيئة القديس توما ٠

٦ ـ هيئة القديس لازاروس ٠

ثالثا ـ طبقات المجتمع الصليبى :

١ ـ الارستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان ٠

٢ ـ طبقـــة البولانيين ٠

٣ ـ طبقة الأحرار البورجوازية ٠

٤ ـ طبقة الرقيق والاقنـــان ٠

رابعا ـ المسيحيون الشرقيون :

١ ـ الموارنـــــة ٠

٢ ـ الأرمــــن ٠

٣ ـ الأقلبات الدينية ٠

اولا ـ الجنسيات الأوروبية التى استقرت فى بلاد الشام على زمن الحروب الصليبية واثرت فى بنائها الاجتماعى :

قدر لبلاد الشام فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر ، أن تكون مسرحا اختلفت اليه أجناس شتى من الشعوب الاوربية الغربيـــة المتباينة . اذ أن الغزو الصليبى لم يقم به شعب واحد ، ولكن مسيرته حفلت بالعديد من الشعوب ، كذلك لم يقف المد الزاحف على الشام من الغرب الاوربى خلال عصر الحروب الصليبية . والمقصود بالمد الزاحف هنا ، الحمـــلات الصليبية العديدة بما تضمنته من جيوش تنتمى الى عناصر معينة من ناحية ، والتغلغل السلمى فى صورة جماعات الحجاج والتجار من ناحية أخرى .

وفى عصر الحروب الصليبية وجدت ببلاد الشام فئات من عناصر أوروبية متباينة : الفرنسيون ، والالمـان ، والنورمان ، والهنغاريون ، والبريتـون ، والبوهيميون ، والجنوية ، والبيازنة ، والبروفنساليون ، والبلغار ، والفلمنك، والانجليز ، والاسكندنافيون ، والاسبان . ولا ريب ان تلك الشعوب التى عجت بها أرض الشام ، احتوت طبقات ونوعيات من الناس اسهمت فى بناء المجتمع الصليبى . منها الطبقات المحاربة النبيلة ، والاحرار ، ورجال الدين ، والتجـــار .

وبالاضافة الى ذلك ، وفدت من الغرب الاوربى الى الشام أعداد كبيرة من الأوباش ، وفئران أرصفة الموانىء ، ومتسكعو الشواطىء ، ولصوص الأرض والبحر ، والشحاذون ، والمشعوذون ، والمغامرون ، وخريجـــو السجون ، والهاربون من وجه العدالة ، والمجرمون السابقون ، واراذل أوروبا (١) ؛ وكل أولئك اتوا تحت شعار الحروب الصليبية ، وتركزوا فى الموانىء ، لاسيما ميناء عكا الذى كان يعتبر ميناء دوليا على عصر الحروب الصليبية . Port Cosmopolite يزخر بخليط من مختلف شعوب العالم (٢) .

والمعروف أن العنصر الغالب على الحملة الصليبية الاولى هو العنصر

---

(١) Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages. Vol. I PP. 379—380

(٢) Grousset : Histoire des Croisades. T. III P. 198

الفرنسى ، ومن ثم فان الوحدات السياسية الصليبية التى تمخضت عنها هذه الحملة فى الشرق ، سادتها النظم الاقطاعية المعمول بها فى فرنسا (١) • وبسبب تغلب العنصر الفرنسى أضحت لغة التخاطب فى مملكة بيت المقدس وامارة انطاكية لغة شمال فرنسا Langue D'Ocil الشائعة عند سكان شمال فرنسا والنورمنديين ، وكذلك من الراجح أن لغة الجنوب Langue D'oc التى جرى استخدامها أول الامر فى امارة طرابلس ، ترجع فى أصـــولها الى تولوز (٢) • ويعزى أيضا الى انتشار اللغة الفرنسية ان اطلق العرب اسـم الفرنجة على الصليبيين جميعا • وفى بداية الحركة ، لوحظ أن الفرنسيين اعتزوا بعنصريتهم وأنه كان لديهم شعور باختلافهم عن العناصر الاخرى مثل الانجليز والالمان والايطاليين (٣) •

والواقع أن الصلة بين الفرنسيين وبلاد الشام لم تكن جديدة ، فهى سابقة على الحركة الصليبية بزمن • فقد جاء العديد من الحجاج الفرنسيين الى الأرض المقدسة لأداء فريضة الحج ، وبصحبتهم قوات مسلحة لحمايتهم فى معظم الاحوال • وعلى سبيل المثال ، عبر عام ١٠٢٦ م سبعمائة حـاج من اللورين وفرنسا وهنغاريا ، ثم بلغاريا واليونان وآسيا الصـــغرى ، فى طريقهم الى الاماكن المقدسة • ويرى البعض أن الحركة الصليبية فى اصلها كانت حركة فرنسية ، فقد وصف الحملة الصليبية الاولى قائلا : « انهـــا فرنسا زاحفة » •

La Première Croisade, C'est La France en Marche

والمعروف أن البابا سلفستر الثانى (٩٩٩ ـ ١٠٠٣ م) أول من فكر فى ارسال حملات صليبيةالى بيت المقدس ، بغرض انتزاعه من أيدى المسلمين ، وخلفه أحد أبناء كلونى بفرنسا البابا أوربان الثانى ، الذى يعزى اليه الفضل فى الدعوة للحملة الصليبية الأولى (٤) •

وعلى الرغم من أن الفرنسيين كانوا أحد العناصر الاوربية التى سيطرت

---

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٤١٢ •
Longnon : Les Français d'outre-mer au Moyen Age, P. 107

(٢) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٨٩ ـ ص ٩٠ •

(٣) C. Med. H. Vol. P. 330.

(٤) Longnon : op. cit. PP. 103—104

على بلاد الشام ، الا أنهم كانوا مفضلين على غيرهم من العناصر الأخرى . ويرجع السبب فى ذلك الى أنهم لم يعيشوا فى عزلة عن الشعوب التى حكموها، ولم يتعالوا عليهم ، ولكنهم عقدوا معهم أواصر المودة ، وتبنوا عاداتهم وملبسهم وتعلموا لغتهم (١) . حتى الفن فى الارض المقدسة ، غلب عليه الطابع الفرنسى ، ومن الممكن مشاهدة ذلك فىكثير منكنائس الصليبيين (٢). كذلك ظهر الطابع الفرنسى بوضوح فى هيئة فرسان الداوية ، التى كانت غالبية فرسانها فرنسيين .

وقد لوحظ أن العناصر السكانية من الفرنسيين والانجليز ـ بمقارنتهم بالايطاليين ـ كانوا اقل تماسكا ، واكثر تهورا ، وأقل براعة فى العمل ، وأكثر نهما فى المأكل والمشرب ، وأشد اسرافا ، وأقل حرصا فى الحديث ، بهم ميل الى التهور فى ابداء النصيحة ، بيد أنهم اشد تحمسا فى اعطاء الصدقات ، وأشد اندفاعا فى المعارك ، أعظم العناصر نفعا للدفاع عن الهدف الصليبى ، ومصدر خطر على المسلمين (٣) .

والنورمان من الشعوب التى يرجع اليها الفضل فى النجاح الذى احرزته فى الحملة الصليبية الأولى . وقد عرف عنهم فى جنوب ايطاليا الميل الشديد الى المغامرة ، غير أنه لم يكن ثمة طموح يرضى الأبناء الصغار ، أو الفرسان الذين ليس لهم اقطاع (٤) . وفى بداية الأمر ، لم يكن فى نية النورمان الاشتراك فى أية حملة صليبية ، وشاءت الظروف أثناء حصار بوهيموند بن جويسكارد لجسر سكافارد بامالفى ، أن علم بمقدم جماعة مسيحية غفيرة العدد ، للتوجه الى الارض المقدسة لمحاربة المسلمين (٥) . ولم يلبث ان أدرك بوهيموند ماتهيؤه له الحروب الصليبية من فرص ، فقرر الاشتراك فيها ، وترتب على ذلك أن انضم اليه العديد من أهالى جنوب ايطاليا ، ومن أشد الناس ولعا بالمغامرة (٦) . وبرز النورمان فى الحملة الصليبية الأولى الزاحفة

---

(١) Small : Crusading Warefare, P. 42.
(٢) Camille : Les Monuments de Croisades, Vol. 1 P. 2.
(٣) Miller : Essays on the Latin Orient. P. 525
(٤) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ١ ص ٨٩ .
(٥) Gesta Francorum, P. 7
(٦) Ibid., Loc. Cit.

الى الأرض المقدسة ، كاحد العناصر الرئيسية الغالبة عليها · واتضحت شخصية بوهيموند خلال الحصار الصليبى لمدينة انطاكية ، اذ لعب دوره بمهارة ، حتى اذا ما سقطت المدينة ، بدأ النزاع بينه وبين ريموند حول امتلاكها ، مما عطل الزحف نحو بيت المقدس ، ولكنه انتهى بغزو بوهيموند الذى اسس فى انطاكية ثانى الامارات الصليبية فى الشام (١) ·

والى جانب الفرنسيين والنورمان ، استقرت الجاليات الايطالية فى الأرض المقدسة · ومنذ البداية ، وجد فى الشام الفرنجية مجتمعان كان لهما الصدارة على غيرهم من المجتمعات ، بالاضافة الى تفوقهما على بقية العناصر الصليبية ، وهما : المجتمع الفرنسى ، والمجتمع الايطالى ، وتتمثل فى الأول النبالة الحربية ، وفى الثانى البورجوازية التجارية ، وبمعنى آخر كان المجتمع الفرنسى صاحب الأرض ، أما المجتمع الايطالى فكانت له السيادة البحرية (٢) ·

ويأتى فى مقدمة الجاليات الايطالية ، جماعة التجار من أهل امالفى من مدن ايطاليا ، وهم انشط العناصر التجارية الاوروبية ، والى ما قبل الحروب الصليبية بعدة قرون ، أى منذ القرن السادس للميلاد ، وفدوا الى ساحل الشام ؛ وفى القرن العاشر الميلادى استفاد تجار امالفى من حماية الامبراطورية البيزنطية لهم ، فأسسوا علاقات تجارية مع مصر والشام ، الأمر الذى أدى الى تدفق العديد من حجاج امالفى الى الشام ، وفى عام ١٠٨٠م أقام الأمالفيون مستشفى القديس يوحنا فى بيت المقدس للعناية بالمرضى والجرحى ، واضحت فيما بعد نواة منظمة الاسبتارية (٣) ·

أما مدن بيزه والبندقية وجنوه ، فقد لعبت دورا هاما فى أحداث الحركة الصليبية ببلاد الشام · فالنجاح الذى حققه الصليبيون لم يرجع الى كفاية قوادهم وشجاعة جنودهم ، بقدر رجوعة الى الدور الذى قامت به الاساطيل

---

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ص ٤١٢ ·

(٢) Grousset : L'Empire de Levant, P. 320

(٣) Thompson : Econ. and Soc. Hist. of the Middle Ages, Vol. I P.380

البحرية ، التى قدمت العون والمساعدات البحرية اللازمة لاخضاع مدن الساحل (١) • والواقع ان المدن الايطالية ظلت شديدة الحذر بالنسبة للحركة الصليبية ، ولكن ما أن نجحت الحملة الصليبية الأولى فى الاستيلاء على نيقية عام ١٠٩٧ م ، حتى أخذت تزداد اهتماما بالحركة الصليبية • ثم كان ان ظهرت تلك المدن على مسرح الاحداث بعد التيقن من نجاح الصليبيين فى مدينة انطاكية • وخلال سنوات الحملات الصليبية الاولى والثانية والثالثة أخذت كل من جنوه وبيزا والبندقية دورا نشيطا ، ليس فى مجرد النقل البحرى للصليبيين ، ولكن ايضا فى الاشتراك الفعلى فى الحروب القائمة • فالجنوية اسرعوا فى المجىء الى انطاكية عقب سقوطها عام ١٠٩٨ م فى اعداد هائلة ، وحرصوا على ان يكونوا اول من يظفر بامتياز تجارى ، وبالفعل منحهم بوهيموند امتيازا فى ١٤ يوليه عام ١٠٩٨ ، يقضى بان يكون لهم سوق وكنيسة (٢) • ولم يظهر البيازنة امام سواحل الشام الا عام ١١٠٨ م ، لمساعدة تانكرد الوصى على انطاكية ، فى انتزاع اللاذقية من البيزنطيين ، ووعد تانكرد البيازنة عند انتصارهم بان يجعل لهم حيا فى كل من اللاذقية وانطاكية يزاولون فيه اعمالهم التجارية ، بالاضافة الى اعفائهم من الضرائب فى كل الموانىء والبلاد التابعة له (٣) • وبفضل البنادقة ، تمكن الصليبيون من الاستيلاء على صيدا وصور (٤) •

ولاتعنينا تفاصيل الأحداث السياسية التى اشتركت فيها المدن الايطالية البحرية جنوه وبيزه والبندقية ، لأنها بعيدة عن نطاق الدراسة التى نحن بصددها • وهنا أيضا نستطيع ان نقرر ان تلك المدن لم تكن محفوعة الى تقديم جميع المساعدات للصليبيين بوازع دينى ، وانما جرت وراء مصالحها الاقتصادية الخاصة ، ورأت فى الحروب الصليبية فرصة طيبة ، يجب اقتناصها لتحقيق اكبر قسط من المكاسب الذاتية على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين جميعا (٥) • وعلى كل حال ، فقد وصل نفوذ

---

(١) أرشيبالد لويس : القوى البحرية ، ص ٢٨٢ •

(٢) أرشيبالد لويس : القوى البحرية ، ص ٢٨٢ •

(٣) Heyd : Hist. du Commerce. T.I. PP. 146

(٤) Com. Med. Hist. Vol. V. p. 329.

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٣٥ •

Thompson : Op. Cit. Vol. I. p. 400.

المستعمرات الايطالية فى الشرق الفرنجى الى حد بالغ الرفعة (١) • وقد وصف جاك دى فيترى الايطاليين المقيمين ببلاد الشام عام ١٢١٦ م قائلا : « انهم متبصرون فى عواقب الأمور ، على اعتدال فى مأكلهم ومشربهم ، ولهذا عاشوا اعمارا اطول من أعمار الشعوب الغربية فى الشرق ، لهم ولع الى الاسهاب فى الحديث وتنميقه ، وعلى حذر فى اداء النصيحة ، يتقنون شئونهم العامة فى البحر وفى العمل ، لاسيما فى التجارة الواردة » (٢) • ولم تكن المستعمرات التى أقام فيهاالايطاليون سوى قومونات ، ذات حكومات مستقلة ، يتحدث اهلها اللغة الايطالية ، ولم يختلطوا بجيرانهم من الناحية الاجتماعية • ومن المشاهد أن تلك المستعمرات فى كل المدن ، باستثناء عكا ، لم يتجاوز عدد أفراد الواحدة منها بضع مئات من الاشخاص (٣) • غير أنه من الناحية العملية شكلت المستعمرات الايطالية فى الشام دولة داخل الدولة Imperium (٥) in Imperio وشبيه بوضع التجار الايطاليين فى الشام ، تجار مرسيليا فى عكا ويافا وصور وجبيل ، وتجار برشلونة فى صور (٥)•

والألمان من الشعوب التى تواجدت ببلاد الشام خلال فترة الحروب الصليبية فى أعداد قليلة ، ونستدل على ذلك من أن يوحنا فورتزبورج الحاج الالمانى ، الذى زار بيت المقدس حوالى سنة ١١٧٥ م ، ابدى الاستياء حين اكتشف أنه لم يكن للالمان دور فى مجتمع الفرنج (٦) •

وبعد ، فقد عاش على أرض الشام خلال فترة الحروب الصليبية ، العديد من الجنسيات التى انتمت الى جميع انحاء الغرب الأوربى ، جاءت مدفوعة بدوافع عديدة منها الغزو واداء فريضة الحج والهجرة والتجارة والمغامرة ، وبذلك صارت بلاد الشام مجتمعا عالميا (٧) ، فريدا فى نوعه •

---

(١) Grousset : op. cit. Vol. I P. 320

(٢) Miller : op. cit. P. 525

(٣) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ص ٤٧١ •

(٤) Miller : op. cit. P. 525

(٥) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٩٤ •

(٦) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٧١ •

Hayes, Baldwin ; History of Europe, P. 324.

ثانيا ـ الهيئات الدينية الحربية :

كان الدين خلال العصور الوسطى يمثل القوة الحية الكامنة فى تفكير الانسان واقواله واعماله ، ومن الصعب التصور فى وقتنا الحالى ما كان للدين من مكانة خلال تلك العصور • وقد اتخذت خدمة الله صورا شتى ، منها وجود الرهبان الذين يقضون حياتهم فى الصلاة والتامل الدينى داخل اديرتهم ، كذلك وجدت منظمات دينية نهج رهبانها سلوكا أكثر نشاطا ، فهم يعظون ، ويقومون باعمال التعريض ، ومساعدة الفقراء ، ورعاية المرضى فى المستشفيات (١) • وكان من المناسب لروح العصر ، تأسيس منظمات دينية ، ينكر فيهـا الرهبان كل مباهج الحياة ، ويقضون حياتهم فى محاربة الوثنية والعدو ، دفاعا عن العقيدة المسيحية • ولا شك فى ان منظمات من هذا النوع راقت فى أعين فرسان أوربا ، ولا سيما الشباب المغامر ، ممن رحب بحياة الرهبانية ، اذا ملئت بحروب يخوضون معاركها من اجـل المسـيح (٢) •

وقد شهدت الحركة الصليبية فى بلاد الشام ابتكارا فذا فريدا ، أوجده نجاح الحملة الصليبية الأولى ، ويتمثل ذلك فى الهيئات الدينية الحربية التى جمعت بين حياة الرهبانية والفروسية فى رباط واحد (٣) ، وبعبارة أخرى ربطت الحروب بالعقيدة (٤) • ومن الطبيعى ان تلك الهيئات كانت رد فعل للافكار السائدة فى أوربا العصور الوسطى ، التى نبذت فكرة العزلـة الديرية (٥) ـ

وعلى الارض المقدسة ، ولدت الهيئا تالدينية الحربية من اجـل العالم المسيحى • واهم تلك الهيئات هيئتا الاسبتارية والداوية ، بالاضافة الى هيئات أقل شانا مثل الفرسان التيوتون ، وسانت لازاروس ، والقديس توما وغيرهم •

---

(١) King : The Knights Hospitallers. P. 2

(٢) Loc. cit.

(٣) Thompson : The Middle Ages. P. 573

(٤) Chivalry, edited by Prestage., P. 15

(٥) Emerton : Mediaeal Europe, P. 372

١ ـ هيئة الاسبتارية :

وأقدم تلك الهيئا ت، هيئة الاسبتارية ، بيد أن الأصول الأولى لتلك الهيئة غامضة ، ترجع الى نزل Hospice لايواء الحجاج اسسة البابا جريجورى العظيم ، ولا نعرف سيئا عن ذلك النزل الا ان البابا ارسل أحد رؤساء الأديرة يدعى بروس Robus للأراضى المقدسة ، مزودا بتعليمات بتاسيس نزل فى بيت المقدس لخدمة الحجاج ، ويبدو أن البابا وضع تحت يده مبالغ ضخمة من المال لهذا الغرض (١) .

وقد مارس الامبراطور شارلمان واجباته كحامى للمسيحيين فى الأراضى المقدسة ، فكان يرسل من حين لآخر مبالغ ضخمة من المال للحفاظ على الأماكن المقدسة والكنائس والأديرة . وبالاضافة الى ذلك ، اهتم بالاعمال الخيرية الحجاج اللاتين ، فشيد من أجلهم عددا من الابنية عرفت باسم « لاتينى » Latinie تمييزا لها عن المؤسسات البيزنطية . ومن الأعمال التى قام بها رد النزل ـ أو المستشفى ـ التى أسسها جريجورى العظيم (٥٩٠ ـ ٦٠٤ م) الى الحجاج اللاتين ، وابتنى كنيسة بالقرب من النزل ، وعهد بخدمة المستشفى والكنيسة لمجموعة من الرهبان البندكتيين (٢) .

وثمة رأى للمؤرخ وليم الصورى عن الجذور الأصلية لتلك الهيئة ، فقد روى أن تجارا من أمالفى ، حصلوا على اذن من الخليفة الفاطمى فى مصر ، حوالى عام ١٠٢٣ م ، بتأسيس مستشفى فى بيت المقدس ، لرعاية الحجاج اللاتين الفقراء والمرضى ، فلم يعارض ، وبادروا فى التو الى انشائه ، وتم تدشين المستشفى باسم القديس يوحنا المتصدق ، بطريرك الاسكندرية فى القرن السابع الذى اشتهر بالاحسان (٣) .

---

(١) King : op. cit. P. 5 and
Delaville Leroux : Les Hospitaliers en Terre Sainte et à Chypre. PP. 5—7

(٢) Ibid. P. 9

(٣) Recueil des Histoires des Croisades, Hist. Occ., T.I. PP. 822- -825
Archer : The Crusades, P. 170

ويعتبر استيلاء الصليبيين على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م بداية الميلاد الحقيقى لمنظمة القديس يوحنا ، فحتى ذلك الوقت لم تكن سوى دار احسان للبندكتيين تقوم بخدمة الحجاج وعلاج مرضاهم وجرحاهم ، ولكنها خلال سنوات قلائل من سيطرة الفرنجة ، تطورت الى منظمة دينية دولية ضخمة ، عرفت باسم الاسبتار Hospitallers التى حرفت بالعربية الى الاسبتارية ـ صار لها فروع فى معظم انحاء أوروبا (١) ٠

فعند وصول الصليبيين الى بيت المقدس، ومبادرتهم الى فرض الحصار عليها ، لم يكن من المأمون للسكان الاوربيين المقيمين ، أن يظلوا فى اماكنهم، خشية تعرضهم لانفجار تعصب دينى اسلامى مفاجىء ، ومن جراء ذلك آثروا الاختفاء (٢) ٠ ولكن جيرار المبارك Blessed Gerard حامى ومدير المستشفى ، فضل البقاء والقيام بواجبه ، مخاطرا بحياته ، وما ان بدا حصار بيت المقدس ، حتى اسرع جيرار ودل الصليبيين على الكنز الذى اخفاء كما دلهم على خطوط مواصلات العدو (المسلمين) ٠ ويبدو أن حاكم المدينة الفاطمى افتخار الدولة ، شك فى تصرفات جيرار ، فامر بالقاء القبض عليه ، وزج به فى السجن ، ثم استجوبه تحت التعذيب ؛ ومن المحتمل ان جيرار كاد يفقد حياته لو ان الحصار لم ينته سريعا ٠ ونحن لانعرف سوى القليل عن الحياة المبكرة لجيرار ، كما لانستطيع تحديد بلده الأصلى ، على الرغم من الشهرة التى حازها بعد ذلك (٣) ٠

وعلى اية حال ، فحالما اطلق الصليبيون سراح جيرار ، حتى عاد من فوره لاستئناف واجباته كمدير للمستشفى ٠ ويبدو انه قدم خدمات جليلة للصليبيين بعد استيلائهم على المدينة ، بوصفه مقيما بها من سنوات عديدة، واضحت مستشفاه ـ كما كانت منذ زمن طويل ـ مركزا لخدمة الحجاج اللاتين الذين يزورون بيت المقدس ، ومن الطبيعى انها استقبلت داخل أسوارها العديد من الجنود الجرحى المسيحيين (٤) ٠

---

(١) King : op. cit. P. 19

(٢) Ibid., PP. 19--20

(٣) Loc. cit. and Archer : op. cit. P. 170

(٤) Grousset : Hist. des Croisades. T.I. P. 542 and King op. cit. P. 29

وبعد أن فرغت الحملة الصليبية الأولى من أداء مهمتها ، عاد الكثير من الصليبيين الى أوطانهم فى الغرب الاوروبى ، ومن المسلم به أن العديد منهم شعر بالفضل للعناية التى لقوها فى المستشفى ، حينما كانوا مرضى أو جرحى وبسرعة نالت الهيئة الجديدة شهرة واسعة فى جميع انحاء أوربا . والعشرون عاما التى قضـــاها جيرار مديرا للمستشفى ، كانت بالنسبة لها سنوات الازدهار المطرد ، ونتيجة للحماس انهالت المنح على المنظمة من جميع البـلاد الأوروبية المطلة على البحر المتوسط ، فى صورة أراضى ومنازل (١) .

وعندما توفى جيرار مؤسس تلك الهيئة حوالى عام ١١٢٠ م ، كان لها فروع أو بيوت فى ايطاليا وجنوب فرنسا وأسبانيا والبرتغال . وحظيت المنظمة بعطف ملوك مملكة بيت المقدس وأمرائها ، ففى عام ١١١٠ م وافق الملك بلدوين الأول على امتياز بمنحها كل املاكها ، وفى عام ١١١٢ م ، أعفى بطريرك بيت المقدس ورئيس اساقفة قيسارية الاسبتارية من دفع ضريبة العشور الكنسية ؛ وفى العام التالى أصدر البابا باسكال الثانى وثيقة بتكوين المنظمة مؤرخة ١٥ فبراير عام ١١١٣ م (٢) . ولا شك أن تلك الوثيقة تعتبر امتياز التأسيس الحقيقى لهيئة الاسبتارية ، اذ وضعها فى نفس المكانة التى تمتعت بها المنظمات الدينية الكبرى الاخرى ، وبمقتضــــاها نال الاسبتار حماية البابوات على مر الأزمنة ، ومنحت لهم ممتلكاتهم فى الشام وأوربا ، وأعفوا من دفع الضرائب ، واضحى لهم الحق فى انتخاب رئيس لهم اذا خلى منصبه (٣) . ثم صدق البابا كاليكستوس الثانى (١١١٩ م — ١١٢٤ م) Calixtus II عام ١١١٩ م على الامتيازات التى نالتها تلك الهيئة ، وعززها بعد ذلك بابوات آخرين جاءوا بعده (٤) .

وبمقتضى وثيقة البابا باسكال الثانى ، انتخب الاسبتارية ريموند دى

---

(١) La Roulx : op. cit. PP. 40—41

(٢) R.H.C., Hist. Occ. T. III P. 446
Archer : op. cit. P. 170

(٣) Grousset : Histoire des Croisades. T.I.P. 542 and King op. cit. P. 29

(٤) La Roulx : op. cit. PP. 40—41

بى Raymond du Puy رئيســا للهيئة خلفا لجيرار (١) • والحقيقة أن الرئيس الجديد كان من طراز مغاير ، فهو رمز حقيقى للمحارب الكنسى ، قام بتغيير شامل فى شخصية الهيئة خلال عهده الطويل البالغ أربعين عاما تقريبا (١١٢٠ ـ ١١٥٨ م) •

أما بخصوص اتجاه هيئة الاسبتارية الى النشاط الحربى ، فقد حدث ذلك لتلك الهيئة دون هيئة الداوية التى دابت على محاربة اعداء المسيحية منذ البداية ، ويرجع تحول الاسبتارية الى النشاط الحربى بالاضافة الى الاعمال الخيرية لسببين : الاول هو أن الفرسان الجدد ممن التحقوا بالهيئة بعـد فترة طويلة من انشائها لم يقنعوا بحياة الرهبانية وحدها كما ارتضى بها مؤسسوا الهيئة الأوائل ، ذلك أن الفرسان الجدد تطلعوا الى ممارسة حياة الفروسية بما يتلاءم مع طبيعتهم الاقطاعية • أما السبب الثانى لهذا الاتجاه الحربى ، فيرجع الى أن هيئة الداوية نالت رضاء البابوية بسبب طبيعتها الحربية ، مما جعل الاسبتارية تعمل لتفوز بمثل هذه المكانة وما تلاها من امتيازات (٢) •

وليس فى الامكان أن نقرر تماما الوقت الذى قامت فيه الهيئة بدورها العسكرى ، وذلك راجع الى أن التغيرات الكبرى فى التاريخ لاتتم دفعـــة واحدة ، ولكن بالتدريج • ويلمس الباحث أن الهيئة لم تتوقف عن أداء واجبها الخيرى ، والا كان لديه حدثا هاما لا يمكن اغفاله (٣) • وأول دليل لدينا على تحويل الاسبتارية الىهيئة عسكرية ، يرجع الى بداية عام ١١٢٦ م عندما اشارت المصادر الى رجل يدعى دوراندو Durando بصفته كوند سطبل (كونستابل) Constable للهيئة ، ومن المعروف ان الكونستابل كان لقبا لرتبة عسكرية عالية فى القرن الثانى عشر (٤) • ونستدل من ذلك انه لو كان للمنظمة تلك الرتبة وقتئذ ، فلا يخالجنا ادنى شك فى أن الاسبتار سواندوا قوة حربية داخل المنظمة ، وبذلك نكون قد وصلنا الى بداية الطريق

---

(١) R.H.C., Hist. Occ. T. III P. 446

(٢) نبيلة مقامى : فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ص ٢٩ •

(٣) King : op. cit. P. 32

(٤) La Roulx : Op Cit. p. 45 & King : Op Cit. p. 34.

العسكرى للمنظمة · ولما توفى الملك بلدوين الثانى عام ١١٣١ م ، خلفه صهره فولك كونت أنجو ، وفى عهد هذا الملك الجديد سمعنا عن النشاط الحربى لمنظمة الاسبتارية ، اذ صار من الواضح انها سلكت هذا المسلك الذى ظل باقيا بعد ذلك لفترة سبعمائة عاما (١) ·

وقد تكونت هيئة الاسبتارية مثلها فى ذلك مثل الهيئات الدينية الحربية الاخرى من الاخوة الرهبان Monks والاخوة الخدم Serving Brothers وعندما أعطاها ريموند دى بى الروح العسكرية ، أضيفت اليها جماعة الاخوة الفرسان (٢) ، التى أصبح لها بمرور الزمن المكانة الاولى فى الهيئة ، حتى عرفت الهيئة كلها باسم هيئة الفرسان الاسبتارية أو هيئة فرسان القديس حنا المقدسى (الاورسليمى) (٣) ·

والواقع أن الفرسان كانوا أهم طبقة فى الهيئة واكثرها عددا ، ولا بد أن يكونوا من أصل نبيل ، تركزت فى ايديهم كل قوة تقريبا ، يقع عليهم عبء الحرب وادارة بيوت المرضى ، عاهدوا الله على التقشف والطهارة والطاعة· ومن بين الفرسان يتم اختيار اصحاب المناصب العليا فى الوظائف الادارية والتنفيذية ؛ ولهذا تفوقوا على اى طبقة أخرى (٤) · ويرى القديس برنارد Saint Bernard أن فرسان الهيئات الدينية الحربية ــ الاسبتارية والداوية ــ كانوا لايرتدون ملابس انيقة المظهر ، ولا يغتسلون الا نادرا ، ترى الواحد منهم أشعثا مغبرا ، داكن البشرة من جراء ثقل اسلحته وشدة حرارة الشمس · وقد بذل الاسبتارية قصارى جهدهم لامتلاك الخيول القوية السريعة ، ذات الأسرجة البسيطة البعيدة عن الزينة والزخرفة ، وينصب كل تفكيرهم فى المعركة واحراز النصر ، ومن ثم اختارهم الله لخدمته (٥) « مثل نشر روح التقشف والزهد بين الصليبيين ، وبث روح المثابرة على القتال

---

(١) King : op. cit. P. 68

(٢) La Roulx : op. cit. P. 288

(٣) سامى سلطان : الاسبتارية فى ردوس ، ص ١٢ ·

(٤) King : op. cit. P. 69 and Chalandon : Hist. de La Premiere Croisade, P. 336
Chivalry, P. I

(٥) Fedden : Crusader Castles, p. 34

والدفاع ضد المسلمين ٠ وكان مما تفخر به بعض العائلات النبيلة الاوروبية أن ينضم أحد أبنائها الى احدى الهيئتين الكبيرتين ـ الاسبتارية والداوية ـ حتى يحظى هذا الابن بالمعرفة الدينية والتدريب الحربى والفروسية (٢) ٠

أما جماعة الاخوة الرهبان ، فقد انقسمت بدورها الى طائفتين ، الأولى تلك التى قامت بواجبها داخل الدير ، ولذلك عرف افرادها باسم الرهبان الديريين Conventual Chaplains والثانية تلك التى عمل افرادها فى البيوت الاقليمية للهيئة ، ومن ثم عرف افرادها باسم رهبان الطاعة Priests of Obedience (٢) ٠ هـذا وقد كان يراس جماعة الاخوة الرهبان بشقيها رئيس واحد يعرف باسم مقدم الدير ، أى رئيس الدير المركزى ، علما بوجود رؤساء اديرة آخرين فى مؤسسات الهيئة وبيوتها خارج مركز رئاستها ، لهم وحدهم حق الرئاسة على الاخوة الرهبان المقيمين فى دوائرهم ، فاذا تواجد احد هؤلاء الرهبان الى مقر الهيئة ، فان عليه أن يقدم فروض الطاعة لمقدم الدير المركزى (٣) ٠ وقد القى على عاتق الاخوة الرهبان مهمة العناية بالمرضى والجرحى ، والاحتفال بقداس الصلاة ، ومنح الرضاء الدينى لأعضاء الهيئة اذا لزم الأمر (٤) ٠

وكانت جماعة الاخوة الخدم مشتملة ايضا على طائفتين ، مارست الأولى اعمالا مدنية داخل المستشفى والدير ؛ اما الأخرى فقد زاولت أعمالا حربية بالقرب من الفرسان ، ومن ثم عرف افرادها خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر باسم جماعة الاخوة خدام الأسلحة أو جماعة السرجندية Serjeants (٥) ٠ ولا يشترط انتماء السرجندية الى أصل نبيل ، كذلك ليسوا من طبقة الأقنان ، وفى السنوات الاخيرة من وجود الهيئة ببلاد الشام تضائل عددهم الى نسبة صغيرة للغاية من اعضاء الهيئة (٦) ٠

---

(١) نبيله مقامى : المرجع السابق ، ص ٣٠ ٠

(٢) King : op. cit. P. 70

(٣) سامى سلطان : المرجع السابق ، ص ٢٧ ٠

(٤) Chalandon : op. cit. P. 34

(٥) King : op. cit. P. 68 and Chalandon : op. cit. P. 336

(٦) King : op. cit. P. 70

وقد تشابه التنظيم الادارى فى هيئتى الاسبتارية والداوية ، وان كان هناك بعض الاختلاف الطفيف . ويأتى المقدم Master على قمة التنظيم المركزى فى هيئة الاسبتارية ، غير انه لم يمنح لقب المقدم الأكبر أو السيد الكبير Grand Master الا عام ١٤٨٩ م ؛ وعلى الرغم من سلطته الواسعة، الا انها كانت مقيدةبما يمليه عليه المجمع العام الذى تألف من جميع اعضاء الهيئة المقيمين فى المقر المركزى ، وله الحق فى اصدار التشريعات والاوامر النظامية (١) . والمارشال (المشير) Marchal كان مكلفا بالأعمال الحربية للهيئة ، وتوفير حاجة الفرسان من جياد واسلحة ، والاسبتارى Hospitaller كان مسئولا عن المستشفى وتدبير الأدوية ، ويخضع له جميع الاطباء والعاملين بالمستشفى ؛ والقماش Drapier كان مسئولا عن كل ما يتعلق بملبوسات أعضاء المنظمة ؛ وامين الخزينة وهو المسئول عن أموال الهيئة ؛ وأمير البحر أو قائد الاسطول ، وقد استحدثت هذه الوظيفة عندما اضحى للهيئة اسطول حربى أواخر القرن الثالث عشر (١) . وبالاضافة الى ذلك ، وجدت مجموعة عديدة من الخيالة الخفيفة أطلق عليها التركوبولية ، تحت قيادة ضابط يدعى التركوبولى Turcopolier (٢) .

أما عن الرداء المميز لطائفة الاسبتارية ، فقد اصدر البابا انوسنت الرابع Innocent IV عام ١٢٤٨ م ، وثيقة اقر فيها لجميع اعضاء المنظمة من فرسان ورهبان وسرجندية وغيرهم ، بارتداء الرداء (الطيلسان) الرهبانى الأسود ، والمطرز على الصدر صليب أبيض . ولكن الفرسان استنكروا بشدة أن يرتدوا هم ورهبانهم المتوضعين رداء واحدا ، ويتضح ذلك من الوثيقة التى أصدرها البابا الكسندر الرابع Alexander IV عام ١٢٥٩ ، أقر فيها رداء خاصا للفرسان لا يرتدية سواهم ، وهو عبارة عن عباءة سوداء يرتدونها فى الدير تمييزا لهم عن بقية الرهبان ، ومعطف آخر علية صليب ابيض مثمن الأطراف عند الخدمة العسكرية . وينم هذا عن التطور المنطقى لاستلاء الفرسان المطلق فى الهيئة ، بيد أن ما جاء بتلك الوثيقة لم يوافق الجميع علية ، لذلك بعد عام من وفاة مقدم الاسبتارية هيوريفيل Hugh Revel عقد

---

(١) Chalandon : op. cit. PP. 337–339

(٢) Chalandon : op. cit. P. 339 and King : op. cit. 72-73

Archer : op. cit. P. 173

الاحمر وقت الحرب (١) · وقد دخل الاسبتارية تحت لـــواء النظام الديرى البندكتى المعروف فى غرب أوربا (٢) ·

والواقع أن الهيئات الدينية الحربية لعبت دورا بالغ الاهمية فى الدفاع عن مملكة بيت المقدس طوال القرن الثانى عشر ، وازدادت املاكها عن طريق المنح والتنازل ، حتى صارت على درجة خطيرة من القوة واتساع النفوذ ، فبعد سنتين من اعتلاء فولك كونت أنجو عرش مملكة بيت المقدس ، بنى قلعة بيت نوبة فى منتصف الطريق بين يافا وبيت المقدس لحماية طريق الحجاج من اغارات المصريين ، عهد بها للاسبتارية · وفى عام ١١٣٦ م منح هيو سانت ابراهام الاسبتارية قرية بيت جبرين على الطريق الرئيسى من عسقلان الى الخليل ، كى يستطيع الاسبتارية الدفاع عنها ضد أى قوات اسلامية تأتى اليها (٣) · وفى عام ١٩٤٢ م منح ريموند الثانى أمير طرابلس حصـــن الأكراد Crac des Chevaliers للاسبتارية ، الذى صار أعظم ممتلكاتهم اهمية فى الشرق الفرنجى (٤) ، وحافظوا عليه بنجاح حتى الايـام الاخيرة للفرنجة فى الشام · وفى اكتوبر من عام ١١٥٧ م ، وافق الملك بلدوين على منحة همفرى الطورونى للاسبتارية، وهى نصف قلاعبلينياس وشاتانوف (٥)·

وهيات الثروات الضخمة والحشود الهائلة للاسبتارية احتلال المكانة الاولى فى المملكة · ونستطيع أن نتصور المدى الواسع لمتلكاتهم فى الغـــرب الأوروبى ، اذا علمنا انهم قسموها الى سبعة مراكز او بيوت سميت Langues اى « الألسن » ، ويستفاد من ذلك ان كل مركز غلبت عليه لغة الاقليم الواقـــع فى نطاقة (٦) · وفى الارض المقدسة ، انتشرت بيوت الاسبتارية والداوية ، التى كان يشرف على كل منها مقدم ، وفى بعض الاحيان عهد اليه بالاشراف على

(١) King : op. cit. pp. 276—777

(٢) Archer : op. cit. P. 175

(٣) William of Tyre : History of Deeds Done beyond the Sea, Vol. P. 542 and King : op. cit. 34.

(٤) Dussaud : La Syrie Antique, P. 130

ويعتبر حصن الاكراد من النماذج الرائعة البالغة الاتقان التى شيدها الصليبيون فى الشام ·

(٥) King : op. cit. P. 37

(٦) Thompson : op. cit. Vol. I P. 407

عدة بيوتات ، الامر الذى جعل منصبه بالغ الرفعة • ويمكن تشبيه كل بيت بالمستعمرة التعاونية ؛ وبعبارة أخرى مجتمع صغير يكفى نفسه بنفسه ، يتوافر بـه كل الامكانيات الضرورية للحياة : القوة البشرية ووسائل الانتاج والمهن الحرفية ؛ وبالاضافة الى ذلك كانت تلك البيوت مراكز لتعبئة وتجنيـــد الشـــباب (١) •

ونتيجة لنمو الهيئات فى العدد والثروة ، انزاح الهدف الدينى بعيدا ، وخرج عن أهدافه ، ليأخذ النشاط السياسى والاقتصادى مكانه • وحصلت الهيئات على استقلالها ، اذ كان من حقها عقد الاتفاقيات الخاصة أو الصلح أو الهدنة مع المسلمين دون الرجوع الى مملكة بيت المقدس ، أو التقيد بالسياسـة العامة لها ؛ ولم تعترف الهيئات الدينية بالتبعية الا للبابا فى روما مباشرة ، مما جعل منها دولة داخل الدولة (٢) • ومنذ أواخر القرن الثانى عشر بداوا نشاطهم المالى والمصرفى ، فقدموا تسهيلات ائتمانية للحجاج الوافدين من الغرب ، ولم يتخذ هذا النشاط صورة استغلالية الا بعد ذلك فى اواخر العصر الصليبى ، مما أثار ضدهم سخط الكثيرين (٣) •

والجدير بالذكر هنا ، انه خلال القرن الثالث عشر ، انتقل عبء الدفاع عن الممتلكات الصليبية فى الشام الى الهيئات الدينية العسكرية • فالكثير من السادة الاقطاعيين ، بعد أن وجدوا انفسهم عاجزين عن الدفاع عن اقطاعاتهم واملاكهم ضد المسلمين ، آثروا بيعها الى الاسبتارية ، ثم رحلوا الى أوطانهم فى الغرب الأوروبى (٤) •

ومن الملاحظ أن صلاح الدين فى حروبه ضد الصليبيين اتبع سياســة خاصة تجاه طائفتى الاسبتارية والداوية ، قضت بقتل كل من ينتمى اليهما دون استرقاقه ، وكثيرا مافاضت المصادر المعاصرة بذكر عبارات تدل على كره

---

(١) Chalandon : op. cit. PP. 337—338 and Archer: op. cit. P. 178

(٢) Richard : Le Royaume Latin, P. III

Longnon : Les Français d'outre Mer, P. 133

(٣) Grousset : op. cit. Vol. I PP. 545

سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٧ •

(٤) Archer : op. cit. P. 177

صلاح الدين الشديد لهاتين الهيئتين مثل : « وكانوا (الداوية) ابغض اجناس الفرنج الى السلطان ، لايكاد يترك منهم احدا الاقتله اذا وقع فى المأسورية (١) ومثل : « فان السلطان رحمه الله ما كان يبقى على أحد من الاسبتارية والداوية (٢) ، ومثل : « فأحضرهما (اثنين من الاسبتارية) للقتل على عادته فى الداوية والاسبتارية (٣) » . والواقع ان صلاح الدين كان صائب الرأى . ومحقا فى كرهه لهاتين الهيئتين، وذلك لتنكر فرسانهم لجميع المبادىء الانسانية، « ولانهم أشد شوكة من جميع الفرنج (٤) » .

وقد أدى سقوط بيت المقدس على يد صلاح الدين ، الى أن يفقد الاسبتارية والداوية مراكزهم الرئيسية الأصلية فى الشام . وبعد فترة قصيرة استقر كلاهما فى عكا ، الى ان سقطت تلك المدينة ايضا فى أيدى المسلمين عام ١٢٩١م، الامر الذى انهى سيطرة الفرنجة ببلاد الشام ، بينما اتخذ كل من الداوية والاسبتارية مقرا لهم فى جزيرة قبرص .

وعلى اية حال ، فان الهيئات الدينية الحربية الكبيرة ، يرجع الفضل اليها فى الحفاظ على الروح الصليبية للصليبيين ، خلال فترة الضعف والانحلال التى مرت بها مملكة بيت المقدس (٥) .

٢ ـ هيئة الداوية :

أما الهيئة الدينية الحربية الأخرى المتشابهة لهيئة الاسبتارية ، فهى هيئة الداوية . ويرجع تأسيس الهيئة الاخيرة الى عام ١١١٨ م ، ففى ذلك العام توفى الملك بلدوين خلال محاولته غزو مصر ، ودفن الى جانب اخيه جودفرى ، وخلفه بلدوين دى بورج كونت امارة الرها . وبعد عام من اعتلائه عرش مملكة بيت المقدس ، برزت الى الوجود مشكلة حماية الحجاج الفرنجة فى الطريق من يافا الى بيت المقدس ، ووجد حل كان له آثار بعيدة المدى على تاريخ

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٣٠

(٢) أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٣٥ .
مجير الدين الحنبلى : الانس الجليل ، ص ٣٥٥ ـ ص ٣٥٦ .

(٣) ابن خلدون : تاريخه ، القسم الثالث ، ص ٦٩٠ ـ ص ٦٩١ .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٨٣ هـ .

(٥) Chalandon : op. cit. P. 336

مملكة بيت المقدس الصليبية (١) • ففى ذلك العام خرج فارس بور جندى يدعى هيودى باين Hugh de Payns متوجها الى بيت المقدس لاداء فريضة الحج، فشاهد بنفسه مدى مايعانيه المسيحيين من الهجمات الدائمة للمسلمين ، ولذلك صمم على أن يكرس حياته لحماية الحجاج الفقراء على طريق يافا (٢) • وسرعان ما انضم اليه فرسان آخرين حتى وصل عددهم الى ثمانية ؛ عاهدوا الله على العفة والطاعة والتقشف على طريقة الرهبان ، واطلقوا على انفسهم « أتباع جنود المسيح الفقراء » The Poor Fellow of Jesus Christ (٣) وزادوا أن اقسموا اليمين على حمل السلاح وتجريده ضد المسلمين ، وبذلك اصطبغت هذه الجماعة منذ اللحظة الأولى ــ وهى فى دور التكوين ــ بصفة القتال والحرب(٤) وحصل أولئك الفرسان عام ١١١٨ م من الملك بلدوين الثانى (١١١٨ ــ ١١٣١ م) على مقر لهم فى جناح القصر الملكى بالقرب من معبد سليمان (وهو المسجد الأقصى) فى بيت المقدس ، ومن هنا عرفوا باسم فرسان المعبد Knights of the Temple، أما فى العربية فقد عرفوا باسم الداوية نسبة الى محراب داود (٥) • وفى عام ١١٢٧ م رأى هيودى باين ضرورة الحصول على تاييد البابا لتشكيل الهيئة ، لهذا سافر الى أوروبا ، فأيده الكثير بحماس شديد ، خاصة سانت برنارد رئيس دير كليرفو Clairvaux الذى بذل نفوذه لدى البابا ، وفى العام التالى كتب برنارد وثيقة الهيئة ، وعرضت على مجمع تروى ، فنالت الهيئة حماية البابا هونوريوس الثانى Honorius II وخضعت الداوية لنظام السستريان المعروف فى الغرب الأوربى (٦) •

وما أن مرت بضع سنوات على رجوع هيو من رحلته فى أوربا ، حتى مات عام ١١٣٩ م ، مخلفا وراءه املاكا شاسعة ؛ وتدخلت هيئة الداوية فى المسائل السياسية ببلاد الشام ، وادى توسع نفوذها الاجتماعى والسياسى الى اعتراف البابا أيوجين الثالث بها حتى عام ١١٤٦ م ، كهيئة لها نظامها ،

---

(١) King : op. cit. P. 31
(٢) Archer : op. cit. P. 170
(٣) Loc. cit.
(٤) حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ، ص ٩٨ •
(٥) Archer : op. cit. PP. 170—171
(٦) William of Tyre : op. cit. Vol. I P. 526
Archer : op. cit. PP. 171–172 and King : op. cit. PP. 31—32

وأمر بان يحمل فرسان الهيئة الصليب الأحمر المطرز على أرديتهم البيضاء ، محمرة الصليب رمز للتضحية والاستشهاد والدفاع عن المسيحية ، أما البياض فرمز للعفة والطهارة (١) ٠

والهيئتان الكبيرتان الاسبتارية والداوية ، سارتا فى طريقين متوازيين ، أى أنهما تماثلتا فى وجوه كثيرة ٠ فلم تلبث طائفة الداوية أن استقلت استقلالا تاما عن مملكة بيت المقدس ، ولم يعد لحكومة تلك المملكة أى نفوذ عليها ، وأيضا رفضت الاعتراف بالتشريع القضائى للبطريركية مستمدة نفوذها من البابا فى روما (٢) ٠

وحازت الداوية أيضا ، على الاراضى والمنقولات والعقارات ، بطريق الهبات أو الشراء ، حتى صار لها ممتلكات ضخمة فى الشـــام وفى الغرب الأوربى : فرنسا واسبانيا وانجلترا وايطاليا (٣) ٠

ويبدو ان فرسان الداوية لم يحافظوا على اهدافهم ومثلهم الأولى ، فقد نبذوا التواضع ، واتهموا بالجشع والأنانية ، وجـعلوا العوامل السياسية والمالية ، تطغى على العامل الدينى تقريبا ، والحقوا الضـــرر بالمسيحيين فى بعض الأحيان ، نتيجة تحالفهم مع بعض الامراء المسلمين ، وظهروا بمظهر الكبرياء والتشامخ (٤) ٠ وبفضل الثروات الضخمة التى حازها فرســـــان الداوية ، صار لهم نشاط مصرفى ضخم ، وأضحى بوسعهم تمويل الحملات الصليبية ، فحملة لويس السابع لم تتحقق الا بفضل الداوية الذين دفعوا له مبالغ ضخمة ، جرى تسديدها لهم فى فرنسا ، ولم ينته القرن الثانى عشر ، حتى أضحى الداوية يمارسون بانتظام عملية اقراض الاموال نظير فائـــدة مرتفعة ٠ ومع أنهم لم يكونوا موضع ثقة من الناحية السياسية ، فان سمعتهم المالية بلغت من الارتفاع حدا جعل المسلمون يولونهم الثقة ، ويفيدون من

---

(١) حسن حبشى : المرجع السابق ، ص ٩٩ ٠

(٢) Chalandon : op. cit. P. 332
C. Med. H. Vol. V. P. 306

(٣) Chalandon : op. cit. PP. 332—333

(٤) Miller : op. cit. P. 528
Grousset : op. cit. Vol. I pp. 543—544

خدماتهم • واذا كان الاسبتارية والتيتون مارسوا عمليات مالية من هـذا القبيل ، الا انها كانت على نطاق يقل كثيرا عما كان عند الداوية • وثمـة شائعات ترددت عن فرسان الداوية ، أنهم يدرسون فلسفات غريبة ، ويمعنون فى طقوس وصفت بانها هرطقة ، واتهموا بتلقين الرهبان المبتدئين شعائر وثنية منافية للدين والأخلاق (١) •

وامتلك الداوية فى الشام العديد من القلاع ، فقد كانوا سـادة قلاع طرطوس ، وتورون ، وشاستيل بلان ، وصافيتا ، وقلعة الحاج (٢) •

ويشهد تاريخ الحروب الصليبية فى الشام على أن فرسان الداويـة والاسبتارية ، كانوا أثبت فئات الصليبيين على القتال ، وأكثرهم صبـرا وشجاعة ، وانه لولا ما قام به أولئك الفرسان من جهود حربية ، لانتهى أجل الوجود الصليبى بالشام قبل نهاية القرن الثالث عشر بفترة طويلة (٣) • واشتهر الداوية ــ بصفة خاصة ــ بشجاعتهم واقدام فى الحروب ، فهم أول من يقتحم المعركة ، وآخر من يغادر ساحتها (٤) •

واذا كانت هيئات الاسبتارية والداوية قد تشابهتا الى حد بعيد فى تأسيسهما وتنظيماتهما واهدافهما على وجه التقريب ، الا ان العلاقة بين الهيئتين لم تكن ودية ، بل سادتها روح المنافسة والعداء • ففى المعركة لايحارب الاسبتارى تحت راية الداوى ، ومن ثم لايقوم الاثنان بعمل مشترك، الأمر الذى أدى فى كثير من الأحيان الى الحاق الضرر بأى تماسك فى المعركة • وترجع المنافسة بين الهيئتين الكبيرتين الى وقت مبكر ، غير أنها صـارت أكثر حدة فى القرن الثالث عشر ، ووصـل الأمر الى أن دارت رحى المعارك الضارية بين الهيئتين (٥) •

والتنظيم الادارى لهيئة الداوية ، الذى يشتمل على اصحاب الوظائف

---

(١) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٦٢ •

(٢) Chalandon : op. cit. P. 332

(٣) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٦ •

(٤) La Monte : Feudal Monarchy, P. 219

(٥) Archer : op. cit. PP. 186—187

الكبرى ، لم يختلف كثيرا عن نظيره فى هيئة الاسبتارية · فعلى راس هيئة الداوية المقدم الأعلى او السيد الكبير · وتألف المجمع العـام للداوية من أصحاب الوظائف الكبرى ، بخلاف المجمع العام لهيئة الاسبتارية الذى تألف من جميع اعضاء المنظمة · وعلى هذا النحو ، فالمجمع العام للداوية كان يشكل مجلسا استشاريا للمقدم الأعلى ، ويفهم من ذلك أن المقدم تمتع بسلطات كبيرة ، غير انها فى الواقع لم تكن مطلقة ، اذ عليه العمل بنصيحة مجلسه الاستشارى (١) · ويلى المقدم الاكبر فى المنصب القهرمان (السـنجال) Le Sénéchal ثم المارشال Marshal ، وأولئك وقع عليهما عبء تجهيز الهيئة بالأسلحة والاسرجة والخيول · ويلى ذلك مقدموا الاقاليم أو البيوت Commanders ، وقد اطلق على اقدمهم « مقدم أرض ومملكة بيت المقدس » ، ثم امين الخزانة الذى اسند اليه ميناء عكا ؛ ويأتى فى المرتبـة الأخيرة من تسلسل الوظائف الكبرى القماش ويقع عليه عبء تدبير كـل ما يتعلق بملبوسات اعضاء الهيئة ، ثم التركوبولى (٢) ·

على أن فرسان هيئة الداوية فى نهاية عهدهم ، مالبثوا ان انغمسـوا فى ترف الحياة المادى ، ومالوا الى التنعيم برفاهية الحياة ، ولاقوا نفس المصير الذى لقيه فرسان الاسبتارية ، وبمعنى آخر كانت النهاية الأليمة للهيئتين واحدة (٣) ·

٣ ـ هيئة فرسان التيوتـــون :

بعد أن تناولنا بالدراســـة الدور الذى قامت به الهيئتان الدينيتان الحربيتان الكبيرتان ـ الاسبتارية والداوية ـ ببلاد الشام على عصر الحروب الصليبية ، لم يبق امامنا سوى بعض الهيئات الأخرى ، التى قامت بدور ثانوى ضئيل على مسرح الأحداث التى جرت بين المسلمين والصليبيين · ونعنى بتلك الهيئات : هيئة فرسان التيوتون ، وهيئة القديس توما بعكا ، وهيئة القديس لازاروس ·

وهيئة فرسان التيوتون أقل فى الاهمية كما اسلفنا القول · وهى ترجع

---

(١) Ibid., P. 172

(٢) Chalandon : op. cit. P. 338

(٣) حسن حبشى : الرجع السابق ، ص ١٠٠ ·

فى أصولها الى عام ١١٢٨ م ، عندما أسس حاج المانى ثرى وزوجته مستشفى مريم العذراء فى بيت المقدس ، من أجل مواطنيهم الحجاج الألمان الفقراء ، ويبدو أنها وضحت بطريقة ماتحت اشراف المقدم الأكبر لهيئة الاسبتارية (١)٠ وقد اندمج رهبان المستشفى الألمان تحت لواء النظام الاوغسطى المعروف فى الغرب الاوروبى ، وارتدوا عباءة بيضاء مطرز عليها صليب أسود ٠ ولا ريب ان رهبان المستشفى تطلعوا الى الاستقلال التام ، اذ قدر لهم فى أقل من نصف قرن ، أن يتطوروا الى هيئة شهيرة سميت باسم هيئة فرسان التيوتـــون Order of Teutonic Knights (٢) ويبدو ان تطلع المستشفى للانفصال عن هيئة الاسبتارية ، يرجع الى أنها كرهت أن تكون فى موقف التابع ٠ وفى عام ١١٤٣ م اصدر البابا كلستين الثانى Celestine II وثيقة أقر فيها استقلال المستشفى الالمانى عن نفوذ مقدم الاسبتارية ، على شرط أن يكون مقدمها ورهبانها من بين الذين لهم القدرة على التحدث باللغة الألمانية (٣) ٠

وواصلت المستشفى أداء رسالتها الى ان سقطت مدينة بيت المقدس فى ايدى صلاح الدين الأيوبى عام ١١٨٧ م ، وادى ذلك الى خروج الرهبان من تلك المدينة (٤) ٠ وخلال حصار عكا عام ١١٩٠ م ، أسس بعض التجار من برمن Bermen ولوبك Lubeck مستشفى ميدان للصليبيين الألمان التحق بها الرهبان الذين خرجوا من بيت المقدس ؛ وفى مارس ١١٩٨ م تحول هؤلاء الالمان الى هيئة عسكرية ، قصد بها أن تكون النسخة الالمانية من هيئتى الاسبتارية والداوية معا ، اللتان كان العنصر السائد فيهما هو اللاتين (٥) ٠ والمقصود بذلك أن الهيئة سارت على نهج الاسبتارية فيما يتعلق بالاعمال الدينية والخيرية ، وعلى نهج الداوية فيما يتعلق بالنظم الحربية (٦) ٠ وصار اللقب الكامل للهيئة الجديدة هو : الفرسان التيوتون لمستشفى القديســـة مارى فى بيت المقدس
Teutonic Knights of the Hospital of St. Mary of Jerusalem

---

(١) King : op. cit. P. 42, 305
(٢) Ibid. P. 42
(٣) Ibid., Loc. cit.
(٤) Archer : op. cit. P. 182
(٥) King : op. cit. P. 305
(٦) Chalandon : op. cit. P. 343

واتخذت من عكا مقرا لها (١) ٠ وجعلت هيئة فرسان التيوتون من نفسها هيئة عنصرية خالصة ، فلا يلتحق بها الا الفرسان الألمان ٠ ويدل ذلك على ان كل عنصر من العناصر الأوروبية احتفظت بطابعها الخاص المستقل ، لاسيما فى تكوين الهيئات الحربية الدينية ٠ فمعظم فرسان الاسبتارية كانوا من الانجليز والايطاليين ؛ وغالبية فرسان الداوية كانوا من الفرنسيين (٢) ٠ وفى عام ١٢٢٧م بنى الفرسان الالمان قلعتهم الكبيرة ستاركنبرج Starkenburg أو مونتفورت (القرين) على الحدود الغربية للجليل ، شمال فلسطين ٠ وارتدى فرسان الهيئة اردية بيضاء مطرز على صدرها صليب أسود (٣) ٠

وفى عام ١٢٢٦ م عين الامبراطور فردريك الثانى أحد الامراء الألمان مقدما اكبر للهيئة ، ومنحها امتيازا بان يحمل الفرسان شعار النسر الامبراطورى فوق أسلحتهم ؛ كذلك أهدى الامبراطور المقدم الأكبر للهيئة خاتما ثمينا ، لايزال يستخدم حتى الوقت الحاضر عند تنصيب المقدم الأكبر للمنظمة ٠ ومن الجدير بالذكر أن هيئة فرسان التيوتون ، كانت الوحيدة التى ساندت الامبراطور فردريك الثانى ، عندما أصدر البابا قرار الحرمان ضده ، ووصفه بانه عدو للعالم المسيحى ، فأعلنت تحديها لذلك القرار ، نظرا لما يربط مقدم الهيئة بالامبراطور من علاقات المودة والصداقة (٤) ٠

ولم تختلف هيئة فرسان التيوتون عن هيئتى الاسبتارية والداوية فى تقديم المساعدات الحربية للدفاع عن الشرق الفرنجى ، بيد أنها فى الواقع لم تستطع منافسة الهيئتين الكبيرتين من ناحية القوة والنفوذ ببـــلاد الشام (٥) ٠ وعلى عهد هرمان فون سالزا Herman Von Salza المقدم الأعلى لهيئة التيوتون الذى تولى فى الفترة من عام ١٢١٠ م الى ١٢٣٩ م ، نهضت الهيئة ، ونمت ثروتها ؛ ومن المحتمل انه لمس الوضع السيء للفرنجة بالشام، فأخذ يوجه اهتمامه الرئيسى الى شواطيء بحر البلطيق النائية لنشـــر

---

(١) King : op. cit. P. 305

(٢) Kantorowicz : Frederik the Second. P. 88

(٣) Archer : op. cit. P. 182

(٤) Kantorowicz : op. cit. PP. 193--194
Duggan : The Story of the Crusades. P. 225

(٥) King : op. cit. P. 169

المسيحية بين البروسيين والليفونيين الوثنيين ، وفى مقابل ذلك العمل ، حاز الفرسان على أراض وقلاع منذ عام ١٢٢٦ م (١) ٠

وبعد سقوط عكا فى أيدى المسلمين عام ١٢٩١ م غادرت هيئة فرسان التيوتون بلاد الشام ، وتوجهت الى املاكها على بحر البلطيق لتباشر عملا من نوع آخر ٠

٤ ـ هيئة مونتجـــوى :

لم تكن تلك الهيئة معروفة الا قليلا ، حتى القى الضوء على تاريخها المؤرخ ديلافيل لارولكس Dclaville le Roulex وهى هيئة اسبانية . ترجع اصولها الاولى الى عام ١١٧٦ ـ ١١٧٧ م ، عندما تنازل وليم دى مونتفرات وزوجته سيبيل للكونت رودريج Rodrigue لها باربعة من الأبراج فى عسقلان ، أهمها جميعا برج العذارى (٢) ٠ وفى حوالى عام ١١٨٠ م تشكلت الهيئة باسم هيئة مونتجوى L Orare de Montjoye وتاكد تشكيلها بوثيقة من البابا الكسندر الثالث صدرت فى ١٥ مايو من نفس العام ، وقد التزمت الهيئة بالنظام السسترياني ٠ ولم نستطع التيقن من الدور الذى قامت به تلك الهيئة فى الاوضاع الاجتماعية بالشام ، حتى يمكن الحكم على نشاطها٠ ويبدو أن الدور الذى قامت به ضئيلا للغاية ، لاننا نسمع أن هيئة الداوية استوعبت (امتصت) تلك الهيئة حوالى عام ١٢٠٤ م (٣) ٠

٥ ـ منظمة القديس توما بعكا :

وهى أيضا من الهيئات الدينية الحربية الغامضة التى قامت ببـــلاد الشام ولا نعرف عنها الا القليل ٠ تلك هى المنظمة الانجليزية المعروفة بهيئة فرسان القديس توما بعكا
The Order of the Knights of St. Thomas ot Acre.
ويرجع الفضل فى انشائها الى راهب انجليزى يدعى وليم ، جاء مع الحملة الصليبية الثالثة عام ١١٨٩ م ، تابعا لرالف دى ديسيتو ، وقد كرس هذا الراهب وقته للعمل من أجل دفن الموتى المسيحيين فى عكا ، وبنى كنيســـة

---

(١) Miller : op. cit. P. 529
(٢) Richard : op. cit. P. III
(٣) Chalandon : op. cit. P. 344

صغيرة ، واشترى قطعة من الأرض لاستخدامها جبانة ، وأهداها للشهيد القديس توما (١) •ويبدو ان فرسان تلك الهيئة كانوا قلة من حيث العدد ، فضلا عن أنهم كانوا فقراء ، وعندما زار بيتر دى روش فلسطين عام ١٢٣١ م، بنى للهيئة كنيسة جديدة ، ووضع الفرسان تحت اشراف هيئة الداوية ، واوصى لهم فى وصيته بمبلغ خمسمائة مارك (٢) • وجرى اتخاذ الفرسان رداء مميزا لهم ، يتألف من معطف أحمر ، مطرز عليه صليب أبيض ؛ وعندما اتى الأمير ادوارد ولى عهد انجلترا الى عكا عام ١٢٧١ م ، بنى للفرسان كنيسة جديدة • وقد استمرت الهيئة فى تأدية دورها الى أن سقطت عكا فى ايدى المسلمين ، فنقلت نشاطها الى مملكة قبرص ، وظلت تمارسه حتى نهاية القرن الرابع عشر (٣) •

٦ ـ هيئة القديس لازاروس :

ترجع الأصــــول الأولى لهيئــة القديس لازاروس St. Lazarus الى مستشفى اقيم فى بيت المقدس لرعاية مرضى الجذام ، وبعد الغزو الصليبى الذى انتهى بالاستيلاء على بيت المقدس ، أضحت هيئة دينية عسكرية مثل الهيئات الأخرى ، ولكنها اهتمت فى المقام الأول بالمجذومين • ومن المصــادر التى توفرت لدينا حتى الآن ، لم تقابلنا أية معلومات عن النشاط الحربى لتلك الهيئة (٤) •

* • *

---

(١) Stubs : Seventeen Lectures, PP. 209—210
Archer : op. cit. P. 183

(٢) Stubs : op. cit. P. 210

(٣) Archer : op. cit. P. 183

(٤) King : op. cit. PP. 303–304
Ency. Britt. Art. Knighthood.

ثالثاً ــ طبقات المجتمع الصليبي

بعد أن تم للصليبيين الاستيلاء على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م ، تكونت الأمارات الصليبية بالشام ، من مملكة بيت المقدس الصليبية ، تتزعم ثلاث أمارات هى الرها وانطاكية وطرابلس • وقد قام التنظيم فى تلك المملكة على أساس النظام الاقطاعى الغربى ، الذى كان سائدا فى اوربا وقتئذ ، اذ كان قادة الحملة الصليبية الأولى من سادة الاقطاع الأوروبى ، ومن الطبيعى أن يقيموا النظام الذى عرفوه ، ونشأوا فيه ، والذى لم يكن هناك غيره • ونظرا لأن المسلمين دأبوا منذ قيام الامارات الصليبية وسط بلادهم على شن الحروب والغارات على الصليبيين للعمل على استعادة ممتلكاتهم حتى تم لهم ذلك ، الأمر الذى أدى تعرض مملكة بيت المقدس للعديد من الأخطار طوال وجودها • ولهذا فقدت اختلفت العلاقات الاقطاعية بالشام ، عما جرى بأوروبا الغربية التى تمتعت وقتذاك بقسط من الهدوء لم يتوافر فى الامارات الفرنجية بالشرق، التى غدت فى حالة حرب دائمة (١) •

ولايخفى علينا أن الكيان الصليبى الذى قام وعاش فى بلاد الشام ، ظل دائما قلة قليلة ، بعد أن عادت نسبة كبيرة من الصليبيين الغربيين ممن اشتركوا فى الحملة الصليبية الأولى الى أوطانهم فى الغرب الأوروبى • فى نفس الوقت تألفت الغالبية العظمى من سكان مملكة بيت المقدس الفرنجية بالشام من المسلمين والمسيحيين الشرقيين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم (٢) •

ولا يستطيع المرء أن يقدر عدد السكان المسلمين والصليبيين ، الذين عاشوا ببلاد الشام عقب وصول الحملة الصليبية الاولى الا تخمينا • فالبعض يرى ان المسلمين الذين تعرضوا للغزو ، فهلك الكثير منهم ، واضطر عدد كبير

---

(١) الباز العرينى : الاقطاع الحربى عند الصليبيين ، ص ٣ •
(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٤٩ •

ايضا للهجرة فرارا من الغزو ، لم يتبق منهم سوى بضعة مئات الالـوف من الرجال ، من المحتمل من أربعمائة الى خمسمائة ألف • أماالصليبيون الذين رحلوا من الغرب الاوروبى تلبية للدعوة الصليبية ، فقد تراوح عددهم بين ١٥٠٫٠٠٠ و ٢٠٠٫٠٠٠ نسمة وبفقدان حوالى الثلثين منهم فى الطريق ، لايتجاوز عددهم عند الوصول الى حدود الشام بخمسين ألفا ، ومن هذا العدد الأخير غادر ثلثه الأرض المقدسة بعد الاستيلاء على بيت المقدس مباشرة ، أما الباقى فقد رحل معظمهم بعد أن زال السراب الكاذب عن الثروات التى فى استطاعتهم احرازها (١) •

واذا كانت الاقلية الصليبية ، قد استطاعت الاحتفاظ بنفوذها السياسى لمدة تقرب من قرنين من الزمان ، الاانها لم تستطع الاحتفاظ بعاداتها وتقاليدها الغربية سليمة نقية ، وانما اضطرت بحكم قلة عددها أن تفقد كثيرا من صفاتها الأصلية ، وتكتسب التعديلات الجديدة (٢) • ونستطيع أن نضيف الى ذلك ، أن الصليبيين انتصروا بالقوة العسكرية على شعوب أعرق منهم حضارة وتقدما ، ولكنهم تأثروا بتلك الشعوب مع أنها قوة مهزومة عسكريا •

اما الطبقات التى تالف منها المجتمع الصليبى ببلاد الشام على عصر الحروب الصليبية فنجملها فيما يأتى :

١ ــ الأرستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان :

وهؤلاء كانوا قلة ، اذ لم يزد عددهم فى مملكة بيت المقدس عن ألف من الرجال ، ومثلهم من النساء والأطفال ، ومثل ذلك العدد ايضا فى امارات الرها وانطاكية وطرابلس مجتمعين • وقد ظلت الطبقة التى كان من المفروض أن تظل بمثابة العمود الفقرى للمجتمع الصليبى بالشام ، تعانى نقصا كبيرا فى العدد بسبب كثرة الضحايا فى الحروب ، وقلة الوارد من الغرب (٣) • فوفقا لريموند أجيل Raymond of Aguilers الذى لايرقى الشك الى ما أورده من أرقام عن الجيش ، بلغت القوة الحربية الضاربة قبل بداية الهجوم أثنـاء

---

(١) Chalandon : op. cit. PP. 285—286

(٢) سعيد عاشور : نفس المرجع والصفحة •

(٣) سعيد عاشور : نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٤٩٢ •

ليلة ١٣ ـ ١٤ يوليه على بيت المقدس وقتذاك ١٢٠٠ أو ١٣٠٠ من الفرسان (١) . واذا كانت جموع الحجاج لم ينقطع وصولها الى الشام منذ سقوط بيت المقدس ، فان القليل منها فضل الاقامة فى الشام بعد أداء فريضة الحج ، أما الغالبية العظمى فكانت تؤثر العودة الى غرب أوروبا . ثم انه اذا كان الصليبيون قد انجبوا الكثير من المواليد فى بلاد الشام ، فانه لم يعش منهم الا عدد قليل ، بسبب العوامل الجوية والصحية التى لم يألفوها . والخلاصة انه اذا أضفنا اقارب النزلاء من الطبقة الحاكمة من النساء والشيوخ، وفى نفس الوقت اسقطنا من اعتبارنا طبقة رجال الدين الذين لم يتجاوز عددهم بضع مئات ، وهيئات الفرسان الرهبان ، فان عدد البالغين من الطبقة الارستقراطية الحاكمة من النبلاء ، يتفاوت من الفين الى ثلاثة آلاف فى بيت المقدس . والراجح أن مجموع عدد فئات الفرسان فى انطاكية وطرابلس والرها لم يزد على ذلك (٢) .

ومن الملاحظ ان الطبقة الحاكمة الارستقراطية من النبلاء والفرسان ظلت نقية فى بيت المقدس ، على حين أنه حدثت فى الرها وانطاكية مصاهرات مع الارستقراطية المحلية من الروم والأرمن . فالمعروف أن بلدوين الأول ، عندما أسس كونتية الرها ، وانشغل فى توسيع رقعة حدودها ، فضل الزواج بأرمينية تدين بالمذهب الأرثوذكسى ، كى يكون اكثر ارتباطا بشعب مسيحى وطنى (٣) . وشجع بلدوين الأول المصاهرة بين الفرنج والسكان الوطنيين ، بعد أن جعل من نفسه مثالا على ذلك ، على انه لم يقدم على الزواج من الوطنيات الا عدد ضئيل من النبلاء والبارونات (٤) . واحتذى بلدوين الثانى الذى تم تتويجه ملكا على بيت المقدس فى ١٤ ابريل عام ١١١٨ م . حذو بلدوين الاول ، فتزوج من ارمينية تدعى مورفيا (٥) . أما زوجة جوسلين الأول ، وزوجة واليران سيد البيرة ، فكانتا ارمينيتين تنتميان الى

---

(١) Receuil des Historiens des Croisades. Occ. Vol. III PP. 298—299

(٢) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٤٦٧ ـ ص ٤٦٨ .

(٣) Hulme : The Middle Ages, P. 479

(٤) رنسيمان : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٦٤ .

(٥) William of Tyres : op. cit. Vol. II PP. 512—513

الكنيسة الأرمينية المنشقة ٠وتزوج بلدوين الثالث وعمورى الاول من اغريقيات (بيزنطيات) (١) ٠ ومن المؤكد أن السريان أخذوا دورا فى النبالة اللاتينية ، فمن بين الأسماء لعائلات ما وراء البحار ، ظهر العديد منهم من أصل وطنى وتدعى تلك العائلات آل غراب Les Ghorab وآل المنصور Les Mansoer (٢)

وبوفاة بلدوين الثانى عام ١١٣١ م ، انقضى الجيل القـديم للرواد الصليبيين ، اذ فى السنوات التالية ، نصادف جيلا جديدا ، على استعداد لان يتلاءم مع أسـاليب الحياة الشرقية ، بخلاف القـادمين من الغرب ، المشهورين بالميل الى الاعتداء والقتال ، ولم يكونوا قابلين لتشرب الحياة الشرقية ، ومن هؤلاء ريجنالد شاتيون (٣) ٠ وقد ادرك المسلمون فظاظـة الوافدين الجدد الى الارض المقدسـة ، والفرق بينهم وبين الذين استقروا ، فوصفهم اسامة بن منقذ : « فكل من هو قريب العهد بالبلاد الافرنجية ، أجفى اخلاقا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين » (٤) ٠

ولدى وفاة بلدوين الثانى أيضا ، كانت مملكة بيت المقدس مع اقطاعاتها قد اكتملت ٠ ويعتبر عهد بلدوين الثالث من أهم المراحل فى تاريخ الحروب الصليبية ، اذ تم فى عهده (١١٤٣ ــ ١١٦٣ م) اكتمال نمو وتطور الامارات الصليبية ، فاصاب تقاليدها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحربية ، من التعديل والتغيير ما جعلها تناسب أحوال الشرق ٠ وفى منتصف القرن الثانى عشر بلغت الامارات اللاتينية فى تطورها مرحلة تهيأ عندها ، لكل امارة من الاحوال ما يجعلها تستقل بامورها فقد ترتب على ذلك أن جـرى الميل الى اغفال الروابط الاقطاعية ، ولم تعد لملك بيت المقدس من مكانة الا باعتباره مقدم الأسواء Primus inter pares (٥) ٠

على ان الارستقراطية الحربية ، كانت هى الطبقة الحاكمة بين الفرنجة٠ ومن الطبيعى ان الحرب كان هو لشغل الشاغل لتلك الارستقراطية ، ووجود

---

(١) Miller : op. cit. P. 523

(٢) Lammens : La Syrie Précis Historique Vol. I. P. 241

(٣) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ ٠

(٤) الاعتبار ، ص ١٣٤ ٠

(٥) الباز العرينى : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ص ٦٢٣ ــ ص ٦٢٤ ٠

تلك الطبقة يلقى ضوءا على طبيعة الاستقرار اللاتينى • وقد اعتمدت تلك الطبقة على القلاع والحصون التى كانت تمثل الأساس المادى للسيادة (١) •

والصفات التى يجب أن يتحلى بها الفارس ، التمسك باهداب الفضيلة، والقدوة الحسنة فى تصرفاته ، اذ ان الفروسية تعنى لدى الفارس الحرب والعقيدة والبسالة ، وكل عامل من تلك العوامل على التوالى يؤكد الخصال الضرورية للفارس الحقيقى • فعلى العامل الحربى ارتكزت الفضائل الاولى للفروسية وهى ثلاث : « الشجاعة والاخلاص والكرم ، ومن العقيدة اشتقت الفضائل الثانية وهى الاخلاص للكنيسة والطاعة والعفة ؛ أما الفضائل الثلاث الاخيرة التى تأتى فى المرتبة الاخيرة ، فهى اجتماعية بطبيعتها : الكياسة والتواضع والاحسان (٢) وكان جزاء الفارس الذى يتخلى عن تلك المبادىء الانسانية رادعا ، فقد روى لنا جوانفيل أن أحد الفرسان فى قيسارية ، امسكوة فى بيت من بيوت العاهرات ، فخبروه ـ وفق عادات البلد ـ بين أن تأخذ المرأة العاهرة بمقوده فى المعسكر وهو فى قميصه ، وقد شدته بحبل تجريسا له ، وبين أن يتخلى عن حصانه وسلاحه ويطرد من الجيش ، فآثر الفارس التخلى عن فرسه وسلاحه وترك الجيش (٣) •

وقد لعبت النساء النبيلات دورا هاما فى الامارات الصليبية • فقوانين مملكة بيت المقدس لم تحرم الاناث من وراثة العرش ، وقد أدى التنافس والتكالب على الوارثات النبيلات الى وجود مشاكل سياسية خطيرة فى المملكة (٤) كان لها اخطر النتائج • فالبعض من الفرسان المغامرين المفلسين ، والأبناء الصغار من الفرسان الذين ليس لهم اقطاع ، وفدوا الى الشام الفرنجية ليجربوا حظهم مع النبيلات صاحبات الاقطاع • وقد نجح فى ذلك جاى لوزيجنان ، مما أدى الى غيرة المنافسين الأقل حظا • ويروى أن كارثة حطين التى أدت الى سقوط بيت المقدس عام ١١٨٧ م فى ايدى المسلمين ، كان سببها المباشر انتقام رجل انجليزى يسمى جيرارد دى ريد فورد ، فشل فى طلب

---

(١) Small : Crusading Warfare. PP. 60—62

(٢) Hearnshow : Chivalry, P. 180

(٣) حسن حبشى : القديس لويس ، ص ٢٢٤

(٤) Miller : op. cit. P. 521

يد امرأة • فقد أتى جيرارد الى الارض المقدسة كفارس لا هدف له ، يلتمس حظا موفقا • فوعده ريموند الثالث صاحب طرابلس بان يزوجه من القاصرة وارثة البترون الثرية بصفته الوصى عليها • ولكن وصول احد اثرياء بيزا غير الوضع ، فقد أتى بميزان وضع السيدة الوارثة فى احدى كفتيه ، وفى الكفة المقابلة اكياس الذهب ، وأعطى للكونت وزنها ذهبا ، وبالطبع زوجه من وارثة البترون التى يبدو انها كانت ذات جمال وافر • ولم ينس الرجل ذلك الصدود • وحالفه التوفيق فى مجال آخر ، فقد التحق فارسا بهيئة الداوية ، وتدرج فى سلم الوظائف الكبرى الى أن صار صنجيلا ثم بعد ذلك مقدما للهيئة • ولكنه لم ينس مطلقا أن ريموند خدعه مرة ، فرد اليه الصفعة ليلة حطين ، بأن حث الملك الضعيف على رفض استراتيجية ريموند (١) •
وثمة مثال آخر لفارس محظوظ ، وهو رينودى شاتيون ـ الذى عرفه العرب باسم ارناط ـ ، الذى أتى الى الشام سنة ١١٤٧ م ليجرب حظه ضمن حاشية لويس السابع ملك فرنسا ، وقد كان ابنا اصغرا لا اقطاع له • واستطاع ارناط الزواج بالارملة الاميرة كونستانس الوصية على الوريث الشرعى لامارة انطاكية ، فحكم الامارة لصالح ابن الزوجة • ويبدو أن ذلك الزواج كان غير متكافىء ، فانتشرت حوله الشائعات المحلية ، خاصة من البطريرك الذى عارض ذلك الزواج • فما كان من المغامر الفرنسى الا ان قام بتجريد البطريرك من ملابسه، ولطخه بالعسل، وتركه وليمة للذباب خلال يوم صيف طويل (٢)•
وقدر لارناط أن يقع فى اسر المسلمين اثناء قيامه بحملة لسرقة الماشية ، وبقى سجينا فى حلب مدة خمسة عشر عاما • وبعد ان اطلق سراحه ، وجد ان زوجته قد توفيت ،وان ابن زوجته اعتلى عرش انطاكية • ومن ثم تطلع باحثا عن وريثة أخرى ، فوجد فرصته المنشودة فى البارونة الارملة صاحبة الاردن (٣)•

وعلى أية حال ، فقد عاشت الطبقة الحاكمة من النبلاء والبارونات والكونتات والفرسان ـ فيما عدا التجارة والحرب ـ عيشة اميل الى الدعة

---

(١) Miller : op. cit. P. 522
(٢) Ibid : Loc. cit.
(٣) Miller : op. cit. PP. 522--523

والتراخى • وقد دفعهم الى ذلك توفر وسائل الراحة ، والفراغ الكبير • فلم تكن ايامهم كلها حروبا ، بل كانت فترات السلم خلال وجود الكيان الصليبى أطول من فترات الحروب • عاشوا فى قصور فخمة ، حتى قلاعهم وحصونهم التى كان الغرض الاول منها دفاعى، قاموا بتجهيزها بوسائل الراحة والترفيه• وسنرى فيما بعد أن أولئك الفرنجة قلدوا المسلمين فى الاستمتاع بالحياة • ولا عجب فى ذلك ، فالمسلمون أصحاب حضارة روحية ومادية وفكرية عريقة ، لم تشاهدها جيوش الزحف الصليبى من قبل •

ومن وسائل الترفيه عند النبلاء الحمامات الشرقية ، والمقامرة ، وسماع المغنيين ، ومشاهدة الرقص ، وعرض المسرحيات عند التتويج • كذلك انتشرت لعبة النرد ، وكان بلدوين الثالث يقضى معظم وقته فى ممارسة تلك اللعبة ؛ وفى الشمال ، فى انطاكية والرها ، حرص أمراءهما على حمل صناديق النرد خلال القيام بغزوات أو اغارات ضد المسلمين ، مما أدى الى اضعاف الروح المعنوية لدى العديد من ضباطهما • وبالاضافة الى ذلك ، زاول الامراء الصيد بالباز ، على الطريقة العربية ، وكان الصيد من التسليات المفضلة لديهم (١)•

٢ ـ طبقة الأفراخ (البولانيون) :

وتعنى طبقة الافراخ أو البولانيون Pullani الابنـــاء المنحـــدرين من الزيجات المختلفة ، بين الفرنجة والمسيحيين الوطنيين من ارمن ويعاقبة وسريان وغيرهم ، وقد كثرت تلك الزيجات خاصة فى المدن (٢) • وممـــا لا شك فيه أن الزواج المختلط بين الفرنجة والوطنيات السوريات كان نادرا للغاية (٣) ، كما أن تزاوج الفرنجيات من السوريين كان اكثر ندرة •

وقد تناول الكتاب المعاصرون وصف البولانيين بعبارات بعيدة عن الاطراء • فأسقف عكا جاك دى فيترى وصفهم قائلا : « انهم تربوا فى الترف ،

---

(١) Ibid., P. 530

(٢) Lammens : La Syrie Précis Historique. Vol. I P. 241

(٣) Grousset : L'Empire Du Levant. pp. 315—316.

وهم نموذج للنعومة والتخنث . اعتادوا التردد على الحمامات الشرقية ، بدلا من التوجه الى ساحات المعارك ، بهم ميل الى الرفاهية ، وارتداء الاثـــواب الناعمة كالنساء ؛ كسالى خاملون ، جبناء » (١) ٠

وكان البولانيون على استعداد لعقد الصلح مع المسلمين ، والعيش معهم فى سلامة ؛ واذا حدثت مشاجرات داخلية بين البولانيين ، فانهم مالوا الى طلب المساعدة من المسلمين بدلا من الصليبيين ٠ ولطبيعتهم ـ أو لمصالحهم ـ عارضوا وصول الوافدين الجدد من الصليبيين ، ذلك لان الحرب ستتدخل فى شئونهم ، وتعطل مصالحهم التجارية مع المسلمين (٢) ٠

أما عن الحياة العائلية ، فقد قلد البولانيون المسلمين ، فنســـائهم محجبات ، ولم يسمحوا باختلاط الرجال مع النســـاء ، واذنوا لزوجاتهم بالذهاب الى الحمامات ثلاث مرات فى الاسبوع ، والتردد على الكنيسة مرة واحدة فى السنة (٣) ٠

من ذلك يتبين لنا أن جاك دى فيترى قد جاوزه الصواب فى مهاجمتـــه لطبقة البولانية ، وانتقاده لها بشدة ٠ فقد نسى ذلك الاسقف ان الجيل الجديد المهجن من البولانيين ، لم ينشأ فى يوم وليلة ، ولكنه جاء نتيجة استقرار الصليبيين فى الأرض المقدسة ، واختلاطهم بأهالى البلاد ، بعد أن استوعبوا عاداتهم وتقاليدهم ، وتخلوا عن تعصبهم ٠ وقسوته فى الكتابة لم تقتصر على الغربيين فقط ، بل انصبت أيضـــا على مواطنى الجمهوريات الايطاليـــة والسوريان وغيرهم ؛ وربما كان تعصبه كرجل دين جعله يصدم فى شعوره ؛ ومما لا شك فيه أن تشهيره يوضح التناقض القديم بين الروح الصليبية والروح الاستعمارية (٤) ٠ وشدما اختلف وصف جاك دى فيترى عن الوصف الذى تركه لنا فوشيه دى شارتر ، Foucher de Charter مؤرخ الحملـــة

(١) Miller : op. cit. pp. 523—524.

(٢) Ibid. p. 524.

(٣) Loc. cit.

(٤) Grousset : Histoire des Croisades. T. III p. 197—199

الصليبية الأولى . فقد قال عن الصليبيين الذين اندمجوا مع الاهالى الوطنيين: « الآن صرنا ــ نحن الذين كنا غربيين ــ شرقيين . ومن كان منا ايطاليا أو فرنسيا ، اصبح فى هذه البلاد جليليا أو فلسطينيا . والذى كان من مواطنى ريمس أو تشارتر أصبح الآن صوريا أو انطاكيا . لقد نسينا الاماكن التى ولدنا فيها . وأكثرنا لايعرفها . بل لم يسمعوا بها . ولكل منا بيته واهله ، كما لو انه ورثه من ابيه أو من شخص سواه . وتزوج بعضنا لا من بنات أوطاننا وانما من سوريات وارمنيات . وحتى من مسلمات متنصرات . واصبح من كان منا يعد اجنبيا . مواطنا ، ومن كان مهاجرا صار من أهل القرار . وفى كل يوم يلحق بنا الى الشرق أقارب وأصدقاء ، تاركين وراءهم كل ما كان فى حوزتهم وهم فى الغرب . واما من كانوا فقراء هناك فقد اغناهم الله هنا . ومن كان خاوى اليدين الا من دريهمات معدودات ، أصبح لديه من القطع الذهبية مالا يحصره عد . ومن لم تكن لديه قرية اصبح يمتلك ــ والمعطى هو الله ــ مدينة برمتها . فلماذا نعود اذا الى الغرب ما دام الشرق يهيىء لنا كل هذا ؟؟ (١) .

ومهما كان الامر ، فان البولانيين دليل واضح على أن البيئة الشرقية قد أذابت عددا من الغربيين الاوروبيين فى بيئتها ، وهضمتهم . وليس بغريب أن نشاهد فى الوقت الحاضر ، نساء ورجالا من ذوى العيون الزرق والشعر الاشقر فى مدن مثل أجدين (اهدين) فى شمال لبنان وبيت لحم والعريش ، وهناك اسر اغلبها لبنانية نصرانية ، مثل عائلة كرم وفرنجية وصليبى ، قد حافظت على تقاليد انحدارها عن أسلاف فرنج ، ويقال ان اسماء بعض الاسر الاخرى كصوايا مشتق من سافوا Savoie، والدويهى من de Douai والبردويل من بلدوين (٢) .

---

(١) Grousset : op. cit. Vol. I p. 287

برنارد لويس : العرب فى التاريخ ، ص ٢١٦ ــ ص ٢١٧ .

(٢) Hitti : History of the Arabs. pp. 669--670.

٣ ـ طبقة الأحرار أو البورجوازية :

شكل الاحرار أو البورجوازية فى مملكة بيت المقدس طبقة مميزة متفوقة، أرستقراطيه ، وهم أولئك الرجال من العامة ، الذين اشتركوا فى الحروب الصليبية برفقة البارونات والكونتات ، كذلك من الاوروبيين الوافدين الى بلاد الشام بهدف ممارسة التجارة (١) • وقد احتشد البروجوازية فى المدن الساحلية وعدد معين من المدن الداخلية ؛ وادت الثروة التى حصلوا عليها الى اضفاء اهمية ليهم (٢) • ويرى البعض ان الطبقات البورجوازية ، لم يكن لها فيما يبدو ، دور فى التجارة الدولية ، بل قصرت نشاطها على اقامة الدكاكين ، وصناعة السلع اللازمة للاستهلاك المحلى (٣) • وعلى الرغم من أن طبقة البورجوازية كانت فى منزلة أدنى من طبقة النبلاء ، الا انها احتلت مكانة اسمى من السكان الوطنيين (٤) •

وكان للبورجوازية سلطة قضائية خاصة ، تشبه السلطة القضائية للسادة الاقطاعيين ، وتألفت محكمتهم من اثنى عشر من المحلفين برئاسة موظف ملكى يدعى فيكونت Vicomte ؛ والجدير بالذكر أن البورجوازيين تمكنوا بمساعدة ملوك بيت المقدس من الوصول الى رتبة الفارس (٥) • ذلك أن البورجوازى الذى كان يستطيع حمل السلاح اذا اقتضت الحال ، فانه يستطيع الارتقاء الى النبالة ؛ ففى عام ١٩٥٢ م استطاع بورجوازية بيت المقدس ، خلال غياب الجيش الملكى ، ان يردوا هجوم تركمان ياروق ببسالة ؛ وفى عام ١١٨٧ م منح باليان الثانى Balian II d'Ibelin رؤساء بورجوازية

---

(١) Longnon : op. cit., p. 134

(٢) Ibid. pp., 134—135

(٣) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦١٦ •

(٤) Lamb : The Crusades, p. 382

(٥) Longnon : op. cit. p. 135

Lammens : op. cit. Vol. I p. 240.

مدينة بيت المقدس نصب فارس ، حتى يستطيعوا الدفاع عن المدينة ضد صلاح الدين الأيوبى (١) ٠

وقد تمتعت طبقة البورجوازية الفرنجية فى الشام بوضع يفوق نظيرتها فى فرنسا ابان الحروب الصليبية ، اذ من الواضح ان طبقة البورجوازية فى الغرب ، اتسمت اهميتها بالضآلة اول الأمر (٢) ٠ فقد صدر قانون فى السنوات الاولى من الاحتلال الصليبى ، حرم على الطبقة البورجوازية امتلاك الاراضى فى الشام ، ولكن هذا القانون سرعان ما ابطل ، اذ كان من المستحيل منع التجار الفرنسيين والايطاليين والفلمنك والألمان والانجليز ، من الحصول على حيازات صغيرة من الاراضى الزراعية ، مثل الحدائق والكروم والبساتين (٣) ٠

واستطاعت تلك الطبقة فى الشام ان تؤلف مجتمعا متمتعا بالحكم المحلى الذاتى ، قادرا على مزاولة التجارة من جهة ، وممارسة الحرب من جهة اخرى ٠ ومن المشاهد ، أنه كان للبورجوازية فى الشام ، قوة عسكرية محاربة تدعى الميليشيا البورجوازية Burgher Militia ، كان من الممكن ان تحارب جنبا الى جنب مع جيوش البارونات وفرسان الهيئات الدينية الحربية ، لولا ما اتصفت به تلك الجيوش واولئك الفرسان ، من كبرياء اجتماعى حال دون ذلك (٤) ٠ ولم تكن البورجوازية ملزمة بتقديم اية واجبات للسيد الاقطاعى ، وايضا لم تكن مجبرة على تقديم الخدمة الحربية له ؛ وكل ما عليها ان تجهز عددا معينا من فرق المشاه للجيش الصليبى (٥) ٠ هذا واتجه ابناء الطبقة البورجوازية ، بعد استقرارهم بالشام الى التزاوج من المسيحيين الشرقيين المحليين ـ وبخاصة الأرمن ـ ؛ مما ادى الى ظهور طبقة البولانيين او الافراخ فى منتصف القرن الثانى عشر (٦) ٠

(١) Grousset : L'Empire du Levant. pp. 314-315.
(٢) Jacob : op. cit. p. 382
(٣) Thompson : op. cit. Vol. I. p. 399
(٤) Ibid. p. 400
(٥) Chalandon : op. cit. pp. 302-303
(٦) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٩٥ ٠

٤ ـ الرقيق والأقنـــان :

من المعروف أن النظام الاقطاعى فى الغرب الاوروبى قام على أســاس العلاقة بين حر وحر ، وتبعية سيد لسيد آخر اقوى منه ، وذلك فى ظل اطار محكم من الحقوق والواجبات المتبادلة • اما النظام السنيورى Seignorial System فعلى العكس ، فهو يمثل علاقة سيد حر وقن خاضع مقيـــد بالارض غير حر ، لابين تابع حر ومتبوع حر • وهناك من الاسباب التى جعلت القن ارتبط بالارض فى الغرب الاوروبى ، فقد كان عليه أن يقوم بخدمات معينة ، ودفع ضرائب محددة للسيد الاقطاعى ، فاذا عجز عن الوفاء بهذه الخدمات والاموال ، فانه فى هذه الحالة يكون عرضة لأن يلفظه المجتمع الذى يعيش فيه ، عن طريق البيع أو الاستبدال أو الطرد (١) •

وكانت عقوبة الطرد اشدها ، لأن معنى طرد القن انه سيصبح دون سيد يحميه ، مما يعرضه لأخطار بالغة ، فى عصر اشتهر بالفوضى وعدم الاستقرار •

والواقع ان آلاف الفلاحين عاشوا فى الغرب الاوروبى عيشة منحطة ، وتكونت طبقة العبيد فى اساسها من العبيد Slaves والاقنان Serfs الذين تقاربت ظروفهم جميعا ، فاختلطوا وتداخلوا عن طريق ذوبان العبيد وانصهارهم وسط محيط الاقنان • ومن الملاحظ ان القن لم يكن عبدا بمعنى الكلمة ، لان سيده لايستطيع التصرف فيه بالبيع مثلا أو اذيته جسمانيـا دون ذنب او محاكمة • وعلى هذا الاساس فهو لم يكن عبدا ولا حرا ، وانما كان بين هذا وذاك (٢) •

وقد فتحت الحروب الصليبية الباب على مصراعيه امام عشرات الالوف من الاقنان ، الذين تركوا اراضيهم بحجة الاشتراك فى النشاط الصليبى (٣) •

---

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٧١ ـ ص ٧٢ •
(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧٩ •
(٣) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٨٧ •

والواقع أن الباعث الدينى لم يكن الدافع الاساسى لاسهامهم فى الحركة الصليبية ، وانما دفعهم الى ذلك الامل فى حياة جديدة افضل من حياة الذل والهوان والشقاء فى الغرب الاوروبى (١) ٠

وكان من المستحيل ان يستغنى الفرنجة بالشام عن الرقيق والاقنان ، بعد ان اعتادوا فى الغرب الاوروبى على وجود تلك الطبقة ، ليعمل افرادها فى فلاحة الارض وغيرها من الاعمال الشاقة ٠ وكانت الغالبية العظمى من الرقيق فى الشام ـ على عصر الحروب الصليبية ـ من الاقنان ٠ واذا كانت أوضاع العبيد والأقنان قد أخذت فى التحسن فى الغرب الاوروبى خلال القرن الثانى عشر ، واضحى فى استطاعة الكثيرين منهم ان يتحرروا ويمارسوا حقوقهم المشروعة فى الحياة ، فان الوضع لم يكن كذلك ببلاد الشام ، ذلك ان العبيد والاقنان قاسوا الكثير من الاجحاف والسخرة والظلم ، بسبب تعسف الصليبيين ، مما جعلهم يترحمون على أيام حكم المسلمين (٢) ٠

وقد هبط أصحاب الملكيات الصغيرة من اهل الشام الى القنانة (عبودية الأرض) ، اى صاروا اقنانا فى أراضى السادة الاقطاعيين الجدد ؛ والقن فى الشرق كان أكثر شقاء وتعاسة من زميله فى الغرب ٠ ففى الغرب تحسن القن، وصار يعيش فى ظروف عيش مخففة ، اما فى الشرق فقد تدهورت طبقة الاقنان على ايام البيزنطيين والعرب ، وفى أيام عصرهم الذهبى ٠ ويبدو ان حظ الأقنان من أهل الشام العاملين فى أراضى الكنيسة ببلاد الشام ، لم يكن احسن من العاملين فى أراضى السادة الاقطاعيين ، فالكنيسة سواء فى أوروبا ثم آسيا كانت ترهق العاملين فى ارضها ، بالمهام الثقيلة الصعبة (١) ٠

ومن الرقيق الذى كان تحت سيطرة الفرنجة ، بعض المسلمين الذين وقعوا فى الاسر خلال زحف جيش الحملة الصليبية الاولى الى بيت المقدس ،

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٣٧ ـ ص ٣٩ ،
Boissonade : Life and Work in Med. Europe, p. 147

(٢) Thompson : op. cit. pp. 397 398

(٣) Ibid. p. 398

من ذلك سكان قيسارية ، اذ يروى لنا فوشر دى شارتر ان الذكور من اهالى تلك المدينة كان عددهم قليلا ، وعوملوا برفق ، اما النساء فكان عددهن يفوق عدد الرجال ، فتم بيـــع بعضهن ، وبقى البعض الآخـــر لادارة أحجـــار الطواحين (١) • وقد انتشرت فى البيئة الصليبية عادة الفها بعض جماعات المسلمين ، وهى استعمال الخصيان فى الحريم ، حيث يقومون بخدمة نساء النبيل وبناته ، بينما يحرم ذلك على الخادم الاوروبى أو العبد من أى جنس كان • وقد سخر الصليبيون الاسرى المسلمين ، فمن وقع فى أيديهم ، أرغم للعمل فى دار السيد الاقطاعى ، وأرغم على احتراف الزراعة فى ضياعه ، والقيام بالحرف الصناعية التى يحتاجها ، وقهره على العمل فى البناء (٢) •

ومن العادات التى تمسك بها الفرنجة اشد التمسك ، ضرورة تنصير العبد اذا عاش وسط مسيحيين ، وكان سيده فى الوقت ذاته مسيحيا ، وليس من المستبعد ان يجبروه على اعتناق مذهبهم الدينى الخاص ، فاذا تنصر لم يجز المشرعين بيعه اصلا لمسلم مهما اغلى ثمنه ، ويرون فى ذلك حطة للصليبى، ان لم يكن خرقا دينيا (٣) • ولايجوز بحال من الاحوال استرقاق النبلاء أو البارونات ، ولكن يحتفظ بهم للحصول على فدية كبيرة •

وعلى أية حال ، فان البناء الاجتماعى للكيان الصليبى بالشام ، تألف من طبقات مختلفة ، غير متآلفة أو منجانســـة ، ظلت متميزة بالفـــوارق الواضحة ، مما أدى الى عدم تماسك الصليبيين بالشام من ناحية ، والحاق الضرر بهم من ناحية اخرى •

---

(١) Richard : Le Royaume Latin. p. 122

(٢) حسن حبشى : نور الدين والصليبيين ، ص ١٤٨ ــ ص ١٤٩ •

(٣) Miller : op. cit. p. 527

حسن حبشى : المرجع السابق ، ص ١٤٩ •

رابعا ـ المسيحيون الشرقيون :

عاش المسيحيون الشرقيون الى جانب المسلمين فى كنف الدولة العربية الاسلامية ، وتمتعوا فى مجتمعاتهم الخاصة بهم بقسط وافر من التسامح الدينى ، الذى عرف به الدين الاسلامى · وخلال العهود الاسلامية المتتابعة ، مارس المسيحيون الشرقيون طقوسهم فى كنائسهم فى حرية تامة · ولكن اللاتين فى بلاد الشام ، على عهد الحروب الصليبية ، نظروا الى المسيحيين الشرقيين نظرة أخرى ، اذ اعتبروهم منشقين على الكنيسة الكاثوليكية الغربية ، وبمعنى آخر ملحدين (١) ·

١ ـ الموارنة (الطائفة المارونية) :

اختلفت الآراء حول اصل الموارنة ، وانتحالهم لهذا الاسم ، ومن تلك الآراء أنهم جماعة من السوريان اعتنقوا الديانة المسيحية فى ايامها الاولى ، واعتبر القديس مارون أبا وشفيعا لطائفة الموارنة (٢) · وقد عاش هـــذا القديس الراهبفى أواخر القرن الرابع الميلادى فى شمال الشام ، فى المنطقة الواقعة بين انطاكية وقورس (على مسافة ستين كيلو مترا شمالى حلب) ، وتوفى حوالى عام ٤١٠ م أو حوالى ٤٣٣ م (٣) · والحقيقة ان القديس مارون من شدة زهده ، جذب اليه جماعات من الناس ليلتمسوا بركته ، ويسترشدوا بتعاليمه ، ويقتدوا بسيرته ، واهم المراكز التى التفوا حولها دير القديس مارون ، الذى شيد على ضـــفاف نهـــر العاصى فى نواحى أفاميه (٤) · وفى أواخر القرن السابع الميلادى اقيم يوحنا مارون أول بطريرك للموارنة ، ليرعى شئونهم الدينية ؛ وفى عهده برزت أولى الخصـــائص الوطنية للموارنة (٥) · واتباع هذه الطائفة كانوا من اصـــحاب المشيئة الواحدة ، وهذه العقيدة تقول انه كان للمسيح مشيئة واحدة ، قال بهـــا بطريرك الامبراطور هرقل عام ٦٣٨ م ، ليوفق بين عقيدة أصحاب الطبيعة

---

(١) Chalandon : op. cit. pp. 284—285

(٢) يوسف الدبس : الجامع المفصل فى تاريخ الموارنة الموصل ، ص ٣ ·

(٣) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣١٠ ·

(٤) محمد كرد على : خطط الشام ، جـ ٦ ، ص ٢٣٦ ـ ص ٢٣٧

(٥) فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٣٠٣ ـ ص ٣٠٤ ·

الواحدة (المونوميزتيون) ، الذين كانوا يشكلون الأغلبيـــــة من الرعايا المسيحيين فى الشام ، وبين أصحاب العقيدة الأرثوذكسية الرسمية للكنيسة البيزنطية • وقد كانت هذه هى المحاولة الأخيرة التى قام بها الامبراطور ، ليسد الثغرة التى أوشكت أن تفصل بين الكنيسة السورية والكنيســة البيزنطية ؛ ولكن هذه المحاولـــة ، شأن كل محاولـــة للتوفيق ، باءت بالفشـــل (١) •

والمواطن الاولى للطائفة المارونية ، كما وجدت فى القرن العاشر الميلادى، كانت فى وادى العاصى ، لاسيما معرة النعمان وشيزر وحماه وحمص ؛ كذلك وجد الموارنة فى جهات أخرى أقرب الى الشمال كمنبـــج وقنسرين ، ومن المحتمل أيضا أنهم كانوا فى انطاكية • غير أن الموارنة انتقلوا الى جبل لبنان فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى ، بادئين بالهجرة من وادى العاصى الى الجبل من ناحية الشمال ، مجتازين أفامية وحماة وحمص الى أن استقر بهم المقام فى الجبل ، فسكنوا اولا جهاته الشمالية ، ثم تقدموا الى أواسطه ، الى أن بلغوا فى النهاية جنوبه • ويرى البعض أن الاضطهادات التى لقيها الموارنة على يد مخالفيهم ولا سيما اليعاقبة ، كانت السبب فى نزوحهم الى لبنان ؛ ومن الجدير بالذكر ان تلك الهجرات لم تتم دفعة واحدة، بل حدثت فى أزمنة متوالية (٢) •

ومن ناحية السلالة العرقية ، ترجع الطائفة المارونية فى أصولها الىعناصر شتى ، أهمها الموارنة المهاجرون الى لبنان من شمال بلاد الشام ووسطها ، وقد انضم اليهم الاباق والفارين الذين لاذوا بحمى المردة أو الجراجمة الباقين فى لبنان ، بالاضافة الى ماكان هناك من السكان الاصليين (٣) • وقد امتزجت تلك العناصر بمرور الزمن ، وصارت تعرف بالطائفة المارونية ، التى لازال

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠٤ ــ ص ٣٠٥ •

(٢) لامنس : تسريح الابصار فيما يحتوى لبنان من الآثار ، ج ٢ ، ص٥٠ــص٥٢ •

(٣) لامنس : تسريح الابصار فيما يحتوى لبنان من الآثار ، ج ٢ ص ٥٤ •

أتباعها فى أعالى لبنان ، يستخـــدمون اللغة السريانية الى جانب اللغـــة العربيـــــة (١) ٠

ويعتبر المارونيون آخر من تبقى من انصار المذهب المونوفيزيتى ٠ وقـد حرصت الكنيسة الغربية على مراعاة شعورهم والرفق بهم ٠ ففى حوالى عام ١١٨٢ م وافق الموارنة أمام بطريرك انطاكية ، على قبول سيادة البابا فى روما ، على شريطة أن يظلوا محافظين على شعائـــرهم القديمة وتقاليدهم السريانية ، بالاضافة الى انهم لم يتخلوا عن عقيدتهم التى تجعل للمسـيح ارادة واحدة (٢) ٠ ويبدو أن الصليبيين كانوا يرون فى الموارنة قبل اعترافهم بسيادة روما ، انهم كانوا جماعة ضـــالة منشـــقة عن الكنيسة الكاثوليكية ، بالاضافة الى أن القديس مارون اعتبر من المبتدعين طوال خمسمائة عاما (٣)٠

وعلى زمن الحروب الصليبية كان الموارنة خير عون للصليبيين خـــلال حروبهم ضد المسلمين ٠ فمنذ اللحظة الأولى التى وطأت فيها أقدام الفرنجة بلاد الشام ، اتصل الموارنة بالجيش الزاحف على بيت المقدس ، ولخبرتهـم بالحرب وتدريبهم على مختلف الأسلحة المألوفة ، انضمت قوة منهم الى هـذا الجيش ، وقاتلت معه جنبا الى جنب ٠ ولا ريب أن الموارنة كوطنيين كانوا خبيرين باهل البلاد ومسالكها والمواقف الحربية ، لاسيما الاساليب الحربية للمسلمين ، قد افادوا الصليبيين الى حد بعيد : ومنهم من عمل دليلا للصليبيين يرشدهم الى الطرق والمعابر خلال زحفهم، كما عملوا تراجمة لديهم (٤)٠وعندما قدم لويس التاسع الى بلاد الشام حوالى عام ١٢٤٩ م ، اتصل به عدد غفير من الموارنة ، وانخرطوا فى صفوف جيشه ، ويفخر الموارنة بالرسالة التى بعث بها لويس الى امير طائفة الموارنة وبطريركها واساقفتها، فقد جاء فيها أن الموارنة يتمتعون بنفس الحماية التى يتمتع بها الفرنسيون ، ويقبلون فى الوظائف كما

---

(١) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٨٩ ،

(٢) Cahen : La Syrie du Nord. p. 192
Thompson : Econ. and Soc. Hist. Vol. I p. 399

(٣) يوسف الدبس : المرجع السابق ، ص ٢٠٧ ــ ص ٢٠٨ ٠

(٤) يوسف دريان : أصل الطائفة المارونية ، ص ٥٣ ــ ص ٥٤ ٠

يقبل الفرنسيون ، واختتمها قائلا : « أما نحن وجميع من يخلفوننا على عرش فرنسا ، فنعد باننا نوليكم أنتم وجميع شعبكم حمايتنا الخاصة ، كما نوليها للفرنسيين بعينهم (١) • » ولا تزال العلاقات الخاصة تربط بين الطائفة المارونية وفرنسا حتى وقتنا الحالى (٢) •

واذا أخذنا فى الاعتبار تعذر مسالك جبال لبنان ، أدركنا ان ذلك جعل الموارنة ينعمون بنوع من الاستقلال • ومما يدل على ذلك أن المسلمين عندما استردوا أنطاكية ، فر العديد من الصليبيين هاربا الى جبال لبنان ، فاستقبلهم بطريرك الموارنة بالترحاب ، الأمر الذى جعل البابا اسكندر الرابع ، يكتب له رسالة شكره فيها على صنيعه ، وفى نفس الوقت يوصيه خيرا بمن لجأ اليه ، وان يحتسبهم كابناء طائفته (٣) •

والحقيقة ان فترة الحروب الصليبية كانت تمثل العصر الذهبى للموارنة، فقد كانوا احسن حالا وأعظم شانا • فكنائسهم واديرتهم ومدارسهم ازداد عددها • واحسوا بالراحة والطمأنينة ، وتوفرت لهم سبل الرزق ، ووجدوا فى كنف الفرنجة التاييد والمحبة (٤) • واحتلوا فى الممالك التى تسيدها الفرنجة المكانة الاولى بعدهم ، وكانوا يقدمون على جميع الطوائف المسيحية، ويتمتعون بالحقوق والامتيازات التى تتمتع بها البورجوازية اللاتينية ، بما فى ذلك حق الارض فى مملكة بيت المقدس (٥) •

وقد سمح لرجال الدين الموارنة أن يقوموا بخدمة القداس على مذابح لاتينية ، واخذت الكنيسة المارونية تتخلى رويدا عن طقسها المألوف لتتبنى الطقس اللاتينى ، وصار رجال الدين الموارنة يتبعون الزى اللاتينى فى لبس الخواتم والقلنسوة التى تشبه التاج وحمل العكاز (٦) •

---

(١) يوسف دريان : المرجع السابق ، ص ٥٤ •
(٢) يوسف الدبس : الجامع المفصل ، ص ٢٠٨ •
(٣) يوسف الدبس : الجامع المفصل ، ص ١٨٨ — ص ١٨٩ •
(٤) يوسف دريان : اصل الطائفة المارونية ، ص ٥٣ •
(٥) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٢٩٢ •
(٦) اسطفان الدويهى : تاريخ الطائفة المارونية ، ص ٢٨٢ •

ومن الواضح أن ظهور الدروز كطائفة جديدة فى جبل لبنان فى منتصف القرن الحادى عشر ، جعل تاريخه منذ ذلك الحين يبدأ فى التركيز على هاتين الطائفتين ، وعلى علاقة احداهما بالاخرى ، نعنى الدروز والموارنة (١) . وقد حاول المارونيون فى مرات عديدة اخراج الدروز من جبال لبنان . ولكن الدروز الذين يعيشون متناثرين فى قرى عديدة ، كانوا يتكتلون دائما ، ويقفون صفا واحدا امام الموارنة (٢) .

٢ ـ الأرمن :

اتخذت حركة انتشار الأتراك السلاجقة انتشارا أفقيا من الشرق الى الغرب ، عبر أرمينيه وكابادوكيا وفريجيا وبيثينيا وأيونيا ، حتى شملت جميع الجهات الشمالية والوسطى من شبه الجزيرة . اما الأقاليم الجنوبية والشرقية من آسيا الوسطى ــ حول طوروس وملطية ثم الرها وانطاكية ــ فلم يتجه اليها السلاجقة اول الأمر ، مما أدى الى عزل تلك المنطقة عن بقية بلاد الدولة البيزنطية ، ثم وقوعها بين شقى الرحى فى الصراع القائم بين البيزنطيين والسلاجقة فى آسيا الصغرى (٣) .

وكانت الامبراطورية البيزنطية ، قد منحت ملوك أرمينية وأمراءها ضياعا واسعة فى اقليم كابادوكيا ، الأمر الذى أدى الى هجرة أعداد كبيرة من الأرمن الى ذلك الاقليم فى شرق آسيا الصغرى . ولكن توسع السلاجقة فى كابادوكيا ، جعل الارمن يبحثون عن مأوى جديد ، فاتجهوا الى اقليم قيليقية الجبلى فى جنوب شرق آسيا الصغرى (٤) . وانتشروا ايضا فى الرها وفى ارباض تل باشر وفى شمال سوريا (انطاكية ، واللاذقية . وارتاح . وافامية) . ــ ومع انه لم يكن منهم فى جنوب الشام الا عدد ضئيل ، فقد هاجر الى مصر أعداد كبيرة من الارمن ، والتحقوا بالجيش الفاطمى ، وبفضلهم تغلب

---

(١) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣١٤ ــ ص ٣١٥ .

(٢) Nerval : Voyage en Orient. T. II p. 8

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٩٧ .

(٤) سعيد عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٩٨ .

الوزير بدر الجمالى ، وهو أرمنى اعتنق الاسلام ، وابنه الأفضل ، على العناصر المتمردة فى الجيش من الترك والسودان (١) .

والجدير بالذكر ان الارمن استخفوا بالدولة البيزنطية بعد الهزيمة المنكرة التى منيت بها فى مانزكرت عام ١٠٧١ م ، وفى نفس الوقت عملوا على استرضاء السلاجقة ومهادنتهم . فقد قبلوا الخضوع لحكم ملكشاه السلجوقى ، مقابل الافادة من السلام والأمان ، ولكن اذا هبت الفوضى دفعتهم مسيحيتهم وعنصريتهم الى الانضمام لجانب بيزنطه (٢) .

ومن الواضح ان الارمن رحبوا بمجىء الصليبيين الى الاراضى المقدسة . فبعد ان عبر قواد الحملة الصليبية الاولى جبال طوروس ، وقع بينهم الخلاف واخذ كل منهم يخطط الامور لصالحه الخاص ، فتحول بلدوين شرقا، واحتل الرها وهى آنذاك تحت حكم الارمن فى أوائل سنة ١٠٩٨ م (٣) . وهكذا تأسست اولى الامارات الصليبية فى الشرق الادنى . والمعروف ان العنصر الارمنى كان هو المسيطر على الرها عند وصول الصليبيين ، واستطاع القواد الفرنجة فى ذلك الحين ، أن يقدروا الصفات الحربية التى تمتع بها العنصر الارمنى ، ومن ثم ارتبطوا به ارتباطا وثيقا ، ويمكن القول ان امارة الرها خلال عمرها القصير (١٠٩٨ ــ ١١٤٦ م) كانت امارة فرنجية ــ ارمينية (٤) . اما تانكرد وهو أحد القواد النورمان القادمين من جنوبى ايطاليا وصقلية ، فتحول غربا ، ودخل قيليقية ، وسكانها كذلك من الارمن ؛ واحتل مدينة طرسوس وسائر نواحيها .

وعندما اقترب الصليبيون من انطاكية سنة ١٠٩٧ م ، رحب الارمن بهم ترحيبا بالغا (٥) ؛ والمعروف ان سكان انطاكية غالبيتهم العظمى ــ مثلما

---

(١) الباز العرينى : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ص ٩ .

(٢) Cahen : La Syrie du Nord. p. 190

(٣) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ .

(٤) Grousset : L'Empire du Levant. p. 316

(٥) Small : Crusading Warfare. p. 46

كانوا خلال السيطرة البيزنطية ـ من السوريان والارمن • وقد أحس الادراك بالخطار الناجم عن هذا الوضع • ذلك ان اقتراب الفرنجة حمل باغى سيان أمير انطاكية ، يشعر بالخوف من المسيحيين الموجودين فى المدينة (١) • ويشك فى نواياهم تجاهه • وعلى الرغم من ذلك ، فقد شك الفرنجة انفسهم فى ولاء الأرمن خلال حصارهم لأنطاكية عام ١٠٩٧ م • وظنوا انهم يتجسسون لصالح الحامية التركية ، وينقلون المؤن الى داخل المدينة (٢) •

وفى الوقت الذى نشأت مملكة أرمينيا الصغرى الصليبية فى أواخر القرن الثانى عشر فى أقليم قيليقية ، أى فى الركن الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى ، استغل ملوك هذه المملكة موقع مملكتهم بين آسيا الصغرى من ناحية ، وشمال الشام من ناحية أخرى ، فى تقديم العون للصليبيين بالشام• ولم يكد المغول يستقرون فى فارس حتى حالفهم ملوك أرمينيا الصغرى ضد المسلمين فى العراق والشام ، ولكن السلطان الظاهر بيبرس انزل بالارمن وحلفائهم عدة ضربات فى أعوام ١٢٦٦ ، ١٢٧٣ م (٣) •

وقد اشتهر الأرمن كقوم محاربين ، مثل الموارنة • وفى القرن الثانى عشر ، انخرطوا فى صفوف جيوش الفرنجة كخيالة ومشاة ، لمحاربة المسلمين فى شمال الشام (٤) • وبسبب قرب مملكة أرمينيا الصغرى من امارة الرها ، فانهم على الدوام كانوا على اهبة الاستعداد لنجدة لاتين الرها ومساعدتهم (٥) •

والواقع ان كونتيه الرها ، تميزت بوضع معين اختلف عن بقية الامارات الصليبية • فقد اعتبرت امارة حاجزة ، تحمى انطاكية من المسلمين، وكانت هذه الكونتية اكبر مساحة من امارة انطاكية ، اذ امتدت على جانبى

---

(١) Grousset : Histoire des Croisades. T.I. p. 73

(٢) Gesta Francorum, p. 29
Small : op. cit. p. 47

(٣) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص ١٠٢ ـ ص ١٠٣ •

(٤) Small : op. cit. p. 47

(٥) Miller : Essays on the Latin Orient. p. 526

نهر الفرات من راوندان وعينتاب الى موضع غير معروف بالجزيرة ، الى الشرق من مدينة الرها . وافتقرت الرها الى حدود طبيعية ، ولهذا صارت الامارة كلها عبارة عن منطقة حدود ، لم تنقطع بها الحروب . ومع أن سكانها أساسا من المسيحيين . سريان ويعاقبة وارمن ، فقد دخل فى نطاقها مدن اسلامية ، مثل سروج (١) .

وقد سار الأرمن على النظم الاقطاعية للصليبيين ببلاد الشام ؛ ومن الجدير بالذكر أن وثائق انطاكية أتت الينا من خلال الأرمن ، فمحكمة سيس كانت تشبه محكمة بيت المقدس ، لها قهرمان (سنجال) . ومارشال وكوندسطبل (كونستابل) (٢) . واستخدم ملوك أرمينيه لغتهم القديمة التى لم يتكلم بها غيرهم ؛ وقد اختلفت الكنيسة التى يتبعها الارمن عن الكنائس الاخرى الموجودة بالشام على عصر الحروب الصليبية ، اذ وجد اختلاف مذهبى بين كنيستى أرمينيه وبيزنطه م نجانب ، وأرمينيه والحكومات اللاتينية من جانب آخر (٣) . وعرفت كنيسة الارمن بالكنيسة الجريجورية (٤) .

٣ ـ الأقليات الدينية :

والاقليات الدينية هى التى كانت تعيش مع المسلمين جنبا الى جنب ، قبل مجىء الصليبيين الى الشام . وتتمثل تلك الاقليات الدينية فى طبقة المسيحيين الشرقيين المحليين ، والروم ، والسوريان ، واليعاقبة ، والاقباط واليهود ، والسامرة ، وغيرهم .

ولا ريب فى أن المسيحيين الروم كانت لهم عصبية فى بلاد الشام ، قبل غزو الاتراك السلاجقة لتلك البلاد ، ومن الطبيعى أن تكون عواطفهم مع الدولة البيزنطية أو دولة الروم (٥) ، وليس من المؤكد أن يرجع الروم الى

(١) Cahen : La Syrie du Nord. pp. 110–112
(٢) Miller : op. cit. p. 526
(٣) Iorga : Breve Hist. de la petite Armenie. p. 20
(٤) Grousset : L'Empire du Levant. p. 311
(٥) Cahen : op. cit. p. 190

أصل بيزنطى ولكنهم مجموعة من أهل الشام ، مرتبطين بالتقاليد البيزنطية، ومن المطالبين بالامبراطورية البيزنطية والمرتبطة بكنيستها (١) • وقد أدى ميلهم الطبيعى للبيزنطيين أن شك الصليبيون فى اخلاصهم وولائهم ، فأثناء سقوط بيت المقدس فى أيدى صلاح الدين الايوبى عام ١١٨٧ م ، اتهم هؤلاء المسيحيون بالتحالف مع المسلمين (٢) • ومن الواضح أن نشأة الروم الارثوذكس ، كانوا ابغض فئات المسيحيين الشرقيين الى الصليبيين ، بسبب التخوف من تآمرهم مع الدولة البيزنطية ضد مصالح الصليبيين • وكان من المفروض أن يقوم الصليبيون بطردهم من اراضيهم ، ولكنهم استبقوهم لمهارتهم اليدوية ، وقيامهم بالخدمات والاعمال الحقيرة التى أنف الصليبيون الغربيون من تأديتها (٣) •

وخلال الزحف الصليبى على بلاد الشام ، ارتاب المسلمون بدورهم فى ولاء العناصر المسيحية الوطنية بالشام ، سواء كانت من أصل سوريانى أو بيزنطى بل وصل الامر الى اتهامهم بانهم الذين استدعوا الفرنجة فى الحملة الصليبية الاولى • ولهذا السبب قام المسلمون بابعاد المسيحيين الوطنيين حتى لايطعنوا من الخلف ، ولم يكن المسلمون اسعد حالا من المسيحيين الوطنيين ، فعقب سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين ، قاموا بدورهم بابعاد المسلمين • ومن ثم اقفرت مملكة بيت المقدس من السكان والايدى العاملة ، لأن اللاتين لم يؤلفوا الا اقلية عددية لاتستطيع الدفاع عن نفسها (٤) • ومن اجل تعمير المملكة ، عمل بلدوين الاول على استدعاء المسيحيين الوطنيين واعدوا اياهم بالمعاملة الحسنة ، واعفائهم من الضرائب• ولهذا نزح العديد منهم من البلاد المجاورة الخاضعة لحكم المسلمين ، الى مملكة بيت المقدس استجابة لنداء بلدوين ؛ وقد أدى ذلك الاجراء الحكيم الذى قام به الاخير ، أن اعتبر بحق المؤسس الحقيقى لمملكة بيت المقدس (٥) •

---

(١) Lammens : op. cit. T.I. pp. 246—247

(٢) Grousset : op. cit. p. 313

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٤٩٣ •

(٤) Grousset : Histoire des Croisades. T.I. pp. 284 -285

(٥) Ibid. pp. 285- -286

Miller : op. cit. pp. 191 -192

أما اليعاقبة ، فقد اعتنقوا المذهب المونوفيزيتى ، وهم من أصـــــل سريانى ، ولغتهم العربية ، ويمثلون العنصر الرئيســـــى بين الطوائف المسيحية الشرقية ببلاد الشام ، فيما عدا امارة الرها التى تسيطر عليها غالبية من الارمن ، وانطاكية التى تسود فيها غالبية من الروم (١) • وتمثل الكنيسة المونوفيزتية غالبية السكان المسيحيين ببلاد الشام ، فلها اساقفتها فى انطاكية وكفر طاب والرها وسروح وسميساط ومرعش • وللمونوفيزتيين أديرة فى طوروس ولهم اتباع عديدون فى الشام (٢) •

أما النساطرة ، فهم من المسيحيين الشرقيين ، ينتمون الى أصل سريانى مثل اليعاقبة المونوفيزتيين ، ولكنهم يرون أن الطبيعتين الالهية والبشرية، ظلتا منفصلتين فى يسوع المسيح • وهم أقل عددا فى الشام ، وتتواجـــد مراكزهم الرئيسية فى آشور والعراق ، وكان لهم فى بيت المقدس رئيس اساقفة ، يتبع مقر البطريرك (الكاثوليكوس Catholicos) الخاص بهم فى بغداد • وهم يعيشون فى طرابلس وعكا وبيروت وجبيل (٣) •

وعلى الرغم من أن المسيحيين الوطنيين ، لم يكونوا فى كل الاحوال ، معادين للقوى الصليبية بالشام ، بل احيانا كانوا يميلون الى الصليبيين ، بحكم النزعة الدينية • لكنهم اثاروا غيظ جيمس دى فيترى فى أوائل القرن الثالث عشر • ففى الوقت الذى ظهرت الدعوة للحملة الصليبية الخامسة فى الغرب الاوربى ، لم تكن الانباء فى الشام بالغة التشجيع ، ومن ثم قــرر البابا هونوريوس الثالث ارسال جيمس دى فيترى الى فلسطين ، ليتولى أسقفية عكا ، فضلا عن أثارة شعور اللاتين (٤) • وبمجرد أن وصل الى عكا فى نوفمبر عام ١٢١٦ م ، بدأ العمل ، فرفع الى البابا تقريرا مفصلا عن وضع الصليبيين فى الشام • وجاء فى ذلك التقرير أن المسيحيين الوطنيين يكرهون اللاتين ، ويؤثرون حكم المسلمين ؛ ومن ناحية اللغة فانهم يتحدثون

---

(١) Groussel : L'Empire du Levant, pp. 311—312

(٢) Cahen : op. cit. pp. 191—192

(٣) Grousset : op cit. p. 313

(٤) Grousset : Hist. des Croisades, T. III. p. 197

العربية ، ومن ناحية زيهم وطريقتهم فى الحياة ، لايختلفون فيها عن المسلمين الا قليلا ، لانهم تربوا وسط المسلمين واكتسبوا عاداتهم . وهم يصدقون من ينتقد الفرنجة وينحى عليهم باللائمة ، كما انهم استخدموا فى معظم الاحيان جواسيس على الفرنجة ، وانهم شعب غير محارب (١) ٠ ونستشف من تلك الصورة التى أعطاها لنا جيمس دى فيترى أن المسيحيين الوطنيين فى بادىء الامر ، استقبلوا الغزاة الصليبيين بالترحاب ، لاعتقادهم انهم بحكم اخوتهم فى الدين سيعيشون معهم فى مناخ افضل من معيشتهم مع المسلمين ٠ غير انه بانقضاء الوقت ، لمس المسيحيون الوطنيون الفرق بين الروح الصليبية والكراهية المذهبية ، ومن ثم تمنوا زوال حكم اللاتين فى الشام ٠

أما بالنسبة لليهود فى الارض المقدسة ، فقد عاشوا خلال العصور الوسطى فى كنف المسلمين ، الذين احسنوا دائما معاملتهم ، وسمحوا لهم بمزاولة شعائرهم الدينية فى معابدهم بحرية تامة ٠ وقد اختلف الامر بالنسبة للغرب الاوروبى ، لاسيما خلال الدعوة للحرب الصليبية ، فقد حرصت تلك الدعوة على تاكيد اهمية بيت المقدس ، وهو البلد الذى شهد صلب المسيح فى العقيدة المسيحية ٠ وبذلك توجهت هذه الدعوة ضد أولئك القوم ، الذين على ايديهم صلب المسيح ٠ ومن المسلم به لدى الغرب الأوروبى أن المسلمين كانوا هم العدو القائم بالبلاد ، لانهم يسيطرون على الأرض المقدسة ، ولكن اليهود كانوا اشد عداء ونكرا ، لانهم هم الذين اضطهدوا المسيح نفسه ٠ ومما زاد من كراهية غرب أوروبا لليهود خلال القرن الحادى عشر ، كثرة الفئات التى أخذت تقترض منهم الاموال ؛ فالفارس الصليبى يتكلف نفقات باهظة من أجل تجهيز نفسه للاشتراك فى الحملة الصليبية ٠ فاذا لم يتوافر له من الاملاك ما يرهنها ، فلا بد له أن يقترض المال بفائدة من اليهود ، فى الوقت الذى حرمت فيه الكنيسة الغربيه الربا (٢) ٠

---

(١) Ibid. pp. 197—198
Small : op. cit. p. 53

(٢) رنسيمان : المرجع السابق ، ص ١٩٦ ــ ص ١٩٧ ٠
Rappoport : Hist. de la Palestine. pp. 197 198

وبتلك الروح الصليبية المشبعة بكراهية اليهود ، جاء الصليبيون الى الشرق الادنى ، بغرض انتزاع بيت المقدس من المسلمين ٠ وما أن سقطت المدينة فى ايديهم عام ١٠٩٩ م ، حتى قاموا بمذابح ، متجاهلين دعوة السلام التى نادى بها المسيح ٠ ولم يسلم اليهود من تلك المذابح ، فبينما اندفعوا الى داخل معبدهم الكبير (الكنيس) ، لم تأخذ الصليبيون بهم رحمة ، فاشعلوا النار فى المعبد ، ولقوا مصرعهم محترقين (١) ٠

وقد أعطتنا رحلة بنيامين التطيلى (١١٦٠ ـ ١١٧٣ م) بعض المعلومات عن وضع اليهود فى الارض المقدسة ، خلال القرن الثانى عشر حينما زارها حوالى سنة ١١٧٠ م ٠ فقد حزن لضآلة عدد اليهود فى فلسطين ، ففى كل فلسطين لم يجد الا ١١٠٠ يهودى ، منهم ٢٠٠ فى بيت المقدس ، ٣٠٠ فى تبنين ، ٥٠ فى طبرية ، ١٢ فى بيت لحم ، ويهوديا واحدا فى يافا ٠ أما فى دمشق ، تلك المدينة التى لم يستطع الصليبيون الاستيلاء عليها ، والتى كانت خاضعة لنفوذ نور الدين محمود ، فقد وجد بها بنيامين التطيلى من اليهود عددا بلغ ثلاثة اضعاف العدد الموجود فى فلسطين كلها ، وعندما زار بيتاشيا راتزبون Petachia de Ratisbonne وهو معاصر لبنيامين التطيلى ـ الارض المقدسة (١١٧٥ ـ ١١٩٠ م) ، لم يجد الا يهوديا واحدا فى بيت المقدس (٢)٠

وفى الأراضى المقدسة عاش اليهود منعزلين فى أحياء خاصة بهـــم « جيتو » ghetto ، وهم من الناحية الطبقية فى وضع أقل من المسلمين (٣) ، لم يستطيعوا امتلاك الأرض ، واحتكروا صناعة الأصباغ وتجارتها ٠ ولهم القضاء الخاص بهم ، وهم ملزمون ـ مثلهم فى ذلك مثل المسلمين ـ بدفع ضريبة الرأس ، بواقع بيزنت واحد على كل رجل يزيد عمره عن خمسة عشر عاما (٤) ٠

ويعتبر عصر الحروب الصليبية ، عصرا مظلما بالنسبة ليهود الشام ، ولم يتحسن وضعهم الا عندما انتصر الهلال مرة أخرى على الصليب ؛ فعندما

---

(١) Ibid. Loc. cit.
(٢) Ibid. P. 208
(٣) Miller : Op. cit. p. 527
(٤) Richard : Le Royaume Latin. p. 125

استولى صلاح الدين على بيت المقدس عام ١١٨٧ م ، سمح لليهود بدخول المدينة ، كذلك فى عهد خلفاء صلاح الدين انتعشت احوال اليهود ، ووصلت لدرجة عالية من الازدهار . وفى تلك الفترة كانت الآلام التى تعرض لها اليهود فى الغرب الأوروبى جديرة بالاعتبار ، ووجد الكثير منهم الملاذ فى ممتلكات صلاح الدين . ويدل على ذلك ازدياد عدد اليهود الذين هاجروا من الغرب الاوروبى الى فلسطين ، ففى عام ١٢١١ م اتى حوالى ٣٠٠ حاخام يهودى من فرنسا وانجلترا ، ووصلوا الى الاراضى المقدسة ، حيث استقبلهم الملك العادل سيف الدين أبو بكر الايوبى ، شقيق صلاح الدين ، استقبالا وديا (١) .

أما السامريون ، فهم فرقة من اليهود ، انشقت بسبب خلافات مذهبية، وعقيدتهم هى عقيدة التوحيد اليهودية ، ولا يوجد ما يشير الى انها تأثرت بأية معتقدات وثنية ، وكتابهم المقدس اسفار موسى الخمسة (الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم) (٢) . والسامرة ينكرون نبوة من بعد موسى ما عدا هارون ويوشع عليهما السلام ، ويخالفون اليهود ايضا فى استقبال صخرة بيت المقدس ، ويستقبلون طور نابلس ، ويوجهون اليه موتاهم ، زاعمين أنه الذى كلم الله تعالى موسى عليه ؛ ويدعون أن الله تعالى أمر داود عليه السلام ــ وهم ينكرون نبوته ومن تلاه من الانبياء ــ ببناء بيت المقدس ، فخالف وبناه بالقدس (٣) .

والسامريون من الناحية العرقية ، هم بقية القبائل من آشور وفارس ، الذين نقلهم سرجون بحوالى سبعمائة سنة قبل الميلاد . وبرزوا فى حياة المسيح عليه السلام ، كما هو مصور فى موضوع « المرأة السامرية ». وقصة « السامرى الطيب » (٤) . وهم صنفان : صنف يقال لهم الدستان، وصنف يقال لهم الكوشان (٥) .

---

(١) Rappoport : op. cit. pp. 208—209

(٢) Ency. of Religion. pp. 164—165.

(٣) صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٠٣ ،

المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ١ ، ص ٥٩ .

(٤) Hitti : The origins of the Druze People. p. 1

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢١٦ .

ونابلس هى مدينة السامرة ، ولايوجدون فى اى مكان آخر سواها ،وبها الجبل الذى يحجون اليه (١) • وهم لايتزاوجون الا فيما بينهم ، لذلك فانهم ينقرضون بسرعة (٢) ، الذ يبلغ عدد الموجود منهم فى نابلس حاليا ١٥٠ سامرى فقط (٣) • وقد اقتبس السامريون من المسلمين ، وتأثر المسلمون بهم فى بعض العادات واللهجات ، وهم يتكلمون بالعربية النابلسية العامية ، وقليل منهم على معرفة باللغة العبرية ، غير أن لغتهم العبرية قديمة ، تختلف عن تلك التى يتكلم بها اليهود اختلافا بينا ، وان كانت اللغتان تنتميان الى أصل واحـــد (٤) •

---

(١) ابن الوردى : خريدة العجائب ، ص ٣٨ •
الاصطخرى : مسالك الممالك ، ص ٥٨ ،
صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ١٠٣ •

(٢) Hitti : op. cit. p. 1

(٣) Les Guides Bleus. p. 542

(٤) محمد كرد على : خطط الشام ، جـ ٦ ، ص ٢٢٢ •

الفصل الثالث

النشاط الاقتصادى

أولا ـ دور الحروب الصليبية .

ثانيا ـ النشاط التجارى للمدن الايطالية بالشام .

ثالثا ـ طرق التجارة البرية والبحرية المؤدية الى الشام .

رابعا ـ أهم المراكز التجارية .

خامسا ـ أهم السلع التى كانت محور النشاط التجارى .

سادسا ـ النظم والمعاملات التجارية .

النشـــاط الاقتصـــادى

يتصور الكثيرون أن الحركة الصليبية ليست الا سلسلة حروب متصلة الحلقات بين المسلمين والصليبيين ، دون أن يعرفوا جميعا لغة للتفاهم عـدا لغة السيوف والحراب • والحقيقة ان تلك الصورة لاتعبر الا عن وجه واحد فقط من أوجه تلك الحركة : اذ الثابت ان هذه الحركة مهما تعددت أغراضها وتباينت دوافعها ، كانت قبل كل شىء مجالا واسعا التقى فيه الشـــرق الاسلامى بالغرب المسيحى ، وان هذا اللقاء لم يكن حربيا فحسب ، بل كان أيضا لقاء حضاريا على أوسع نطاق (١) • ومع اعترافنا بوجود بواعث عديدة للحركة الصليبية ، فاننا نميل الى تاكيد اهمية العامل الاقتصادى بالذات فى تلك الحركة • فلم يكن الغزو الصليبى لبلاد الشام ، نابعا من الحماســة الدينية التى تستهدف انتزاع الاراضى المقدسة من ايدى المسلمين ، وانما كان جريا وراء تحقيق مكاسب اقتصادية فى الشرق العربى •

ومهما كان من امر تلك الحروب التى انتهت بسقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين عام ١٠٩٩ م ، وتأسيس أربع امارات صليبية بالشام ، وهى بيت المقدس وانطاكية وطرابلس والرها ، فان الذى يعنينا ـ بوجه خاص ـ هو اثر تلك الحروب فى النشاط التجارى ، منذ ان وطئت أقدام الصليبيين بلاد الشام ، الى أن تم طردهم أواخر القرن الثالث عشر •

أولا ـ دور الحروب الصليبية فى تجارة الشام :

فى حقيقة الامر ، لم يكن للامارة الصليبية فى بيت المقدس عند قيامها سوى منفذ واحد على البحر ، هو ميناء يافا • ولما كانت هذه الامارة محاطة باعداء من الداخل ، فقد صار لزاما على جود فرى بوايون (ت ١١٠٠ م) أن يقوى الصلة بين بيت المقدس والعالم الخارجى وخاصة الغرب الاوروبى عن طريق البحر ، ولذلك أخذ يفكر فى الاستيلاء على أرسوف شمالى يافا ، وكان ان ضيق الخناق عليها بمساعدة اسطول بيزا ، مما دعا الاهالى فى أواخـر

---

(١) سعيد عاشور : أضواء على الحروب الصيبية ، ص ٨١ •

مارس عام ١١٠٠ م باعلان الخضوع لجودفرى ، ودفع جزية سنوية • وفى ذلك الوقت دأب الصليبيون على تحصين يافا ، حتى اضحت مركزا لنشاط تجارى ، فقصدتها السفن التجارية لاحضار الحجاج من ناحية ، وامداد بيت المقدس بما احتاجت اليه من امدادات من ناحية أخرى (١) • واتخذ الصليبيون من يافا مركزا لشن اغارات مستمرة على ممتلكات الفاطميين الساحلية ، ونظرا لعجز الدولة الفاطمية عن حماية ممتلكاتها ،فقد دب اليأس فى قلوب أهـــل المدن الاسلامية ، الامر الذى أدى بحكام عسقلان وقيسارية وعكا باعـــلان تبعيتهم لدولة الفرنجة • وأسرع الكثير من مشايخ العرب فى الجهات الداخلية الى عقد اتفاقيات ودية مع حكومة بيت المقدس ، ليضمنوا سلامة قوافلهم ومتاجرهم (٢) • اذ درجوا من قبل على أن يرسلوا الفائض من محاصيلهم الى المدن الساحلية ، ولكن الامارات الصليبية أضحت تعترض طريقهم ، لذلك طلبوا من جودفرى ان يسمح لهم بمرور قوافلهم عبر أراضيه ، فسمح لهم ، بيد انه فى نفس الوقت بذل قصارى جهده كيما يحول أكبر قدر من التجارة الى ميناء يافا (٣) • وفى الوقت ذاته حرض الصليبيون القـوى الايطالية ـ أصحاب التفوق البحرى فى البحر المتوسط ـ على أن يقطعوا طريق التجارة بين موانىء فلسطين الاسلامية ومصر ، وترتب على ذلك اضعاف تلك الموانى ثم سقوطها فى النهاية فى أيدى الصليبيين • وهكذا تركز النشاط التجارى فى فلسطين فى أيدى الصليبيين (٤) •

وبعد وفاة جودفرى عام ١١٠٠ م ، ارتأى بلدوين الاول (١١٠٠ ـ ١١١٨م) ضرورة حماية مملكة بيت المقدس من ناحية الجنوب الشرقى ، وذلك عن طريق السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبى البحر الميت حتى خليج العقبة ، وهى المنطقة المعروفة باسم وادى عربة (٥) • ومن الواضح أن تحقيق ذلك المشروع يؤدى الى قطع الطريق البرى وتهديد القوافل التجارية بين مصر والشام والعراق

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٦٣ ـ ص ٢٦٤
(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٣ ـ ص ٢٦٤
(٣) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٣٧ •
(٤) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٤ ـ ص ٢٦٥ •
(٥) سعيد عاشور : شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، ص ٣٥ •

والحجاز . وبالفعل تمت السيطرة لبلدوين على وادى عربة ، ثم شيد عام ١١١٥م حصن الشوبك ليمكن مهاجمة القوافل التجارية المتجهة من مصر الى فلسطين ، وليحقق نفوذا للفرنجة على وادى عربة (١) . ثم استولى فى العام التالى سنة ١١١٦ م على ميناء أيلة (٢) على ساحل خليج العقبة ، وبنى فى ايلة قلعة للتحكم فى الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام ، كما شيد قلعة اخرى فى جزيرة فرعون ــ عرفها الفرنج باسم Le Graye ــ الواقعة قبالة ايلة فى خليج العقبة ، وبذلك تمكن الصليبيون من الاشراف على شبه جزيرة سيناء الواسعة (٣) .

وحتى يتمكن بلدوين الأول من توطيد نفوذه على الساحل الفلسطينى ، قام بفرض الحصار على عكا ، عقب عيد القيامة عام ١١٠٣ م ، وعكا من الموانىء الساحلية الهامة (٤) . وشهدت السنة التالية ١١٠٤ م سقوط عكا بعد ان ضاق الحصار البرى والبحرى عليها ، وساهمت الاساطيل الجنوية فى الاستيلاء عليها ، وللمرة الاولى توفرت أسباب الامن للقادمين الى الشام من ناحية البحر، وتوقفت هجمات المسلمين (٥) .

وفى عام ١١٢٠ م خطا بلدوين الثانى (١١١٨ ــ ١١٣٠ م) خطوة عظيمة بالنسبة لتجارة مملكة بيت المقدس ، محتذيا حذو بلدوين الاول فى السياسة الاقتصادية ، فقد أصدر بلدوين فى ذلك العام قانونا منح فيه جميع اللاتين ــ سواء المقيمين أو الحجاج أو المتنقلين ــ اعفاءات تجارية ضخمة ، منها

---

(١) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٥ ــ ص ٣٦ .

(٢) يقع ميناء ايلة فى الركن الشمالى الشرقى لخليج العقبة ، وكان لها شان عظيم فى التاريخ القديم وفى العصور الوسطى ، لان موقعها فى اقصى خليج العقبة جعلها ملتقى تجارة القوافل التى كانت تتجه من الموانىء الفلسطينية الى جنوب بلاد العرب ، وكان ميناء ايلة تابعا للشام ويعتبر ميناء فلسطين . (دائرة المعارف الاسلامية مادة ايلة) .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٢٧ ــ ص ٣٢٨ .

(٤) William of Tyre : Hist. of Deeds Done Beyond the Sea. Ibid : pp. 570—541.

(٥) Ibid. pp. 455—456

الاعفاء التام من الرسوم الجمركية لكل بضاعة ترد الى المملكة أو تصدر منها (١)٠ وفى نفس الوقت أجاز بلدوين الثانى للمسيحيين الشرقيين : السريان ، والروم، والأرمن ، بالاضافة الى العرب ، أجاز لهم حرية الدخول لبيت المقدس لتصريف محاصيلهم دون دفع أية رسوم ٠ والواقع أن الغاء الرسوم الجمركية والمحلية التى قيدت النشاط التجارى وأعاقته فى العاصمة ، يدل على ذكاء ملك بيت المقدس ، ليس فى الجانب الاقتصادى فحسب ، ولكن أيضا فى الجانب السياسى، وقد كان لهذا الاجراء نتائج بعيدة المدى ، اذ أدى الى المساهمة فى الازدهار الاقتصادى لملكة بيت المقدس ، وحافظ على الدور الهام الذى لعبته المملكة فى النشاط التجارى ، خاصة فى القرن الثالث عشر (٢) ٠

وقد استأنف ملوك بيت المقدس تلك السياسة الناجحة ، فوضع فولك (١١٣٠ ــ ١١٤٣ م) فى الاعتبار ، ضرورة تأمين مواقع الصليبيين شرقى البحر الميت ، من أجل احكام السيطرة على طرق القوافل بين مصر والشام وشبه الجزيرة العربية ، لذلك وافق على تشييد حصن شرقى البحر الميت عام ١١٤٢ م على تل فى صحراء البتراء Petra Deserti اشتهر باسم حصن الكرك ، وكان لموقعه من الاهمية ما هيأ له السيطرة على الطرق الوحيدة السالكة ، الممتدة من مصر وغربى بلاد العرب الى الشام ، فضلا عن أنه لم يكن شديد البعد عن مخاضات نهر الاردن الأدنى (٣) ٠ وبهذه الوسيلة اشتدت قبضة الصليبيين على طريق القوافل التجارية ، خاصة بعد أن اضحى أرناط سيدا لحصن الكرك ٠ فقد دأب على مهاجمة القوافل المتجهة من دمشق الى القاهرة، وطريق الحجاج الى مكة المكرمة ٠ وبذل صلاح الدين الايوبى محاولات عدة من أجل الاستيلاء على حصنى الشوبك والكرك ، منها محاولة عام ١١٧٣ م التى فرض فيها الحصار على الكرك ، ولكنه سرعان ما رفع الحصار ، وقفل راجعا الى مصر (٤) ٠

---

(١) Grousset : Hist. des Croisades. T. I. p. 540

(٢) Ibid : pp. 540-541.

(٣) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٧٠ ــ ص ٣٧١ ٠

(٤) Schlumberger : Campagnes du Roi Amaury Ier p. 305

أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٥ ــ ص ٥٦ ٠

وعلى الرغم من المعاهدات التى أبرمت بين صلاح الدين والصليبيين ، للسماح بمرور القوافل التجارية الآتية من مصر الى الشام ، الا أن ارناط كثيرا ما نقض تلك الاتفاقيات بقطع الطريق على القوافل التجارية ؛ ولم يبال بالسمعة السيئة التى لصقت به كناقض للمعاهدات ، فمن دواعى سرورة الاستيلاء على قوافل التجار والحجاج فى طريقهما من الشام الى مصر ومكة (١)٠ ففى عام ٥٨٢ هـ انتهز فرصة مرور قافلة ضخمة متجهة من مصر الى الشام ، « وفيها خلق عظيم ، ومال كثير فاستولى على الجميع قتلا واسرا ونهبا » (٢)٠

وفى تلك الاثناء ، كان أرناط قد خرج بمشروع صليبى فى البحر الاحمر الغرض منه تدمير مكة والمدينة من ناحية ، والسيطرة على تجارة ذلك البحر من ناحية اخرى (٣) ٠ وبدأ ارناط تنفيذ مشروعة بالاستيلاء على أيلة عام ١١٨٢ م ، ذلك المركز الهام الذى استرده صلاح الدين عام ١١٧٠ م ، والذى كان بوسعه تهديد الشوبك والأراضى الصليبية فى وادى عربة . ولما كان من المتعذر على الصليبيين الاحتفاظ بأيلة دون السيطرة على جزيرة فرعون المواجهة لها فى خليج العقبة ، فقد شرع ارناط فى بناء عدة سفن حملت اجزاؤها مفككة على ظهور الجمال ، حتى خليج العقبة حيث فككت (٤) ٠

ولم يكد يتم تركيب السفن الصليبية ، حتى استولى بعضها على جزيرة القلعة (جزيرة فرعون) ، واخذ البعض الآخر يقوم بالاغارة على الموانىء المصرية الصغيرة على البحر الاحمر ؛ ومن الموانىء التى أغار عليها أرناط ميناء عيذاب المواجه لميناء جدة (٥) ٠ وهكذا تنبه الصليبيين الى المكانة التى احتلتها تجارة البحر الاحمر ، فحاولوا تحطيمها (٦) ، لكن صلاح الدين الأيوبى

---

(١) Lane — Poole : Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem.

(٢) ابن أيبك الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ ٧ ص ٥٠ ـ ص ٥١ ٠
سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٨٩ ٠

(٣) أبى الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ٦٥ ٠

(٤) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ١٦٦ ـ ص ١٦٧ ٠

(٥) ابن أيبك الدوادارى : المرجع السابق ، جـ ٧ ، ص ٧١ ٠

(٦) محمود الحويرى : أسوان فى العصور الوسطى ، ص ١٠٥ ٠

أسرع باصدار تعليمات عاجلة الى أخيه العادل ، فاعد الاخير اسطولا قويا اسند قيادته لحسام الدين لؤلؤ ، الذى استطاع احباط تلك المحـــاولة الصليبية (١) • وعلى الرغم من فشل محاولة ارناط ، فقد عاد الى قلعته الكرك ، واقام فيها ، « كالذئب المجروح يلعق جراحه » ، ولم تتغير طبيعته، فعاد الى الهجوم على القوافل التجارية التى تمر بجوار قلعته (٢) •

على أن ما قام به ارناط الصليبى لايؤخذ حكمـــا عاما على جميـــع الصليبيين فى القرن الثانى عشر • فالواقع أن المدن ببلاد الشام قد ازدهرت، وتمتعت بنشاط كبير فى المجال الاقتصادى (٣) • ويشهد على ذلك الرحالة ابن جبير (٤) الذى قال : ومن أعجب ما يحدث به فى الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين • كذلك يقول ابن جبير : « ومن أعجب ما يحدث أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى (فرنجة) ، وربما يلتقى الجمعان ، ويقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم • واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكا كذلك • وتجار النصارى أيضا لايمنع أحد منهم ولا يعترض • وللنصارى على المسلمين جزية يؤدونها فى بلادهم • وتجار النصارى أيضا يؤدون فى بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال فى جميع الاحوال • واهل الحرب مشتغلون بحروبهم ، والناس فى عافية .والدنيا لمن غلب (٥) » • وقصة التاجرين الثريين من دمشق ، وهما نصر بن قوام، وأبى الدر ياقوت العطاف خير دليل على ذلك ايضا ، فتجارتهما كلها بهذا الساحل الافرنجى ، ولا ذكر فيه لسواهما •• فالقوافل صـــــادرة وواردة ببضائعهما ، وشأنهما فى الغنى كبير ، وقدرهما عند امراء المســـلمين

(١) ابن بهادر : فتوح النصر ، جـ ١ ، ورقة ٢١ ــ ورقة ٢٢ ،
سبط بن الجوزى : مراة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٦٩ •

(٢) Harold Lamb : The Crusades. p. 61

(٣) Ziadeh : Urban Life in Syria. p. 61

(٤) الرحلة ، ص ٢٧١ •

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٦٠ ــ ص ٢٦١ •

والافرنجيين خطير (١) » . والواقع أن النشاط التجارى سار جنبا الى جنب مع التوسع الحربى . وكانت التجارة تمر خلال الصفوف العسكرية بمقتضى اتفاق متبادل ، وحرص الجانبان الاسلامى والصليبى على ضمانة الأمن للتجارة المتبادلة بينهما . ففى صلح الرملة الذى عقد بين صلاح الدين الايوبى وريتشارد قلب الاسد فى ٢ سبتمبر عام ١١٩٢ م ، اضحى للمسلمين والصليبيين الحق فى أن يجتاز كل فريق منهم بلاد الآخر « ورحل جماعة من المسلمين الى يافا للتجارة (٢) » .

وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبى فى مارس ١١٩٣ م (صفر ٥٨٩ هـ)، شهدت بلاد الشام فترة هدوء نسبى ، ولم ينزع المسلمون للاعتداء ، لما جنوه من أرباح نتيجة ازدياد النشاط التجارى . والمتتبع لاتفاقيات الهدنة (٣) التى عقدت بين أبناء صلاح الدين والصليبيين ، يستشف منها حرص الفريقين على الرخاء المادى وترف الحياة . والثابت أن الصليبيين فى بلاد الشام فى القرن الثالث عشر ، لم يكن لهم الرغبة فى قدوم حملات صليبية جديدة ، فقد غلبت عليهم الصفة الشرقية ، وانصاعوا الى حياة الخمول والبذخ ، وأبدوا الرغبة فى التعايش السلمى مع المسلمين ، مما كان له أبعد الأثر فى ازدهار التجارة . وبمعنى آخر يمكن القول أن « الروح الصليبية» فى منتصف القرن الثالث عشر ، حلت محلها « الروح أو النشاط الاقتصادى (٤) » .

ومن الجدير بالذكر ، أنه على الرغم من سيطرة الفرنجة على بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، لم يكن لهم فى التجارة الداخلية الا نصيب ضئيل . اذ ان المتاجر جلبها من الداخل الى الساحل تجار مسلمون

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٨١ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ١١٠ .

Thompson : Econ. and Soc. History. Vol. I p. 380.

(٣) ابن واصل مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب ، ج ٢ صفحات ٧٨ ، ١٤٥ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، واماكن اخرى متفرقة .

(٤) Richard : Le Royaume Latin. p. 274

أو مسيحيون وطنيون ، وفى شمال الشام نقلها الى الساحل من انطاكية ايضا تجار نورمان وارمن (١) .

واستطاعت دولة المماليك أن تشعر العالم الاسلامى بأهميتها فى الشرق الادنى ، فقد حرصت على رفع راية الجهاد ضد البقايا الصليبية بالشـــام من ناحية . والمغول من ناحية أخرى . وجاءت بداية هدم الكيان الصليبى بالشام على يد السلطان الظاهر بيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧ م) ، الذى رجحت كفته على كفة الصليبيين بالشام ، مما أدى بفرنجة الساحل فى يافا وبيروت عام ١٢٦٠ م (٦٥٩ هـ) الى طلب تجديد الهدنة التى كانت مقررة فى الأيام الناصرية أى فى صلح الرملة عام ١١٩٢ م . فوافقهم على ذلك ، فأمنت الطرق على التجار ، وبالاضافة الى ذلك ، كتب الى أمرائه بحفظ البلاد حتى حدود العراق (٢) . كما حرصت مملكة بيت المقدس الصليبية فى عكا ومقدمو منظمتى الاسبتارية والداوية ، على عقد هدنة مع السلطان المنصور سيف الدين قلاوون عام ١٢٨٣ م (٦٨٢ هـ) ، لمدة عشر سنين وعشر أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، لحماية جميـــع التجار فى عكا وصـــيدا وعثليث (٣) . والى المماليك يرجع الفضل فى أن تجارة الشام الداخلية ، أضحت كلها فى أيدى المسلمين ، لا سيما بعد الاستيلاء على عكا عام ١٢٩١ م (٦٨٩ هـ) ، آخـر المعاقل الصليبية بالشام . وقد ذكر المؤرخون أن السبب المباشر لفتـــح عكا على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ، هو ثورة جماعة من الفرنجة بعكا ، فقتلوا جماعة من تجار المسلمين ، كانوا قد قدموا للتجارة ، وخوفا من غضبة السلطان المملوكى ، زعم سكان عكا من الفرنجة « أن ذلك انما فعلـــه الفرنج الغرب (الوافدين الجدد) ، فكان ذلك من أكبر الأسباب التى أوجبته فتح عكا (٤) .

---

(١) Heyd. Histoire de Commerce., Vol. I pp. 393—400

(٢) ابن بهادر : فتوح النصر ، جـ ١ ورقة ١٠٢ .

(٣) ابن الفـرات : تاريخه ، المجلد السابع ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٤ .
المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٩٨٥ ـ ص ٩٩٣ .

(٤) ابن الفـرات : تاريخه ، المجلد الثامن ، ص ٩٣ .
أبو المحاسن : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، حوادث عام ٦٩٠ هـ .

ثانيا ـ النشاط التجارى للمدن الايطالية بالشام :

عاش الغرب الاوروبى حتى القرن الحادى عشر على النشاط الزراعى ،ثم كان أن ظهرت فى ذلك القرن حالة من السلام والاستقرار . مكنت التجار من مباشرة نشاطهم ، وبالتالى ساعدت على ازدهار المدن (١) • وقد ظل النشاط التجارى قائما بين المدن الايطالية من ناحية ، واراضى الدولة البيزنطية من ناحية أخرى ؛ ويمكن القول أن ذلك النشاط انحط الى اسفل درجاته فى القرن العاشر الميلادى ، وظل على ذلك حتى بدأت الحروب الصليبية فى نهاية القرن الحادى عشر ، لتعمل على تحطيم نظام الضياع ، وتشجيع التجارة بوجه خاص ، فظهرت امالفى وجنوه وبيزا ومرسيليا وناربون وبرشلونه ، لتنافس البندقية فى ذلك النشاط (٢) • والثابت أن تجار ايطاليا ، كانوا فى نهاية القرن العاشر ، قد استفادوا من جماعة الامبراطورية البيزنطية لهم ، فاسسوا علاقات تجارية مع مصر والشام (٢) • وفى اواخر القرن الحادى عشر ، تحررت تجارة الغرب الأوروبى من النظام الاقطاعى فى أوروبا ، بارتباطها بظروف أفضل ، فالدعوة الى الحروب الصليبية ، التى قامت بها الكنيسة ، انتزعت الغرب من عزلته القديمة ، ووجدت التجارة فرصتها فى مواكبة الحملات الصليبية من ناحية ، ومرافقة الحجاج الى الارض المقدسة من ناحية أخرى (٤) •

وقبل تحرك الحملة الصليبية الاولى الى هدفها ببلاد الشام ، ظلت المدن الايطالية شديدة الحذر ، وبالغة الميل الى التمهل فى بذل ما وعدت به من مساعدة ، لعدم ثقتها فى نجاح الحملة الصليبية الاولى • ولكن المدن الايطالية لم تغير رأيها الا بعد أن أدركت أن الحرب الصليبية الاولى ، تبشر بالنجاح واحراز النصر ، لاسيما بعد الاستيلاء على مدينتى نيقية وانطاكية • فبادرت المدن التجارية الايطالية الثلاث : بيزا والبندقية وجنوه بارسال أساطيلها الى الشرق الأدنى لمساعدة الصليبيين ، مقابل امتيازات فى كل

---

(١) Thompson : op. cit. Vol. I p. 380

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٩٦ •

(٢) Thompson : op. cit. Vol. I p. 380

(٤) Boissonade : Life and Work in Medieval Europe. p. 160

مدينة أسهمت تلك المدن فى الاستيلاء عليها · ورحب الصليبيون بتدخل المدن الايطالية لافتقارهم الى القوة البحرية ، التى لولاها ما استطاعوا اخضاع المدن الساحلية بالشام من جهة ، أو الاتصال بالغرب الاوروبى من جهة أخرى (١) ·

ففى عام ١٠٩٧ م أبحر اسطول جنوى الى انطاكية ، حاملا معه المؤن والامدادات العسكرية ، وبعد ذلك بسنتين ارسلت بيزا سفنا بأوامر من البابا من أجل المساعدة فى انتزاع بيت المقدس من المسلمين · ومنذ ذلك الوقت فتح البحر المتوسط كل منافذه أمام التجارة الغربية ، وبالأحرى أعيد فتحه القوى البحرية الغربية مثلما كان الحال أيام الرومان (٢) · وعلى الرغم من ان النتائج التى استهدفت الحركة الصليبية تحقيقها ، كانت سريعة الزوال، اذ استطاع المسلمون استعادة اراضيهم ، وطرد البقايا الصليبية ، فمن الملاحظ ان البحر المتوسط ظل فى أيدى دول الغرب الأوروبى ، فهى التى أضحت مسيطرة عليه ، وعلى نشاطه التجارى دون منازع (٣) ·

وكما رأينا من قبل ، أن استيلاء الفرنجة على بيت المقدس عطل طرق التجارة البرية من بلاد الشام الى مصر وغرب شبه الجزيرة العربية وبالعكس، فقد رأى الصليبيون لزاما عليهم السيطرة على المنافذ البحرية للساحل الشامى لا سيما فلسطين ، ولم يكن فى استطاعتهم ذلك الا بمساندة الاساطيل الايطالية · لهذا نلاحظ أنه بمجرد ان رسا اسطول جنوى ضخم بميناء يافا فى يونيه عام ١١٠٠ م ، أسرع جودفرى باستتالة ، ودارت المفاوضات بينه وبين البنادقة ، وانتهت الى موافقة البنادقة على بذل المساعدة للصليبيين، وفى نظير ذلك يكون لهم الحق فى حرية التجارة وانشاء كنيسة وسوق ، فضلا عن ثلث الغنائم فى كل بلد يساهمون فى الاستيلاء عليه (٤) · وبعد وفاة جودفرى اتفق بلدوين الاول عام ١١٠١ م مع الجنويين الذين يمتلكون اسطولا اكبر من اسطول منافسيهم البيازنة ، اتفق معهم على أن يخدموه مدة فصل

---

(١) Heyd : op. cit. Vol. I pp. 131—135
(٢) Pirenne : Med. Cities. p. 92
(٣) Ibid. pp. 92—93
(٤) Recueil des Historiens des Croisades. occ. Vol. I. pp. 272—273

من السنة . ويتقاضوا مقابل ذلك ثلث كل مايتم الاستيلاء عليه من غنائم،وان يكون لهم شارع فى حى السوق بكل مدينة يتم فتحها . ولم يكد الاتفاق يتم، حتى تحركوا لمهاجمة ارسوف ، فهاجمها بلدوين من جهة البر ، والجنويون من جهة البحر . ولم تلبث ان انهارت ارسوف ، ووضع بلدوين يده عليها (١)٠ وفى مايو سنة ١١٠٣ م (٤٩٧ هـ) فرض بلدوين الحصار على ميناء عكا ، بمساعدة اسطول جنوى ضخم ، اتفق مع قادته على ان يعطيهم ثلث الغنيمة وامتيازات تجارية . وتمكن بعد عشرين يوما من الحصار الاستيلاء على عكا (٢) . وعلى الرغم من ان ميناء عكا يبعد عن العاصمة بحوالى مائة ميل ، الا انه كان ميناء صالحا لرسو السفن فى كل الفصول . واضحى الميناء الرئيسى للمملكة ، بدلا من يافا ، وجرى فيه شحن ما يرد من دمشق من السلع الى الغرب . ولم تتوقف الحركة التجارية فى عكا بعد سقوطها فى ايدى الفرنج (٣)٠ واستطاع البيازنة الحصول على امتيازات تجارية نظير مساعدة تانكرد الوصى على انطاكية ، فى انتزاع اللاذقية من البيزنطيين . وتشمل هذه الامتيازات ان يجعل لهم تانكرد حيا فى كل من مدينتى اللاذقية وانطاكية، فضلا عن اطلاق حرية التجارة ، والاعفاء من المكوس فى كل البلاد التابعة له، وقد اوفى تانكرد بعهده بعد سقوط اللاذقية عام ١١٠٨ م (٤) . ولم يتمكن الفرنجة الاستيلاء على طرابلس فى شمال الشام عام ١١٠٩ م (٥٠٢ هـ)، الا بمساندة الاسطول الجنوى ، وكافأ برتراند صاحب طرابلس ، بان صار للجنوية حى فى طرابلس وحصن الكند سطبل Castrum Stabulari ، الذى يقع على بعد عشرة اميال الى الجنوب من طرابلس ، بين انفه والبترون ؛ وفضلا عن ذلك منحهم ثلثى مدينة جبيل ، ومن قبل اعطاهم ريموند الصنجيل ثلث تلك المدينة عام ١١٠٤ م ، عندما ساهموا فى اسقاطها ، وبذلك صارت

---

(١) Recueil des Historiens des Croisades. occ. Vol. IV pp. 452 453

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٣ ـ ص ١٤٤ .

Iorga : Brève Histoire des Croisades. pp. 129- 130

(٣) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

(٤) Heyd : op. cit. Vol. I pp. 145 146

جبيل مستعمرة جنوية (١) · وتابع الصليبيون استيلائهم على المدن الساحلية ذات الطابع التجارى الهام · فبادر بلدوين بفرض الحصار على مدينة صيدا فى اكتوبر عام ١١١٠ م ، وبفضل مساعدة الاسطولين البندقى والجنوى ، جرى الاستيلاء على المدينة فى ديسمبر عام ١١١٠ م ، وحصل البنادقة مقابل ما ادوه من خدمات على امتيازات ، بان جعل لهم كنيسة وبعض الممتلكات فى صيدا (٢) ·

ولم يتبق للصليبيين من المدن الساحلية سوى عسقلان وصور ، فالتمس بلدوين المساعدة من البنادقة · وفى آخر مايو عام ١١٢٣ م ، وصل اسطول للبنادقة يتالف من مائة سفينة حربية ، وبعد أن دارت المفاوضات قرر الصليبيون أن ينازلوا صور أولا ، لأن ميناءها يعتبر خير الموانى الواقعة على امتداد الساحل ، بالاضافة الى انه يفوق عسقلان فى الاهمية التجارية كما انه كان الميناء الذى ترد اليه حاصلات دمشق · على أن شروط البنادقة لتقديم مساعدتهم استهدفت الحصول على امتيازات تجارية مبالغ فيها هذه المرة ، فاصروا على ان يكون لهم فى كل مدينة بالمملكة شارع وكنيسة وحمامات وفرن ، ويصبح لهم الحرية فى استخدام موازينهم ومكاييلهم فى اعمالهم التجارية لابين انفسهم فحسب ، بل مع سائر الذين يتعاملون معهم ، وينبغى ايضا اعفاؤهم من كل الضرائب فى سائر انحاء المملكة ، وتقرر أيضا أن يصير لهم ثلث كل من مدينتى صور وعسقلان متى ساهموا فى الاستيلاء عليها · وفى نظير ذلك وافق البنادقة على دفع ثلث ما يتقاضونه من الحجاج من الاجور للخزانة الملكية (٢) · وفى يوليو عام ١١٢٤ م ، سقطت مدينة صور ، بعد أن ضيق عليها الحصار من البر والبحر ، وأقلع البنادقة راجعين بعد أن حصلوا على ما ارادوا من امتيازات · وبسقوط صور تم وضع الأساس المتين لتجارة البندقية فى الشرق ·

---

(١) ابن القلانسى : المرجع السابق ، ص ١٦٣ ــ ص ١٦٤ ·
Grousset : op. cit. Vol. I pp. 359--360.
(٢) Heyd : op. cit. Vol. I p. 148
(٣) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ص ٢٦٥ ــ ص ٢٦٨ ·
سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٥١٨ ــ ص ٥٢٢ ·
C. Med. H. Vol. I pp. 411–413

وهكذا ربطت مملكة المقدس نفسها بالبحر ربطا متينا ، وباتت تتصل بالغرب الاوربى عن طريق البحر ، وبواسطته استطاعت الحصول على ما تحتاج اليه من امدادات بشرية ومادية . وقد قامت المدن الايطالية الثلاث البندقية وجنوه وبيزا ، بدور فعال ، فى ربط الشام الصليبية بالغرب الاوروبى ، واذاكانت تلك المدن قد بذلت المساعدة للصليبيين ، فانها لم تفعل ذلك بسبب وازع دينى ، وانما حصلت نظير ذلك ــ كما رأينا ــ على امتيازات تجارية هامة .

وفى الوقت الذى استطاع فرنجة الشرق السيطرة على الجزء الشرقى من البحر المتوسط ، كان التجار الايطاليون هم اصحاب السيادة فى نقل المحاصيل الشرقية بين موانىء الشرق وموانىء الغرب (١) . والثابت أن الحركة الصليبية ــ بعد نجاحها ــ استطاعت أن تحول البخحر المتوسط الى بحيرة لاتينية،وعلى هذا اطلقت الجمهوريات الايطالية ومدن بروفنس وقطالونياالعنان للمنافسات فيما بينهما (٢) . ومن المحتمل أن مرسيليا كانت المدينة الوحيدة من بين مدن جنوب فرنسا ، التى استطاعت أن تنافس المدن الايطالية ، وأن تحول جزءا من تجارة الصليبيين المبكرة الى مينائها (٣) . ففضلا عن الدور الذى لعبته مرسيليا خلال الحروب الصليبية ، هناك العديد من الادلة التى تثبت نجاح مرسيليا فى الشام . اذ فى عام ١١١٧ م حصل تجار مرسيليا على امتياز بان يكون لهم «حى» فى بيت المقدس لايشاركهم فيه غيرهم ؛ وفى عام ١١٥٢ ممنح الملك بلدوين الثالث امتيازا لاهالى مرسيليا ، باقامة مصانع لهم فى كل موانىء فلسطين ، وتأسيس حى لهم فى صور ؛ وبعد ان استرد المسلمون مدينة بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبى ، جدد جاى لوزيجنان حقوق الامتيازات لمرسيليا ، بأن اعفى سفنها الكبيرة والصغيرة من كل رسوم الموانىء ، وصار لهم محكمتهم الخاصة بهم فى عكا (٤) .

---

(١) Carl Stephenson : Med. History. p. 580
(٢) Boissonade : op. cit. p. 174
(٣) Thompson : op. cit. Vol. I p. 401
(٤) Thompson : op. cit. pp. 401—402

والامتيازات التى حصلت عليها المدن الايطالية كانت سخية ، معفاة تماما من اية أعباء ، غير ملتزمة بالنظم الاقطاعية للفرنجة ببلاد الشام ؛ وقد تضمنت هذه الامتيازات منحة « الحى » Quarter الذى كان يشكل مقاطعة أو جزءا من الحكومة الأم فى الارض المقدسة ، مستقلة عن السلطة الشرعية الملكية (١) • وكان لكل مجموعة من التجار تنتمى الى مدينة ايطالية ما ، وكيل خاص بها Bailiff لرعاية مصالحها التجارية ، وكان لتلك المجموعات أيضا موازينها ومقاييسها الخاصة المتداولة فى الوطن الأم (٢) •

ومما لا شك فيه أن المستعمرات التجارية الايطالية ببلاد الشام ، كانت تدين بالولاء والاخلاص لحكوماتها الوطنية ، لاتثق فى مملكـــة بيت المقدس الاقطاعية ؛ وطالبت تلك المستعمرات مملكة بيت المقدس باستقلالها التام ، فحصلت عليه ، لأن الصليبيين كانوا لا يستطيعون الاستغناء عن أساطيلهم، ومن ثم منحوهم أعفاءات • وهكذا أنشئت الفنادق Fandachi أو الأحياء الأجنبية المستقلة فى موانى الشام ، وكلمة فنداكو Fondaco مشتقة من الكلمـة اليونانيـة باندوخيـون Pandocheion وهى التى تعنى مركز أو محطة تجارية ، ثم حرفها العرب بعد ذلك الى فندق Funduk والايطاليون الى فنداكو Fondaco (٣)

والفندق فى المقام الأول مجتمع متحد للتجارة ، يحتفظ فى البلاد الأجنبية بالعادات الاجتماعية والنشاطات التى يزاولها فى الوطن الام ، أى يجعـــل الفرد يشعر أنه يعيش فى بلده الاصلى ؛ وفى داخل السياج المسور ، وهو غالبا مساحة كبيرة ، وجد دائما : كنيسة ، وشارع ، ومكان للسوق ، وميدان، وحمامات ، ومخابز ، ومصانع للجعة ، ومنزل للوكيل التجارى ، ومستودعات ضخمة لتخزين البضائع ؛ وقد شغل الفندق ـ أو المؤسسة ـ عادة مساحة تبلغ الربع الكامل لمدينة أو ضاحية منها (٤) • وقد عاش التجار فى تلك الفنادق

(١) Loc. cit.
(٢) Loc. cit.
(٣) Thompson : op. cit. Vol. I p. 402
(٤) Loc.cit. and Day : A History of Commerce. P. 87

وفقا لقوانينهم الخاصة ، وهو امتياز حرصوا دائما ان تحتوى عليه براءة الامتياز ، وفى بعض الأحيان كان يضاف شرط هام ، يقضى بأنه اذا جرى قيام دعوى قضائية بين مواطن واجنبى ، فان القضية ينبغى ان تعرض أمام محكمة اجنبية تحكم طبقا للقانون الذى يتبعه الأجنبى (١) • ويمثل هذه الحقوق التى حصل عليها التجار الايطاليون كان من السهل عليهم ان يحتكروا تجارة الشرق • ومن الجدير بالذكر أن المستعمرات الايطالية ببلاد الشام كانت فى ايدى موظفين من أعظم العائلات الايطالية ، يعينون من قبل حكومة الوطن ، وقد اطلق على الجنوية والبيازنة اسم القناصل Consoli وسمى البنادقة منهم باسم النواب (الوكلاء) Baili (٢) •

والثلاثة الكبار - البندقية وجنوه وبيزا - احتل كل منهم مكانة اختلفت عن الاخرى فى موانىء الشام وفلسطين ، بمعنى ان البندقية تركز نشاطها التجارى - بشكل أعظم - فى البحر الايجى ، والقسطنطينية ، وموانىء آسيا الصغرى من الشرق : وفى الشام احتل النشاط التجارى لجنوه المرتبة الأولى، تليها بيزا ، ثم مالبثت حتى تفوقت عليها مرسيليا (١) • وقد اهتم البعض من التجار الايطاليين بالحصول على أسواق ومراكز فى المدن الداخلية (٤) • أما البنادقة فلم يهتموا بالحصول على مراكز لهم فى المدن الداخلية ، عدا مدينة القدس ذاتها ، فى حين اهتموا بتركيز نشاطهم فى المدن الساحلية وبخاصة عكا ثم صور وصيدا وحيفا بعد ذلك (٥) • ولم تقتصر المنافع التجارية للصليبيين على المدن الايطاليه ، فمرسيليا - كما قلنا - تمتعت بامتيازات مشابهة لمنافستها فى فلسطين ، واستفادت من الأرباح الناجمة عن نقل الحجاج والجنود (٦) ؛ ولم يقف الامر عند حد مرسيليا ، ففى خلال القرن الثانى عشر ظهرت الأساطيل الانجليزية والفلمنكية والالمانية والدانمركية والنرويجية فى البحر المتوسط • أما الاسبان ، فقد كان دورهم ضئيلا فى الحروب الصليبية،

---

(١) Thompson : op.cit. Vol. I P. 402

(٢) Ibid : pp. 402 403.

(٣) Ibid. P. 404

(٤) Ibid. Loc. cit.

(٥) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٢٢ •

(٦) Archer : The Crusades, P. 437

فقد ظهر التجار من برشلونة فى صور خلال القرن الثانى عشر ، بيد أن تجارة مونتبلييه فى الشام الفرنجية ، كانت أعظم اهمية منها ، اذ حصـــلت على اعفاءات ، وصار لها قنصل فى عكا وطرابلس • كما أن السوريان والأرمن واليهود ، كانوا منافسين خطرين للجمهوريات البحرية الايطالية ذات الشهرة والاختصاص فى التجارة ، حتى ان المسلمين كان لهم بيوت تجارية فى المـــدن الافرنجيـــة (٤) •

وعلى الرغم من أن الايطاليين ساعدوا الصليبيين فى فتح المدن ، ومن ثم حصلوا على مزايا هائلة فى الأرض المقدسة ، فان اهتمامهم الرئيسى بالتجارة ظل مستمرا فى مصر • فهم لم يعقدوا بالشام صفقات توازى ما عقـــدوه فى الاسكندرية التى حجز فيها الايطاليون طيلة العصر الوسيط كله فى احياء ضيقة عليها رقابة شديدة • والواقع أن تجارة الايطاليين مع الاسكندرية فى ذلك الوقت ، ضمنت لهم التجارة المربحة للبحر الاحمر ، ولهذا فان توقف الصليبيين وانحسارهم ببلاد الشام ، ثم طردهم فى النهاية ، كل ذلك لم يلحق الاذى بالتجارة ا يطالية (٢) • ولايخفى أن الحجم الفعلى للتجارة التى تجرى فى موانى الش ام الفرنجية ، يقل عن ذلك الذى كان يمارس فى القسطنطينيـــــة والاسكندرية • وعلى أية حال ، فان النشاط التجارى للمدن الايطالية ، سواء بالاشتراك مع الصليبيين أو من دونهم ، جعل لهم السيادة التامة على البحر المتوســـط (٣) •

غير أنه لاينبغى أن ننسى ، أن الحركة الصليبية فى بلاد الشام ، أدت الى ازدياد الثروات للمدن الايطالية جنوه وبيزا والبندقية ، فضلا عن برشلونة وناربون ومرسيليا وغيرهم • فقد قامت اساطيل تلك المدن بنقل الحجـــاج والصليبيين من ناحية ، والتجارة فى السلع الشرقية التى نقلوها الى الغرب

---

(١) Thompson : op. cit. Vol. I P. 425
Chalandon : op. cit. P. 360

(٢) توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى ، ص ١٧٦ •

(٣) توفيق اسكندر : نفس المرجع والصفحة •

من ناحية أخرى (١) • ولم تكن السلع التى أجتازت موانى الشام حتى السنوات المتأخرة من القرن الثانى عشر بالغة الضخامة • فرسوم الديوان (الجمرك)على السلع العابرة ، لم تتجاوز عشر قيمتها ، ولهذا كان من اليســـير أن ندرك السبب فى انه قل ان عمرت خزانة الشرق الفرنجى بالمال ، وفى نزوع ملوك بيت المقدس فى معظم الاحوال الى القيام بالغارات فى الأوقات التى يتطلب فيها الشرف والدبلوماسية منهم المحافظة على السلام (٢) • ويعتبر القرن الثانى عشر ، والعشراوات الأولى من القرن الثالث عشر ، العصر الذهبى لما جنته الجمهوريات الايطالية من ارباح ببلاد الشام • غير أنه من المستحيل القول أن للصليبيين فى بلاد الشام علاقة بتطور التجارة الاوروبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، فمن الواضح أن سلع الشرق من الحرير والسكر والتوابل وغيرها ، وصلت الى أوروبا قبل قيام الحروب الصليبية ، وكانت امالفى والبندقية هما المدينتان الرئيسيتان اللتان امدتا الغرب الاوروبى بالسلع الكمالية • وبخروج امالفى من السباق ، نتيجة الغزو النورمانى لجنوب ايطاليا ، أدى الى تفوق البندقية التجارى فى الفترة التى بدات فيها الخحروب الصليبية (٣) •

ومن الجدير بالذكر ، أن العلاقات كانت بين المدن الايطالية البحرية الثلاث ــ جنوه وبيزا والبندقية ــ لم تكن على صفاء مطلقا ، بسبب التنافس على المصالح التجارية • وقد انتقلت هذه الخصومات الى بلاد الشام . حيث اشتد النزاع بين المدن الثلاث ، بل وصل الامر الى حد الاشتباكات فى شوارع عكا ، وتعداه الى حد التدخل فى النزاعات القائمة بين القوى السياسية فى بلاد الشام ، وليس من شك فى أن الخصومة بين المدن الايطالية ، وجشعها الذى

---

(١) Boissonade : Life and Work in Med. Europe. P. 174
C. Med. H. Vol. V. P. 329
سونيا هاو : فى طلب التوابل ، ص ٤٢ ــ ص ٤٣ •

(٢) La Monte : Feudal Monarchy. PP. 171 - 173

(٣) C. Med. H. Vol. V. Pp. 328 - 329

لا ينطفىء ومنازعاتها الحادة ، كل ذلك أدى الى انهاك القوى الصليبية بالشام ، واودى بالبقية الباقية منها (١) ٠

ومن الامور التى أثرت فى النشاط التجارى لموانىء الشام تاثيرا خطيرا فى القرن الثالث عشر ، كانت غزوات المغول ، اذ شجع المغول التجار على اتخاذ الطريق البرى عبر امبراطوريتهم من الصين الى تركستان ، فموانى البحر الاسود أو ميناء اياس على البحر المتوسط ٠ كذلك أدى غزوهم للعراق الى اغلاق طريق الخليج الفارسى فبغداد فدمشق ، الامر الذى اثر فى تجارة الشام تاثيرا خطيرا (٢) ٠

ثالثا ـ طرق التجارة البرية والبحرية المؤدية الى الشام :

سلكت تجارة الشام على زمن الحروب الصليبية عدة طرق برية وبحرية، انتهت الى الساحل الشرقى للبحر المتوسط ٠ فعلى ذلك الساحل انتهت الطرق البرية التجارية الآتية من الشرق الأقصى ، ومن الخليج الفارسى ، ومن البحر الأحمر فى الفرع الممتد من أيله عبر سيناء والشام ، وكذلك الفرع القادم جنوبا من آسيا الصغرى والفرع القادم من أوربا برا ، ثم الطريق البحرى الرئيسى من غرب أوروبا وايطاليا (٣) ٠

ومن أشهر الطرق البرية المؤدية الى الشام ، والتى سهلت على التجار نقل الحاصلات والبضائع هى : ـ

١ ـ طريق الخليج الفارسى ـ بغداد : وهو أقدم الطرق البرية واهمها فى العصور الوسطى ، يبدأ من رأس الخليج الفارسى ، ثم يتجه بفروعه النهرية أو البرية من البصرة الى بغداد حيث يتفرع فرعين : يتجه الأول شمالا الى ديار بكر ، ويتجه الثانى غربا الى دمشق ، ومنها تخرج فروع

---

(١) Thompson : op. cit. Vol. I Pp. 420 - 421

سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١١٠٥ ـ ص ١١٠٦ ٠

شارل ديل : البندقية ، ص ٥١ ٠

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١٢٦٢ ـ ص ١٢٦٤ ٠

(٣) نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها أواخر العصور الوسطى ص٦٤٦

الى موانى ساحل البحر المتوسط ، ثم جنوبا الى مصر ، وفرع يتجه شمالا بغرب الى حلب ، ثم الى آسيا الصغرى ، ليلتقى بالطرق القادمة من وسط آسيا برا ، ويتحد معها الى القسطنطينية (١) أحد نقاط الاتصال بين الشرق والغرب على زمن الحروب الصليبية (٢) · وقد فقد ذلك الطريق أهميته فى القرن الثالث عشر بسبب الغزو المغولى ، الذى قلب العالم الأسيوى راسا على عقب ، والذى انتهى بقيام امبراطورية المغول ، التى امتدت من بكين وقراقورم على بحيرة بيكال حتى الشام (٣) · ولم يلبث المغول ان شجعوا التجار على أن يسلكوا الطريق البرى الاتى من الصين ، ثم يجتاز تركستان ، ثم يمضى الى جنوب بحر قزوين ، ويخترق فارس الى طرابيزون على الساحل الجنوبى للبحر الاسود ، أو الى اياس فى مملكة قليقية بأرمينية ، ومن الطبيعى أن تطور أياس يقلل من اهمية الموانى الفرنجية (٤) ·

٢ ـ طريق الشام ـ مصر : يتجه ذلك الطريق من دمشق الى طبرية، ثم الى اللجون ، ثم الى الرملة ، ومن الرملة الى غزه ، ثم الى العريش ، ثم الى الفرما ، ثم الى القاهرة (٥) · وقد كانت القوافل التجارية تسلك ذلك الطريق الى أن قامت الحروب الصليبية ، وبنى بلدوين حصن الشوبك ، ومن ثم أخذ يوجه غاراته على العريش ، مما أدى الى اغلاق ذلك الطريق من ناحية، وسيطرة الصليبيين على طرق القوافل من ناحية أخرى · ولما استرد المسلمون بيت المقدس على يد صلاح الدين ، عادت القوافل التجارية الى طريق الساحل (٦) ·

٣ ـ طريق القسطنطينية ـ انطاكية : وهو طريق برى ، يبدأ باختراق جبال طوروس خلال الدرب الكبير المعروف بابواب قيليقية ، الى قيليقية ،ثم

(١) Day : op. cit. P. 84

معيم زكى : المرجع السابق ، ص ١١٧ ـ ص ١١٨ ·

(٢) C. Med. H. Vol. IV P. 762

(٣) ديل : البندقية ، ص ٦٢ ·

(٤) Heyd : op. cit. Vol. II Pp. 70 - 74

(٥) المقريزى الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٦ ·

(٦) نفس المكان ·

يجتاز سلسلة جبال أمانوس الى انطاكية خلال الدرب ، المعروف باسم أبواب الشـــام (١) ٠

٤ ــ طريق وسط آسيا : ويبدأ ذلك الطريق البرى من وسط آســـيا ومن الهند عبر جبالها وممراتها الى نهر الأثيل . وتتقابل مع القوافل الوافدة من الصين ، ثم يسيران معا حتى بخارى ، حيث يتفرع فرعين : الاول الى بحر قزوين ، والثانى يتجه الى البحر الاسود وموانيه ، ثم القسطنطينية وأوروبا ، وتتخرج منه فروع جانبية الى حلب ساحل البحر المتوسط (٢) ٠

٥ ــ طريق اليمن ــ مكة ــ الشام : وهذا الطريق فى غربى شبه الجزيرة العربية ، تقطعه القوافل بحذاء البحر الاحمر ، من اليمن حتى تصل الى مكة، ومنها الى البتراء شمالا ، ومن البتراء الى أسواق الشام أو مصر أو بلاد ما بين النهرين (٣) ٠ وقد استخدمت شبه الجزيرة العربية ، منذ القدم كمحطة تجارية للعبور بين الهند وأوروبا ، عن طريق مصر والشام (٤) ٠

٦ ــ الطريق البرى من غرب أوروبا الى المشرق : ويبدأ هذا الطريق من بلاد الاندلس الى طنجة عبر مضيق جبل طارق ، مجتازا المغرب الاقصى والاوسط والادنى عن طريق تونس ، حتى يصل الى مصر ، ثم يتجه الى بلاد الشام مارا بالرملة ودمشق (٥) ٠

وعلى أية حال ، فاننا اذا امعنا النظر فى خريطة قارة آسيا ، لوجدنا أن بلاد الشام كونت حاجزا الى حد ما ، بين آسيا والبحر المتوسط ، فعن طريقها ظلت الطرق التجارية متصلة بأوروبا (٦) ٠

---

(١) رنسيمان : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٦٩ ــ ص ٢٧٠ ٠

(٢) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ١٥٤ ٠

(٣) على السـليمان : النشـاط التجارى فى شبه الجـزيرة العربية ، ص ١١٢ ــ ١١٣ ٠

(٤) Nau : Les Arabes Chrétiens. P. 7

(٥) جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ، ص ١٥٠ ٠

(٦) Thompson : op. cit. Vol. I P. 404

أما الطرق البحرية التجارية المؤدية الى الموانىء الشامية ، على الساحل الشرقى من البحر المتوسط ، فمن الجدير بالذكر ، انه لم تكن هناك طرق مباشرة بين شرقيه وغربيه · وانما تخـــــرج السفن من المدن الايطالية وجمهورياتها متفرعة غربا الى غرب اوروبا ، وشرقا الى مصر والشـــــام والاناضول ، مارة بمراكز عدة : فمن البندقية شمالى الادرياتى تخرج السفن فى طريقين ، يسير الاول بحذاء ساحل دلماشيا مارا براجوزا ، ثم الى كورفو ويدور حول شبه جزيرة المورة ، وعندها ينقسم قسمين يتجه احدهما الى ساحل الشام مارا بكريت ورودس وقبرص وموانىء بيروت وطرابلس الشام وعكا ، ويتجه الآخر الى الاسكندرية مباشرة ، أما الفرع الآخر فيتجه غربا (١)·

ومن الطرق البحرية الى وصلت الى موانىء الشام ، طريق بحرى من الشرق الاقصى الى البحر الاحمر ، ثم يتجه شمالا بعد ان يترك البحر الاحمر ، عبر سيناء الى دمشق ، ثم موانىء ساحل البحر المتوسط ·

ومنذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، بعد غزو المغول لغـــرب آسيا ، وتعطيل الطريق التجارى البرى من وسط آسيا ، وطريق البحـــر الاحمر من اكثر الطرق التجارية اهمية بين الشرق والغرب ، فهو بعيد عن ميادين الحرب بين المغول والمماليك (٢) ·

وبلغت حركة الملاحة البحرية القادمة الى موانىء الشام بالســـاحل الشرقى من البحر المتوسط ، على زمن الحروب الصليبية ، درجة عالية من الازدهار والنشاط · ومن المشاهد ان الملاحة فى البحر المتوسط ، اضحت احتكارا على سفن الجمهوريات الايطالية البحرية وسفن الغرب الاوروبى ، ذلك لأن الفرنجة نجحوا ، بمساعدة الجمهوريات الايطالية ، فى فرض حصار بحرى على السفن الاسلامية فضلا عن انهم بذلوا أقصى جهودهم لانتزاع الموانى الفلسطينية من أيدى مصر (٢) · وقد نشطت حركة نقل الحجاج بعد قيام الكيان الصليبى ببلاد الشام ؛ فمما لاريب فيه ان الحجاج فضـــــلوا

---

(١) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ١٧٨ ·

(٢) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ١٢٤ ـ ص ١٢٥ ·

(٢) Grousset : op. cit. T. I P. 185

الطريق البحرى ، لأن الطريق البرى عبر الاناضول كان مازال معرضا للخطر، ولا يستطيع اختراقه الا جماعة جيدة التسليح (١) • بيد أن الحاج الذى كان يفضل الابحار الى الاماكن المقدسة ، لابد له فى هذه الحالة أن يحصل على مكان له فى سفينة ايطالية . ووصلت اجور السفر بحرا الى حد بالغ الارتفاع• وقد يجتمع عدد من الحجاج سويا ، فيستأجرون السفينة بأكملها • على ان الحاج القادم من شمال فرنسا او انجلترا ، كان من الاوفر له أن يرتحل فى قافلة صغيرة من السفن المتجهة الى الشرق ، ولكن ذلك الطريق كان محفوفا بالاخطار ، اذ قد تتعرض تلك السفن لهجمات القراصنة المسلمين المتربصين فى بوغاز جبل طارق ، وعلى كل حال ، فان الجماعات الكبيرة من الحجـــاج ارتكنت على اساطيل المدن التجارية الكبيرة .•

وتميزت سفن البحر المتوسط التى قامت بنقل الحجاج الى موانىء الشام ، بفخامتها وتفوقها على أية سفن أخرى • غير أنه من الصعب الاعتقاد أن بعض تلك السفن استطاعت نقل الف حاج أو الف وخمسمائة حاج على ظهرها (٢) • ومن المحتمل أن السفينة استطاعت نقل ما يربو على مائة حاج، اذ من المؤكد أن حمولتها تراوحت بين اربعمائة وخمسمائة طن • وتحسنت الملاحة تحسنا هائلا ، واخذت اسرع السفن مجرى مستقيما ، بدلا من أن تظل قريبة من الساحل ، جارية من خليج الى خليج ، ومن جزيرة الى أخرى؛ واستطاعت السفينة الشراعية الكبيرة ذات المجاديف ، فى حالة تيســر الطقس المعتدل ، وهدوء البحر ، أن تبحر من مرسيليا الى عكا ، خلال خمس عشرة يوما (٣) •

ويرتبط ببداية الحروب الصليبية ، التقدم الهائل فى قوانين الملاحــة البحرية بسفن البحر المتوسط ، وتتعلق تلك القوانين ببناء السفينة واعدادها وحمولتها (٤) • ويرجع الفضل الى الصليبيين ، فى وضع الاصول الاولى

---

(١) رنسيمان : الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ٥٠٦ •

(٢) Day : op. cit. P. 71 &
Boissonade : op. cit. P. 174

(٣) Thompson : op. cit. P. 430

(٤) Ibid, Loc. cit

للقانون البحرى التجارى ؛ وقد احتوت قوانين بيت المقدس على مجموعة من النظم والقوانين البحرية ، نستدل منها على التنظيمات التى وضعها ملوك وامراء غرب أوروبا لأساطيلهم فى البحر (١) . وعرفت الملاحة البحرية ، تأسس « قانون السفن » Ship Law الذى نظم العلاقة بين البحارة والمسافرين (٢) .

ومن الصعوبات التى واجهت النقل البحرى فى ذلك الوقت العرف المتبع، وهو انه اذا جنحت سفينة ولقى الموج بها او ببضائعها على الشاطىء ، فانها تصدير غنيمة لصاحب الارض التى جنحت اليها السفينة (٣) . ففى عام ١١٧١م (٥٦٧ هـ) ، ابحرت بعض السفن من مصر الى الشام ، وعند رسوها فى ميناء اللاذقية ، استولى الفرنجة على سفينتين محملتين بالامتعة والتجار المسلمين؛ وكان الفرنجة قد وقعوا هدنة مع نور الدين محمود ، فاما بلغه خبر السفينتين، طالبهم بهما . ولكنهم احتجوا عليه بان المركبين قد دخلهما ماء البحر لكسر فيهما ، وان « العادة جارية باخذ كل مركب يدخله الماء (٤) » .

وقد حدث أيضا لاسرة اسامة بن منقذ ان ابحرت فى سفينة فرنجية من دمياط الى الشام ، وعندما دنت السفينة من عكا ، خرج اليها رجال ملك عكا، وكسروها بالفؤوس ، ونهبوا كل مافيها من اموال ومتاع، بحجة انها انكسرت، ومن حقهم نهبها (٥) . وعلى هذا فقد حرص السلاطين المسلمون فى معاهداتهم مع الفرنجة ، على ان تنقذ السفن متى تعرضت للغرق فى المياه ، وترد الاموال لاصحابها ، وخير معاهدة لذلك ، تلك التى عقدها السلطان الملك منصور قلاوون مع الفرنجة فى ٣ يوليو ١٢٨٣ م (٦٨٢ هـ) (٦) .

ويتصل بموضوع النقل البحرى التجارى فى البحر المتوسط ، نظام قوافل السفن الموسمية . فلا تكاد تخلو معاهدة من معاهدات العصور الوسطى

---

(١) Archer : op. cit. P. 438

(٢) Thompson : op. cit. P. 430

(٣) سعيد عاشور : اوربا العصور الوسطى ، جـ ٢ ، ص ١١٦ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ ـ ص ٢٢١ .
ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٦٧ هـ .

(٥) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ٣٤ ـ ص ٣٥ .

(٦) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٩٨٥ ـ ص ٩٩٢

من الاشارة اليها فى مجال عددها ومواعيدها ونظمها ، وهى المعروفة فى تاريخ البندقية التجارى البحرى باسم نظام « المدة » وهو يقابل كلمة « قافلة » بحرية تجارية (١) • ومن القوافل التى كانت للبندقية قافلة الشام ، التى كان وصولها الى الشرق ايذانا بعودة النشاط الى الصفقات التجارية ، وكذلك كانت عودتها من الشرق ينتظرها الاهالى بفارغ الصبر (٢) • وقد رتبت البندقية مواعيد سفر سفنها التجارية الى الشام بما يتفق الى حد كبير مع أوقات هبوب الرياح ، ومع ترتيب عقد الاسواق الموسمية فيها ؛ وانتظمت رحلات سفنها فى اربع مراحل . ففى الرحلة الأولى تخرج السفن من البندقية فى شهر يناير لتصل موانىء شرق البحر المتوسط فى شهر مارس ، ثم تقوم من هذه الموانىء بعد توسيق سفنها فى شهر ابريل لتصل للبندقية فى شهر يونيو ، ولدى عودتها للبندقية تتجهز للرحلة الثالثة التى تبدأ فى شهر يوليو وتصل لمقصدها فى شهر سبتمبر ، وتعود فى شهر اكتوبر لتصل البندقية فى شهر ديسمبر ، وتتجهز للرحلة فى شهر يناير ، وهكذا (٣) •

وطوال العصور الوسطى ، ظلت الشام منطقة عبور للتجارة الشرقية والغربية ، وعرف هذا النظام باسم « تجارة العبور أو الترانزيت » ، فتصل السفن الاوروبية لموانىء الشام ، حيث تجد تجار المنطقة ، وقد جلبوا المتاجر والسلع الشرقية من الهند والشرق الاقصى ووسط آسيا وافريقية ، فيتوالون نقلها الى أوروبا (٤) •

رابعا ـ أهم المراكز التجارية :

من المعروف أن العلاقات التجارية بين الشرق والغرب ، وجدت قبل الحروب الصليبية بزمن طويل ، ولكن الغزو الصليبى لبلاد الشام أثر فيها بشكل خاص • اذ صارت تجارة البحر المتوسط كلها ـ بوجه التقريب ـ فى

(١) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ٢٦٧ •
(٢) شارل ديل : البندقية ، ص ٢٨ ـ ص ٢٩ •
(٣) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ٢٦٩ •
(٤) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ٢٥٧ •

أيدى الجمهوريات البحرية الايطالية ومدن جنوبى فرنسا (١) • وقد استقر فى المدن الشامية ، لاسيما الساحلية ، العديد من التجار الاوروبيين والارمن واليهود ، بالاضافة الى الوطنيين • ومما زاد فى الاقبال على الاستقرار ، أن الشام ، نقطة اتصال بين تجارة الشرق وتجارة الغرب ، فعن طريقه اتت سلع وحاصلات آسيا الوسطى والشرق الاقصى • هذا بالاضافة الى الوافدين من حجاج الغرب الأوربى والمغامرين وغيرهم •

وفى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، كانت مدن وموانى الشام مراكز emporia لتجمع السلع ، أقام فيها التجار للاشراف على مصالحهم التجارية • وفى خلال القرن الثانى عشر ، ازدهرت على الساحل بعض المدن الواقعة تحت سيطرة الصليبيين مثل عكا وصور وبيروت وطرابلس وانطاكية واللاذقية ؛ كذلك كانت حلب ودمشق وحماه وحمص أهم المراكز التى كانت فى أيدى المسلمين (٢) • وشاهد القرن الثالث عشر اختفاء اهمية مدن تجارية مثل عسقلان وانطرطوس وجبلة ، وتضاؤل أخرى مثل يافا واللاذقية وصيدا؛ وفى الداخل عانت حمص نفس الأفول ، ويرجع السبب فى ذلك الى زوال النفوذ الايوبى ، فضلا عن الغزو المغولى للشرق الادنى ، مما ادى الى تغيير خريطة الشرق التجارية (٣) • وعلى اية حال ، فان مدن عكا وصور وبيروت وطرابلس وانطاكية ، ظلت تؤدى عملها حتى زوال الكيان الصليبى : اما حلب ودمشق، فقد ظلتا ــ الى حد ما ــ المراكز الرئيسية للنشاط الاقتصادى فى الأجزاء الداخلية من الشـــــام (٤) •

وكانت عكا أهم المدن الساحلية ببلاد الشام خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، لها ميناء آمن صالح لرسو السفن (٥) ، تمتعت بنفوذ تجـارى

---

(١) Chalandon : op. cit. P. 359
(٢) Ziadeh : Urban Life in Syria. P. 134
(٣) Loc. cit.
(٤) Loc. cit.
(٥) Ziadeh : op. cit. P. 135

عظيم ، فاق أى ميناء آخر ، وقـــد شبهها ابن جبير فى عظمتها بمدينـــة القسطنطينية ، لانها كانت « مجتمع السفن والرفاق » وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق ، سككها وشوارعها تغص بالزحام ، وتضـــيق فيها مواطىء الأقدام (١) » ، كما وصف أبو المحاسن (٢) عكا قائلا : « كانت مظنة التجار » • وتعتبر عكا انشط الموانىء فى التجارة ، وكانت الميناء الطبيعى لدمشق ، ولم تستخدم فحسب لمنتجات مصانع دمشق وأراضى حـــوران الخصيبة بل افاد منها ايضا ، التجار القادمون من اليمن ، الذين سلكوا طريق الحجاج بحذاء حافة ساحل بلاد العرب ، وآثر الوافدون الى الاماكن المقدســة – بحرا – النزول بها لا بيافا ؛ على أن العيب الوحيد فى ميناء عكا ، هو أن الميناء الداخلى بلغ من الصغر انه لم يتسع للسفن الكبيرة فى ذلك الوقت ، فكان من الضرورى أن ترسو تلك السفن خارج حاجز المياه ، فتتعرض للريــــاح الجنوبية الغربية ، واما أن تمضى ازاء الساحل الى ميناء صور الذى يفوق ميناء عكا اتساعا وأمنا (٣) •

وازدهرت بيروت على عصر الصليبيين ، كمدينة غنية ، قوية ، مزدحمة، تميزت بميناء ممتاز (٤) • ويصفها ابن حوقل قائلا : « وتجارات البحر عليها دارة واردة وصادرة » (٥) ، وجمرك بيروت من اغنى جمارك الشام وأحفلها . وتمر به السلع التى تصل الى دمشق من البحر المتوسط أو التى تخرج منها الى أوروبا ، كما انه السوق الطبيعية لمنتجات دمشق المحلية (٦) •

واستحقت اللاذقية عن جدارة ، أنها خير ميناء فى شمال الشام ، نظرا لأنه صالح لكل مناخ وطقس ، على الرغم من أن السويدية الواقعة على مصب

---

(١) رحلة ابن جبيـــر ، ص ٢٧٦ •
(٢) النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٥ •
(٣) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٦١٠ •
(٤) Ziadeh : op. cit. PP. 135 - 136
(٥) المسالك والممالك ، ص ١٧٦ •
(٦) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ١٤٨ – ص ١٤٩ •

نهر العاصى كانت أكثر منالا لأنطاكية وحلب ، وفضلا عن ذلك ، فان ميناء اللاذقية ، كان على اتصال سهل برودس وقبرص (١) ٠

ومن أهم المراكز التجارية فى شمالى الشام ، مدينة حلب ، التى تقع فى أرض سهلة ، غزيرة المياه ، على بعد عشرين فرسخا من الفرات ؛ ومنذ عهد بعيد موغل فى القدم ، كانت حلب نقطة يلتقى فيها الطريق الآتى من الخليج الفارسى حتى نهر الفرات ، مع طريق القوافل الآتى من آسيا الوسطى ،حيث تنقل السلع الى موانى البحر المتوسط (٢) ٠ كذلك كانت حلب مركزا لتجمع القوافل التجارية الآتية من آسيا الصغرى والشام ، مارة الى بغداد وفارس والهند داخل آسيا (٣) ٠ وتميزت حلب بثرائها الهائل على زمن الحروب الصليبية ، وعمرت بالاسواق الواسعة ، والقياصر والحمامات ، ودأب التجار على جلب مختلف الحاصلات اليها ، وظلت محتفظة باهميتها التجارية حتى الغزو المغولى ، ومع انها قاست الكثير على يد المغول ، الا انها سرعان ما استعادت مركزها (٤) ٠ ومن خصائص أسواقها ، ان ما يعرض بها من سلع ينفد ساعة وصوله ، وفاقت فى ذلك القاهرة ، « اذا احضر اليها مائة حمل حرير ، فانه يباع فى يوم واحد ، ويقبض ثمنه ، ولو حضر الى القاهرة التى هى أم البلاد عشرة احمال لاتباع فى شهر وعلى هذا فقس ! (٥) » ٠

واحتل ميناء طرابلس اهمية بالغة فى تجارة الشام الخارجية والداخلية ، وهو مخرج تجارة منطقة حلب ، وصلة التجار الاجانب من آسيا وأوروبا ، والوطنيين من حمص وحلب ودمشق وحماه وبعلبك (٦) ٠ ويصل الى ميناء طرابلس تجار الفرنجة ، محملين بمختلف السلع (٧) ؛ وطرابلس كمدينة ، كانت عامرة بالأسواق والفنادق والمصانع (٨) ٠

---

(١) Ziadeh : op. cit. P. 66
(٢) Thompson : op. cit. Vol. I P. 360
(٣) Loc. cit.
(٤) Ziadeh : op. cit. P. 136 - 137
(٥) ابن الشحنة : الدر المنتخب فى تاريخ حلب ، ص ٢٥٤ ٠
(٦) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ١٥١ ٠
(٧) ابن الشحنة : المرجع السابق ، ص ٢٦٤ ٠
(٨) Ziadeh : op. cit. . 136

ولاريب أن ميناء صور قد احتل المركز الثانى على الساحل ، خلال الوجود الصليبى ببلاد الشام ، وأتى اليه التجار من جميع انحاء العالم ، مما أدى الى تأثر فيترى Vitry بالعدد الهائل من السفن الراسية فى الميناء (١) • ويبدو أن صيدا لم تكن قادرة على منافسة عكا وصور فى عهد الصليبيين (٢) • وتعتبر صيدا منفذا لدمشق (٣) •

ودمشق كانت من المدن البالغة الاهمية ابان الحروب الصليبية ، فهى مستودع تجارة وسط آسيا الى أوروبا ، وتتصل بالبحر المتوسط بطريق ميناء بيروت الذى يبعد عنها مسيرة يومين (٤) • وأمتلات دمشق بالمتاجر الكبيرة، والاسواق الكاملة العامرة بالحاصلات ، وما من شىء يرغبه المرء الا وجـده فى أسواقها ، ولم يكن يفوق ثروتها وتجارتها الا القاهرة (٥) •

وانطاكية من المدن القديمة التى تقع فى شمال الشام ، وسط سهل خصيب فى الحوض الادنى لنهر العاصى Orontes (٦) • وتصب فى انطاكية الطرق الأرمينية وأعالى الجزيرة ، الأمر الذى أدى الى أن أضحت تلك المدينة المستودع الرئيسى للحاصلات الواردة من الهند والصين ، فضلا عن كونها أحد المراكز الكبيرة للتجارة الشرقية بالنسبة للغرب (٧) • ولكن سقوط تلك المدينة فى أيدى المغول عام ١٢٦٨ م ، أصابها بلطمة ، جعلتها تفقد أهميتها التجارية، فنظرا لان الحد الفاصل بين امبراطورية المغول وسلطنة المماليك يمتد على نهر الفرات ، لم تعد التجارة القادمة من العراق والشرق الاقصى تجتاز حلب، بل التزمت بلاد المغول ، وانتهت الى البحر المتوسط عند اياس فى قيليقية (٨) •

---

(١) Ibid. 135
(٢) Ibid. 136
(٣) أحمد عارف الدين : تاريخ صيدا ، ص ٧٧ •
(٤) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ١٤٧ ــ ص ١٤٨ •
(٥) Ziadeh : op. cit. P. 137
(٦) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة انطاكية •
(٧) Hulme : The Middle Ages. PP. 479 - 480
(٨) رنسيمان : المرجع السابق ، ج٣ ، ص ٥٥٩ •

خامسا ـ اهم السلع التى كانت محور النشاط التجارى :

لعبت بلاد الشام ـ كما رأينا ـ على زمن الحروب الصليبية ، دور الوسيط التجارى فى نقل السلع والحاصلات بين الشرق الادنى والاقصى من جهة وبين الغرب الاوروبى من جهة أخرى • ومما زاد فى اهمية ذلك الدور الطارق البرية والبحرية التى تمر عبر بلاد الشام • وتجمعت فى اسواق تلك البلاد مختلف الحاصلات ، التى قام بنقلها الجمهوريات الايطالية البحرية ، ومدن جنوب فرنسا ، فضلا عن التجار الوطنيين •

وقد اولع الغرب الاوروبى بالسلع الشرقية ، واشتد اقباله عليها ،خاصة التوابل التى حازت المكانة الاولى بين تلك السلع حتى نهاية العصـــور الوسطى ، وقد اعتاد الغربى استعمالها فى الاطعمة منذ الحروب الصليبية ، اما لشدة البرد فى اوروبا ، أو لتبتل الطعام وحفظه ، أو لاستعماله كعقار طبى (١) والواقع أن التوابل التى استوردت من وسط آسيا والشرق الاقصى ، صارت من الضروريات فى الغرب الاوروبى على زمن الحروب الصليبية ، اذ أحدثت تغييرا فى عادات النبلاء والاشراف ، وساهمت فى توفير وسائل الراحـــة والرفاهية للغرب الأوروبى (٢) • واستعملت التوابل بصفة مستديمة فى طهى الطعام وصنع النبيذ والبيرة المتبلة ، وان ساعات الشتاء لتبدو طويلة لمن لم يساعد الحظ علىاحتساء فنجان منشراب دافىء مزج بشىء من التوابلوالبهارات فالفلفل ، والجنزبيل ، وجوزة الطيب ، والقرنفل ، والقرفة ، كلها كانت مبعث انتعاش للقلوب ودواء للامراض (٣) • وبالاضـــافة الى ذلك الأفاوية التى استخدمت فى الاغراض الطبية : الراوند والألوية (الصبر) الذى استخدم كمسهل ، والبلسم ، واللبان الجاوى الذى استخدم فى الطب وصناعة العطور، والكبابة (حب العروس) الذى استخدم فى علاج الاضطراب البـــولى ،

---

(١) توفيق اسكندر : المرجع السابق ، ص ١٤٠ •

(٢) Thompson : op. cit. Vol. I PP. 430 - 431

(٣) سونيا هاو : فى طلب التوابل ، ص ٢٢ •

والكافور (١) • ومن الواضح أن أوروبا الغربية لم تتصل عن كثب بصـــور الحياة فى الشرق الا بعد قدوم فرسانها الصليبيين ، لانتزاع بيت المقدس من أيدى المسلمين ، وترتب على ذلك ازدياد الحاجة للتوابل بصورة ملموسة ، ومن أجل التوابل ، ظلت بلاد الشام الهدف الاول للسفن الاوروبية ، الى أن جاء اليوم الذى تم فيه اكتشاف طرق بحرية جديدة ، تمكن البرتغاليون من خلالها، امداد أنفسهم بالتوابل من منابعها مباشرة (٢) •

وعلى عصر الحروب الصليبية ، ذاع صيت الشام فى صناعة الزجـــاج والتحف الزجاجية ، لوفرة المواد الاولية اللازمة لهذه الصناعة ، واحتلت صور وحلب ودمشق وانطاكية ، مكانة فائقة ، كما صنع الخزف فى عدة اماكن من الشام (٣) • وأدهش الاوروبيون قطن الشام لجودته ، ومن المدن التى تفوقت فى زراعته حلب وحماه ، لخصوبة أراضيها (٤) • واحتكر التجار الجنويـــة والبنادقة تجارة الشب فى ميناء عكا (٥) •

ومن أهم منتجات الشام قصب السكر ، الذى لم يكن معروفا فى أوروبا قبل الحروب الصليبية ، فلما أتى الصليبيون الى الشام تذوقوه لأول مرة، خلال حصار انطاكية من ٢٠ اكتوبر ١٠٩٧ م الى ٢٨ يونيه ١٠٩٨ م ، فقـد كتب وليم المالمسبورى William of Malmesbury « زادت غزارة الامطار من الامناء، ولماكان الكثير من التعساء لايملكون سوى مايرتدونه ،ماتوا من قسوة البرد ، اذ لم يكن لديهم غطاء يلتحفون به لأيام عديدة ، ولوحظ النقص فى الخيم والأخشاب ، ومن أجل تهدئة غائلة الجوع ، وجد التعساء ضالتهم فى نبات حلو ، صاروا يمضغونه باستمرار ، أطلقوا عليه عصا وعسل Cannamel وقد تحدث البرت الأكسى Albert of Aix عن قصب السكر قائلا : «يزرع

(١) Day : op. cit. p. 80

(٢) Pirenne : Economic and Social History of Med. Europe. P. 143

(٣) زكى محمد حسن : الفنـــون الاسلامية ، ص ٦٠٧ •
سعيد عاشور : المدنية الاســلامية ، ص ١٩٠ ـ ص ١٩١ •

(٤) Heyd : op. cit. Vol. I P. 612

(٥) Ziadeh : op. cit. P. 135

هذا النوع من العشب سنويا بمجهود كبير · وعندما ينضج يسحقه اهل الشام في هاون ، ويصفون العصير ، ثم يضعونه في أوان حتى يتجمد ويتصلب . فيشبه الجليد أو الملح الابيض ، ويطلقون على تلك العصى السكر Zucra(١) وتعلم الصليبيون من السكان الوطنيين طريقة استخراج السكر من القصب ، واشتهرت طرابلس وبيروت وصور بزراعته ، وتعتبر الأخيرة المركز الرئيسى لصناعته ؛ ومعظم ما كان يستهلك من السكر في اوروبا في القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، جاء من بلاد الشام (٢) · وقد استخدم سكر الشرق الفرنجى في الغرب الأوروبى في العلاج وعلى الموائد الشهية ، بدلا من عسل النحل الذى كان شائع الاستعمال قبيل الحروب الصليبية ، واهداء قطعة من السكر في ذلك الوقت ، يعنى ذلك مدى الحب الشديد للمهدى اليه (٢) ·

وعلى الرغم مما اشتهرت به فلسطين من اشجار الزيتون ، فمن الراجح أن زيت الزيتون ، لم يصدر الى الغرب الاوروبى الا في كميات ضئيلة ؛ وفي نفس الوقت شوهدت فواكه فلسطين النادرة مثل الليمون الحلو ، والرمان ، على موائد الأغنياء في ايطاليا (٤) ·

وشملت السلع التى وصلت الى أسواق بلاد الشام العطور ، والبخور، ومن أنواعها : عود الند ، والمسك ، وخشب الصندل ، والعنبر ، والبخور، واللادن ، والمصطكى ، وقد ورد معظمها من اسواق الشرق الاقصى (٥) ·

ولا ريب ان مدينة بيت المقدس احرزت شهرة هائلة على ايام الحروب الصليبية ، لما لها من مكانة دينية في قلوب المسيحيين · لهذا شهدت فترة

---

(١) Thompson : op. cit Vol. I. 395

(٢) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٦١ ·
المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الممالك ، ص ١٨٠ ·
Heyd : op. cit. Vol. I PP. 178 - 179

(٣) Day : op. cit. P. 80

(٤) Heyd : op. cit. Vol. I PP. 177 - 178

(٥) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ٦٢٦ ·

الحروب الصليبية العديد من الحجاج الوافدين الى الارض المقدسة • ومن الطبيعى أن الحاج راقته فى تلك المدينة التحف الفنية الشرقية ، تعرض فى الحوانيت الصغار ، منها التحف الفنية المسيحية ، والمسابح ، والصلبان، والمصابيح الدينية ، والصور ، والايقونات (١) • وربما اشترى الحجاج مذاخرا (علبا) عربية الطراز لحفظ المخلفات المسيحية ، أو لبسوا ونقلوا المنطقات الشرقية ذات الاكياس الى باريس بغية تقليدها (٢) •

وتجارة العبيد أو الرقيق ، وهى تجارة الانسان فى أخيه الانسان ،كانت فى أيدى التجار البنادقة والجنوية ، الذين اثروا ثراء فاحشا من جـــراء مزاولتها ، ووصل مندوبون عنهم الى البلاد البعيدة ، حتى بلغوا بلاد ماوراء النهر ، ولهذا اضحى سوق الرقيق يقوم عليه تجار جنوة والبندقية ، يضم أصنافا مختلفة ، والوانا غير متجانسة ، منهم الارمنى والنوبى والقوقازى والفارسى والهندى والديلمى ، واليونانى والروسى ، وقد اشتد الاقبال على شراء الرقيق اقبالا عظيما ، مما يدل على مغالاة النخاسين فى الأثمان ، وكثرة الضرائب التى يدفعها التجار عن الرؤوس التى يجلبونها ونوعها (٣) • وقد وجدت فى الشام اسواق لبيع الرقيق فى المدن الكبيرة ، مثل عكا (٤) •

ومن المصنوعات الهامة التى عرفت بها بلاد الشام ابان الحـــروب الصليبية ، المنسوجات • صحيح أن أوروبا كانت على مقدرة كافية فى صناعة السلع الكتانية والصوفية التى صدرتها بكميات معقولة الى آسيا ، ولكن مهارتها الفنية كانت عاجزة فى مصنوعات القطن والحرير ، لعدم وجود الحرفيين أو الصناع الماهرين البارعين فى تلك الصناعة ، لهذا استوردت أوروبا كميات كبيرة من الاقمشة الجاهزة من الشام • وقد احتاج أصحاب المناصب الرفيعة فى الكنيسة ، والامراء ، للملابس المطرزة بالقصب أو بالذهب أو بالفضـــة ،

---

(١) Pierre Loti : Jerusalem. P. 53

(٢) باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٢٣ •

(٣) حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ١٤٨ •

(٤) Richard : Le Royaume Latin. P. 122

والقطيفة والاطلس (الساتان) التى تفوقت على جميع المنسوجات الغربية ،وكل تلك الملابس كانت ترد من الشام (١) • وقد انتجت مدن شامية عديدة ،صناعة المنسوجات ، مثل حمص وحماة وطرابلس وبعلبك وحلب وصور ودمشق وانطاكية ، وتفاخرت طرابلس بان لديها ٤٠٠٠ نول حرير ، وكان بها ٤٠٠٠ عامل ، يعملون فى صناعة المنسوجات الحريرية (٢) • وكثر الطلب فى أوروبا على حرير الشرق المعروف باسم البروكار ، والذى كان يجلب من الاسكندرية، وطرابلس ودمشق وانطاكية (٣) • وبعض المنسوجات الحريرية ، خلدت أماكن صناعتها الاصلية ، فالموسلين من الموصل والدماسك من دمشق (٤) •

ومن الصناعات التى وجدت فى الشام على زمن الحروب الصليبية ،صناعة الورق ، واشتهرت دمشق وحلب بها (٥) ؛ وعندما عرف الأوروبيون الورق عن العرب ، أطلقوا عليه اسم « الصحائف الدمشقية » Charta Damascena نظرا لأن دمشق كانت سوقا رئيسيا لتجارة الورق (٦) • كذلك كان الصابون من الصناعات التى انتشرت فى انطاكية وطرسوس وعكا (٧) • ومن المرجح أن الأوروبيين قد اقتبسوا صناعة الحلى المنقوشة ، من تلك السلع العربية التى دخلت اوروبا ، عن طريق التجارة ، أو التى جلبها معهم الصليبيون عند عودتهم من الشرق (٨) •

أما السلع التى كانت تأتى من الغرب الاوروبى الى بلاد الشام خلال فترة الحروب الصليبية ، كانت تتمثل فى الثروات الطبيعية والحاصلات والمواد الخام ، مثل الحديد والنحاس والصوف والعبيد (٩) •

---

(١) Day : op. cit. P. 83

(٢) Heyd : op. cit. Vol. I P. 179

(٣) نعيم زكى : طرق التجارة ، ص ٢٤٦ •

(٤) Cheyney : The Dawn of a New Era. P. 9

(٥) Ziadeh : op. cit. P. 133

(٦) سعيد عاشور : المدنية الاسلامية ، ص ١٨٧ •

(٧) Thompson : op. cit. Vol. I P. 404

(٨) سعيد عاشور : النهضات الاوروبية ، ص ٣٧٥ •

(٩) Orton : Outline of Med. History. P. 222

وهكذا توافرت فى الشام مختلف السلع والمصنوعات التى شاعت فى الغرب الاوروبى ، ووجدت اقبالا شديدا لدى شعوب الغرب الأوروبى ، مما أدى الى تشجيع الحروب الصليبية للتجارة الدولية ، والمساهمة فى اثرائها ٠

سادسا ـ النظم والمعاملات التجارية :

بعد أن استولى الفرنجة على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م ، وقامت مملكة بيت المقدس الصليبية ، التى استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان ، ظهرت مشكلة أرقت الكيان الصليبى ٠ تلك المشكلة هى التناقص الشديد فى اعـــداد اللاتين ؛ صحيح أن العديد من الصليبيين لاقوا حتفهم خـــلال الزحف على الشام ، ولكن العديد ايضا فضل العودة الى اوطانه فى الغرب الاوروبى بعــد وصول الحملة الصليبية الى هدفها ٠

ومن المعروف أن الصليبيين ـ وهم قلة ـ لم يتمكنوا من جلب الأيدى العاملة من الغرب الاوروبى ، بالاضافة الى أنهم احتقروا أعمال الارض ٠ لذلك كانوا مضطرين من اجل استغلال البلاد والقيام بما يلزمهم ، الى التعاون مع الأهالى الوطنيين ٠ وعلى هذا فان الوفاق بين الغالب والمغلوب ، أدى الى ظهور نظام اقتصادى مميز للفرنجة فى الشرق (١) ٠ وعلى عهد بلدوين الاول جرى تشجيع أعداد متزايدة من اللاتين على الاستقرار فى مملكة بيت المقدس ، فظهرت بها طبقة بورجوازية لاتينية الى جانب طبقة النبلاء ، وصار للبورجـوازية اللاتينية الحرية التامة فى ممارسة التجارة داخل المدينة وخارجها (٢)٠ ولابد أن فترة الحروب الصليبية ببلاد الشام ، أدت الى اثراء اولئك التجار ، الأمر الذى جعلهم يمتلكون الاراضى والبيوت والعقارات فى المدن بوجه خاص (٣)٠ ولم تلتزم تلك الطبقة الراسمالية البورجوازية بأية تعهدات تجاه السـادة الاقطاعيين فى مملكة بيت المقدس الصليبية ، فضلا عن انها لم تلتزم بالواجبات الاقطاعيـــة ٠

---

(١) Chalandon : Histoire de la Premiere Croisade, P. 301

(٢) رنسيمان : الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٢٤٨ ٠

(٣) Chalandon : op. cit. P. 302

والتجار الايطاليون ، أفضل تعبير للطبقة الرأسمالية البورجوازية ، فى الشام الصليبى . فالملوك الاوائل لملكة بيت المقدس الصليبية ، اضطروا تحت ضغط الحاجة ، لمناشدة البنادقة والجنوية والبيازنة ، مد يد المساعدة اليهم لفرض السيطرة على الساحل الشرقى للبحر المتوسط . ولكن التجار الايطاليين كانوا عمليين ، فنظير المساعدة حصلوا على امتيازات تجارية عظيمة واعفاءات جعلتهم لايخضعون لأى سيد اقطاعى (١) . اذا لم يقف السادة الاقطاعيون موقف العداء بالنسبة لتلك الطبقة الراسمالية البورجوازية ، بل على العكس من ذلك فقد تنازلت لها عن جزء من سلطتها السياسية ، وبهذا انهار الصرح الاقطاعى أمام المصالح الخاصة لتلك الطبقة الرأسمالية .

والحقيقة أن التجار الايطاليين وغيرهم ساهموا الى حد بعيد فى انعاش اقتصاديات البلاد . وقد دعت الاحتياجات المالية الناشئة عن التطور الاقتصادى ، الى ايجاد كمية وفيرة من النقد ، وطريقة للتداول الاسرع والأعم . ولم تكد تستقر الامارات الصليبية ، حتى شرع ملك بيت المقدس وأمير انطاكية وكونت طرابلس فى ضرب الدنانير من الذهب ، التى عرفت باسم الدنانير الاسلامية Saracente Besants (٢) ، وقد تم التعامل بها مع البلاد الاسلامية البعيدة عن الشاطىء ، وكان على هذه القطع نقوش عربية ، وبعض آيات صغيرة من القرآن ، واشارة الى النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وتاريخ هجرى ؛ وقد استمر التعامل بتلك العملة حتى عام ١٢٤٩ م حينما احتج على ذلك البابا انوسنت الرابع (٣) ، فأصدر قرار الحرمان على كل من يتعامل بتلك العملة ؛ وعلى أية حال ، فان التجار احتالوا على ذلك الخطر بسك عملات مشابهة تحمل نقوشا مسيحية والتاريخ الميلادى ، ــ وكلاهما باللغة العربية ــ ، وصليب فى وسط العملة ، ويوجد حاليا نماذج عديدة لتلك العملة التى بدىء العمل بها عام ١٢٥١ م (٤) . واذا نظرنا الى

---

(١) Ibid. P. 303

(٢) رتسيمان : المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٦١٨ .

(٣) باركر : الحروب الصليبية ، ص ١١٩ ــ ص ١٢٠ .

(٤) Miller : Essays on the Latin Orient. P. 520

العملات التى كانت متداولة فى الشام الصليبى لوجدناها مختلفة مثل اختلاف العناصر السكانية بها ، فعندما غزا الصليبيون الشام ، وجدوا بها نقودا بيزنطية وعربية ، استخدموها فى التداول حتى لاتنقطع العلاقات التجارية ، وبالاضافة الى ذلك أحضروا معهم كمية كبيرة من مختلف عملات الغــــرب الأوروبى ، غير أنهم لم يلبثوا أن أسسوا دورا لسك النقود خاصة بهم ، واشهر العملات التى اصدرها الفرنجة ،العملة الذهبية الرئيسية وهى البيزنت Bezant البيزنطى والدينار العربى ، أما العملات النحاسية فلم تسكها الحكـــومات الصليبية (١) • ولم يكن للمـــدن الايطالية البحرية ، أو المنظمات الدينيـــة الحربية ، حق اصدار عملات ، فهذا الحق وقف على حكام الامارات ، وليس للمقطعين الا ان يسكوا نقودا من البرونز لسد الحاجات المحلية (٢) •

وقد أدت ضخامة السيولة النقدية المتبادلة بين التجار ببلاد الشام ، على عصر الحروب الصليبية الى تأكيد وجود المصارف فى المعاملات المالية • وكان لمعظم الجمهوريات الايطلية التجارية فى القرن الثانى عشر بنوك ضخمة لها فروع فى جميع انحاء مراكز نشاطهم التجارى فى الشرق والغرب ، عملت على تسهيل التعامل المالى والتجارى النقدى وغير النقـــدى بالسندات وخطابات الاعتماد بالشركات (٣) • والحقيقة أن الأعمال المصرفية ، وتداول الاوراق المالية بالشام ، ترجع الى القرن العاشر الميلادى ، عندما صار تعبير السفتجة مألوفا ، والغرض من السفتجة نقل الأموال من مكان الى آخر دون المغـــامرة باخطار الطريق ، وبنظام السفتجة امكن التعامل المالى والتجارى بين التجار على مسافات بعيدة (٤) ، بحيث اذا كان لاثنين من التجار أموال عند صراف واحد ، امكن لأحدهما دفع حساب الآخر بارسال ورقة الى الصراف يطلب منه

---

(١) Thompson : op. cit. Vol. I P. 404

(٢) La Monte : Feudal Monarchy. pp, 74 - 175
Thompson : op. cit. Pol. I P. 406

(٣) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ٣٤٠ •
Fischel : Jews in the Economic and Political Life, PP. 17 - 18

دفع المبلغ لزميله • وعملية نقل الاموال هذه سواء عن طريق النقد أو بالسفاتج لابد انها كانت مصدرا للدخل بالنسبة للصرافين ، اذ يمكننا الافتراض انهم تقاضوا عمولة معينة لدفع سفتجة ، كما نعرف انهم اخذوا عمولة لدفـــع صك Sakk ، وقد اشتهر اليهود والمسيحيون كصيارفة (١) •

وزاولت الطوائف الدينية العسكرية ببلاد الشام أعمال الصيرفة ، الى جانب نشاطهم الحربى ضد المسلمين الذين اشتهروا به • فالداوية ، بفضل ممتلكاتهم الشاسعة فى جميع انحاء غرب أوروبا ، كان لهم نشاط مصرفى مماثل ، اذ عهد اليهم بنقل الاموال من مكان الى آخر ، وايداع الأموال فى أحد البيوت التى تخص الداوية فى الغرب الأوروبى (٢) • ولقـــد عرف الداوية نظام الايداع والسحب ، والودائع النقدية والعينية الثمينة التى ترد الى صاحبها عند الحاجة اليها ، واصدروا الايصالات فى المعاملات المالية (٣) • ولم ينته القرن الثانى عشر ، حتى صار الداوية يمارسون عملية اقراض الأموال بفوائد مرتفعة واشتهروا بسمعتهم المالية ، مما جعل المسلمون يولونهم الثقة ، ويفيدون من خدماتهم •

وقد تحددت السياسة الضرائبية ببلاد الشام على أساس ان النشـــاط التجارى هو المصدر الأساسى للموارد المالية الاقتصادية ، تعتمد على التعامل التجارى والاتجار مع بلاد المسلمين ، لذلك فان الفرنجة أباحوا المرور للتجار والمسافرين ببلادهم • ولكى تخرج السلع المعاد تصديرها ، أو السلع الصناعية المحلية والمنتجات الزراعية ، لابد من دفع رسوم الصادر ؛ وفى حدود النظـــم الاقطاعية كانت السلع المستوردة والسلع الصناعية ، تصدم بضريبة ســـوق البيع ، ويتم المعاملة بالمثل بالنسبة للتجار المتجولين ، والتجار أصـــحاب الحوانيت ؛ وكان من المالوف أن المصنوعات المحلية ، لاسيما الأقمشة والاوانى

---

(١) Ibid. PP. 21 - 29
(٢) Cheyney : The Dawn of a New Era. PP. 45 - 61
(٣) Boissonnade : op. cit. P. 168
Lamb : The Crusades. P. 384

الخزفية والأشغال المعدنية ، لابد من دفعها ، ولاتصير صالحة للاستعمال الا بعد دفع الرسوم المقرر (١) • وقد أقام الصليبيون مواضـع « تمكيس » على حدود اماراتهم ؛ وأطلق المسلمون على « الجمرك » الديوان ، الذى تعددت مصادر دخله المالى ، فبعضه كان يجبى من القوافل لاسيما القادمة من مصر وبلاد العرب القاصدة دمشق ، وهى قوافل متواصلة السير ، فكانت الضرائب تجبى على أحمالها فى مدينة الداروم ، وهى محطـة للتفتيش والتقـدير « والتمكيس » (٢) •

ومن الملاحظ أن الصليبيين لم يسيروا على سياسة ضرائبية ثابتـه واضحة المعالم • ففى بعض الاحيان عمدوا الى زيادة الضرائب المقررة ، وذلك حين تستنفد الحرب قدرا كبيرا من الثروة العامة ، كما انهم قد يفرضون ضرائب اضافية اذا دعت احدى الضرورات الحربية ، كاقامة الاسوار ، أوترميم الحصون • وعلى الرغم من أن كتاب الديوان (الجمرك) من الصليبيين ، الا انه كان يتعين عليهم معرفة اللغة العربية لسانا وكتابة (٣) • ومما لا شك فيه ان الأمراء الصليبيين جنوا مبالغ ضخمة من وراء تلك الضرائب ، غيـر أنهم بددوها على الكنيسة والمنظمات الدينية الحربية ، وسمحوا أيضا لتلك الثروة أن تسيل من بين أصابعهم ، وتقع فى ايدى موظفين مبتزين ، كذلك استولت الطبقة البورجوازية التجارية الجشعة على جزء منها ؛ وعلى أية حال، فان ثروات ملوك بيت المقدس ــ بالرغم من قلتها ــ فاقت ثروات ملوك الغرب الأوروبى المعاصرين لهم (٤) •

ومن الجدير بالذكر ، أن الغرب الاوروبى اصدر قانونا بفرض ضريبـة على الممتلكات الشخصية عام ١١٨١ م ، سميت بضريبة صلاح الدين ، وهى

---

(١) Calandon : op. cit. PP. 349 - 350

(٢) نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٨٢ •

حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ١٥٢ •

(٣) حسن حبشى : المرجع السابق ، ص ١٥١ ــ ص ١٥٣ •

(٤) Thompson : op. cit. Vol. I PP. 406 - 408

محاولة مبكرة لفرض ضريبة من هذا النوع فى التاريخ الاقتصادى لأوروبا، كما أصدر فيليب أوغسطس عام ١١٨٤ م مرسوما بفرض ضريبة مماثلة (١). كما دفع العالم المسيحى فى الغرب الاوروبى ضرائب ، ارتبطت فى تطورها بالحروب الصليبية ، بعد أن فرضها بعض الملوك مثل لويس السابع ملك فرنسا ، وريتشارد الأول ملك انجلترا على رعاياهم العلمانيين والكنسيين من أجل الغرض الصليبى (٢) . وهكذا تكون الحركة الصليبية قد ساعدت على ايجاد تقدم ملموس فى النظم المالية فى الغرب الأوروبى . وهو تقدم له خطورته لانه يعتبر بداية ونواة لنظام الضرائب الحديث (٣) .

وقد خدمت الاسواق التبادل التجارى فى بلاد الشام على زمن الحروب الصليبية . ذلك أن وجود الكيان الصليبى ادى الى فتح البحر المتوسط ـ او بالأحرى اعادة فتحه فى وجه السفن الآتية من الغرب الأوروبى . وبالرغم من أن المسلمين تمكنوا من استعادة أراضيهم بعد أن وحدهم صلاح الدين الأيوبى ، فوجهوا الضربة اثر الضربة للصليبيين ، الا ان المسلمين لم يستطيعوا هز المركز الذى حصلت عليه المدن الايطالية فى الشرق (٤) . ونخرج من هذا الى أن التبادل التجارى ظل قائما ، سواء فى ظل الكيان الصليبى أم بدونه ، واعتاد الفريقان (المسلمون والفرنجة) عقد اسواق تجارية سنوية ، يفد اليها التجار دون نظر للفارق الجنسى أو الدينى (٥) . ومن الثابت أن موانىء الشام عقدت فيها تلك الاسواق فى مواسم ومناسبات معينة، حيث يصل اليها التجار من الشرق والغرب . كما أن المستعمرات الايطالية فى مدن الشام ، مارست التعامل التجارى فى تلك الاسواق ، كذلك لابد أن القناصل عقدوا الصفقات التجارية بالنقد والمقايضة والبيع المؤجل الدفع . والاسواق السنوية Fairs كانت احد الملامح الرئيسية للتنظيم الاقتصادى فى العصور الوسطى ، ولعبت دورا هاما فى القرن الثالث عشر ؛ وقد انتشرت تلك الاسواق

---

(١) Stubbs : Select Charters, pp, 188- 189

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٩ .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ١٢١٥ .

(٤) Pirenne : op. cit. PP. 31 - 32

(٥) حسن حبشى : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

فى جميع البلاد ، وتشابهت فى سمات اساسية واحدة ، الامر الذى جعلها تعتبر ظاهرة عالمية (١) • ومن الثابت ان الاسواق كانت مراكز للتبادل التجارى وجذبت اليها اعظم الاسواق السنوية بالمعارض الدولية ، التى يجد فيها كل تاجر الترحيب بصرف النظر عن بلده ، وتحتوى ايضا على كل سلعة تباع أو تشترى ، مهما كانت طبيعتها ، وبالاضافة الى ذلك ، فقد كان من المستحيل عقد اكثر من سوق أو اثنين خلال العام فى مكان واحد ، ذلك أن الاستعدادات لتلك الاسواق تأخذ مجهودا ضخما (٢) •

كذلك عقدت بالشام أسواق موسمية ، فى مواسم ورود التوابل من الشرق الاقصى ووسط آسيا لأسواق الشام ، وتخضع تلك الاسواق فى ذلك لمواعيد هبوب الرياح الموسمية ، وتتصل فى مواعيد سنوية لاتتغير ، وفى نفس الوقت تصل السفن الاوروبية من الغرب الاوروبى ، لحمل السلع فى مواعيد ثابته، وتعقد فى ذلك الوقت المزادات (٣) •

أما الأسواق المحلية الدائمة بالشام ، فهى التى لم ينقطع فيها البيع والشراء على مدار السنة ، ومن المكن أن ينطبق عليها اصطلاح «سوق دائم» لها أيام معينة فى الأسبوع ، تعقد فيه الصفقات التجارية • وقد غلب على السوق الاسبوعى صفة التخصص ، ببيع اصناف معينة من البضائع ، فهذا السوق يختص ببيع سلعة كذا ، وذلك يختص ببيع سلعة أخرى ••• وهكذا؛ ومن محاسن هذا النظام أن التاجر لم يستطع أن يشذ عن جيرانه برفع اسعار السلعة التى يتجر فيها ، لأن منافسيه على مقربة منه ، كما ان المشترى اذا لم يرقه صنف السلعة أو ثمنها ، فانه يستطيع أن ينتقل فى سهولة من متجر لآخر دون أن يتحمل أدنى مشقة • أما عيوب هذا النظام ، فأهمها ان المشترى اذا رغب فى شراء عدة اصناف مختلفة من البضائع ، فانه كان يجوب المدينة

---

(١) Pirenne : op. cit. P. 97

(٢) Loc. cit. & Pirenne :Medieval Cities.

(٣) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ٢٨٣ •

طولا وعرضا حتى يقضى حاجاته ، لانه لن يجد فى السوق الواحد سوى نوع معين واحد من البضائع (١) . ولم تترك حركة البيع والشراء فى تلك الاسواق دون رقيب أو حسيب . فهناك المحتسب الذى كان من اختصاصه الطواف بالسوق للتفتيش على البضاعة ، وضبط من يحاول التلاعب فى الاسعار أو الاوزان أوالمكاييل او غش السلع ، فضلا عن سرعة البت فى المخالفات التى ترتبط بالمعاملات التجارية . وقد اشترط فى المحتسب ان يكون ذا مهابة ، ثقة فى دينه وامانته (٢) .

وثمة نوع من الاسواق انفردت به بلاد الشام خلال الحروب الصليبية، كثيرا ما ورد ذكره خلال المعارك التى كانت تدور بين المسلمين والصليبيين، على عهد صلاح الدين الايوبى . وهذا النوع عرف باسم « سوق العسكر » ، اقتضت اقامته الاحوال العسكرية ، فقد كان من المألوف عند تخطيط المعسكر الاسلامى ، اول ما يفعل اقامة خيمة السلطان ومن حولها خيم امراء الجيش، ويشترط عند ضرب العسكر توافر المياه فى ايدى المسلمين ، والأزواد والكلا على تل أو قرية أو فى ارض سهلة (٣) . وفى المعارك التى دارت حول مدينة عكا (١١٨٩ ــ ١١٩١ م) ، شهدت تلك المدينة قيام معسكر للمسلمين ، سار فيه النشاط التجارى جنبا الى جنب مع النشاط الحربى ، ونستدل على ذلك من الوصف الذى اورده لنا الرحالة عبد اللطيف بن يوسف البغدادى (٤). عام ١١٩١ (٥٨٧ هـ) قائلا : « كان السوق الذى فى عسكر السلطان على عكا عظيما ، ذا مساحة فسيحة . فيه مائة واربعون دكان بيطار . وعددت عند طباخ واحد ثمانية وعشرين قدرا ، كل قدر تسع راس غنم . وكنت احفظ عدد الدكاكين لانها كانت محفوظة عند شحنة السوق واظنها سبعة آلاف دكان .. وكان فى المعسكر اكثر من ألف حمام . وكان اكثر ما يتولاه المغاربة ، يجتمع

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٩٦ ــ ص ٢٩٧ . المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ٨٦ .

(٢) الحسن بن عبد الله : اثار الاول ، ص ٦٥ .

(٣) نظير سعداوى : جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، ص ٥٩ ــ ص ٦٠ .

(٤) الافادة والاعتبار ، ص ٨ .

منهم أثنان أو ثلاثة ويحفرون ذراعين فيطلع الماء ، ويأخذون الطين فيعملون حوضا وحائطا ، ويسترونه بحطب وحصير ويقطعون حطبا من البساتين التى حوله ، ويحمون الماء فى قدور ، وصار حماما يغسل الرجل رأسه بدرهم وأكثر» . وخلال تضييق الصليبيين الحصار على المدينة ، أتى من قبل الملك ريتشارد قلب الأسد رسل طلبوا فاكهة وثلجا ، فضلا عن التفاوض من أجل الصلح ،وحدث أنهم دخلوا سوق العسكر ، « وتفرجوا فيه ، وعادوا تلك الليلة الى معسكرهم (١) » . ومن الطبيعى أن سوق العسكر كان مؤقتا يجتمع فيه التجار لمدة معينة ، عند حدوث معركة أو فرض حصار طويل ، فاذا ما انتهى الغرض منهما ازيل السوق ، ورحل تجاره .

ومن الافراد الذين اشرفوا على التجارة الخارجية فى الساحل الشرقى للبحر المتوسط القناصل التجاريين . وقد دعت الحاجة الى وجود القناصل عندما انتعشت التجارة الدولية ، وتطلب الوضع اقامة التجار فى موانىء الشام الفرنجية ، لذلك صار من الضرورى أن يقيم القناصل لرعاية التجار من مواطنيهم ، وحسم الخلافات التى قد تظهر بينهم . وأقدم القناصل فى الشام الفرنجى ، أولئك الذين عينتهم جنوة فى عكا عام ١١٨٠ م ؛ وقد كان هؤلاء القناصل يرأسون المحاكم الجنوية المحلية ، ويصادقون على توقيعات من مواطنيهم ، ويحسمون الخلافات التى تنشب بينهم (٢) . ويحرم على القنصل الاشتغال بالتجارة لحسابه او لحساب غيره ، ويرشح لوظيفة القنصل افراد من الاسر الكريمة ، وتجدد المدن التجارية قناصلها فى شرق البحر المتوسط عاما بعد عام ، وقد يستقر القنصل فى وظيفته ثلاث سنوات ، اذا زكاه مواطنوه التجار ، وكانت بعض الجمهوريات التجارية الايطالية لاسيما جنوه والبندقية ، ترسل لمراكز نشاطها التجارى ثلاثة قناصل ، بحيث يحل كل واحد مكان الذى تنتهى مدة خدمته ، وتهدف من هذا الى تفادى اشكالات الموت

---

(١) ابو شامه : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٨٧ .

(٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، جـ ٢ ، ص ٢٥٧ ، لبنان فى التاريخ ، ص ٣٨١ .

المفاجىء ، او صعوبة المواصلات احيانا ، وكذلك لزيادة مران القنصل في وظيفتـه (١) ٠

ولما كانت موانىء الشام الفرنجية قد استقبلت العديد من التجار من مختلف الطوائف والجنسيات والاديان ، فقد استتبع ذلك تعدد اللغات ٠ وفى تلك الموانىء استطاع المرء سماع جميع الالسنة لاوروبا الغربية ، والبلاد الاوروبية المطلة على البحر المتوسط ، لاسيما لغة التجار الايطاليين الذين زحموا الموانىء ، ومن المؤكد ان العديد من السادة الاقطاعيين ، بصرف النظر عن البولانيين (الافراخ) . كانوا على دراية باللغة العربية ، وهى معرفة لازمة للعلاقات باتصالهم والتجارة (٢) ٠ وقد درجت جنـــوه على ارسال تجارها ، ومن بعدهم مندوبيها الى اغلب الأقطار الاجنبية ، ومن ثم اضحى من الضرورى لها تعليم رجال الاعمال اللغات الاجنبية ، وفى المراكز التجارية لجنوة تواجد المترجمون ، من ذوى القدرة على قراءة وكتابة العربية او اليونانية أو الارمينية ٠ ودراية تجار جنوه ومندوبيها باللغات المتصلة اتصالا وثيقا بالطابع التجارى للمدينة (٣) ، ونظرا لتعدد اللغات التى تداولها التجار فى موانىء الشام الفرنجية ، فقد نشأت لغة مشتركة Lingua Franca ـ أو خليط ـ قوامها كلمات من اللغات الفرنسية والايطالية واليونانية والعربية ، كان يجرى التحدث بها فى موانىء البحر المتوسط ، وتشبه تلك اللغة المشـــتركة الرطانة الانجليزية فى الموانىء الصينية Pidgin English ؛ ويمكننا القول ان اللغة المشتركة كانت لغة التجارة فقط (٤) ٠

---

(١) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ٣٢٤ ـ ص ٣٢٥ ٠

(٢) Lammens : La Syrie Précis Historique. Vol. I P. 621

(٣) جاك هيرز : جنوه مثل لمدن البحر المتوسط فى العصور الوسطى ، ص ٥٩ ٠

(٤) Thompson : op. cit. Vol. I P. 398

الفصل الرابع

الفنون الحربية

اولا ـ النظم الحربية .

ثانيا ـ العمارة الحربية .

أولا ـ النظم الحربية :

يرى البعض فى الحروب الصليبية انها كانت فصلا من فصول الصراع بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى • وكان اللقاء الحربى أحد وجوه ذلك الصراع بين الفريقين الاسلامى والصليبى ؛ فريق أتى بقصد الغزو والاستيطان ، وفريق آخر وقف موقف المدافع عن أرضه وتراثه • وبين هذا وذاك ظهرت صورة الفنون الحربية لكل منهما ببلاد الشام •

ويلمس الدارس لأحوال الحملة الصليبية الأولى التى انتهت باستيلاء الصليبيين على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م أنها حملة اقطاعية بكل ما انطوت عليه ، قامت على أساس النظام الاقطاعى الغربى الذى ســاد أوروبا أواخر القرن الحادى عشر (١) • والخدمة الحربية للفرنجة فى الشرق تشبه ما جرت به العادة مع مثيلتها فى الغرب الاوروبى ، مع اختلاف طفيف أملته الظروف المستحدثة فى الشام • ففى مملكة بيت المقدس وجب على الفصل أن يؤدى ما عليه من خدمة ، وأن يجهز نفسه بكامل المعدات الحربية اذا دعى للخدمة ، بصرف النظر عن الحد الزمنى الذى تتطلبه الخدمة العسكرية (٢) • واذا كانت مدة الخدمة العسكرية محددة فى الغرب الاوروبى بأربعين يوما ، الا انها فى الشرق كانت بخلاف ذلك ، نظرا للتحدى المستمر من جانب المسلمين المحيطين بالصليبيين ، بالاضافة الى أن كل خدمة يؤديها الفصل كانت على نفقة السيد الاقطاعى (٣) •

ومن الناحية النظرية ، كان ملك بيت المقدس يَعتبر القائد الاعلى

---

(١) حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ، ص ٩٤ ـ ٩٩ ،

ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية فى الشرق الاوسط فى العصور الوسطى ، ص ٤٧

(٢) La Monte : Feudal Monarchy in the Latin Kingdom. PP. 141 - 142

العرينى : الاقطاع الحربى عند الصليبيين بمملكة بيت المقدس فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى ، ص ٥ •

(٣) العرينى : المرجع السابق ، ص ٦ ،

ابراهيم طرخان : المرجع السابق ، ص ٤٧ •

للجيوش ، يقع عليه عبء تنظيم الدفاع عن المملكة ، وله السلطة على الامراء والبارونات (١) • ولكن تلك السلطة كانت ناقصة مبتورة ، اذ انها تحطمت على صخرة فوضى البارونات الذين لم يمتثلوا للطاعة ، مما أدى الى الاخلال بالوحدة والنظام ، وانعكس الوضع على نتائج العمليات الحربية (٢) • وظهرت المنافسات بشكل آخر ، عندما تاتى حملات صليبية جديدة الى بلاد الشام فى اعداد ضخمة ، فيرفض رؤساؤها وضع أنفسهم تحت سيطرة ملك بيت المقدس ، ويقومون بمشاريع كانت تتصف بالطيش فى معظم الاحوال (٣) •

والقعود عن تادية الخدمة الحربية ، والتقاعس عن الاستجابة لدعوة الملك ، من الامور الخطيرة فى النظام الاقطاعى ، التى تستوجب معاقبة مرتكبها بسحب الثقة منه ، وفسخ العقد العرفى المعقود معه ، فضلا عن مصادرة املاكه (٤) • ويلاحظ المرء ان كبار الاقطاعيين الصليبيين فى الشام كانوا يرفضون احيانا تقديم الخدمة الحربية للملك ، بل ان البعض منهم لم يتردد فى الزحف بجيشه ضد الملك ، عندما تتعارض اطماعه ورغباته الشخصية مع رغبات الملك (٥) •

واذا كانت الخدمة الحربية هى الاساس الاول لحيازة الاقطاع عند الصليبيين ، وهو ما يتفق مع النظام الاقطاعى فى الغرب الاوروبى ، فاننا نجد نفس الامر عند المسلمين فى الشام على زمن الحروب الصليبية • والجدير

---

(١) Longnon : Les Francais d'Outre mer au Moyen Age. P. 122

العرينى : المرجع السابق ، ص ٥ •

(٢) Longnon : op. cit. PP. 122 - 123 & Chalandon : Histoire de la Premiere Croisade PP. 315 - 316

(٣) Chalandon : op. cit. P. 317

(٤) سعيد عاشور : اوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٥١ ، ٥٧ ،
العرينى : الاقطاع الحربى عند الصليبيين ، ص ١٤ •

(٥) Chalandon : op. cit. PP. 295 - 296

بالذكر هنا أن النظام الاقطاعى الحربى انتقل كاملا الى الدول التى نبتت وتفرعت فى احضان السلاجقة ثم ورثتهم من بعد ، وهذه الدول هى : الدولة الزنكية والدولة الايوبية ، ثم دولة المماليك (١) • وكانت القاعـــدة المألومة فى الدولة السلجوقية قائمة على اعطاء مرتبات المحاربين نقدا حتى منتصف القرن الحادى عشر (٢) • ثم أدى اتساع الدولة وصـــعوبة الهيمنة عليها ، وارهاق الادارة المالية بباهظ المرتبات ، الى تفكير وزير ملكشاه ــ نظام الملك ــ فى الاستعاضة عن المرتبات النقدية بالاقطاعات من الارض ، حتى صار الاقطاع الحربى هو القاعدة (٣) • غير أن النظم الاقطاعية فى الشـــرق الادنى لدى المسلمين اعترفت بوراثة الاقطاع ، لاسيما على عهد نور الدين محمود، فاذا حدث أن توفى أحد أجناده ، « وخلف ولدا ، أقر اقطاعه عليه » ، وان كان الولد كبيرا تولى حقوق اقطاعه وواجباته بنفسه ، وان كان صغيرا رتب معه السلطان رجلا وصيـــــا حتى يكبر (٤) • وقد أدى ذلك النظام الـــذى وضعه نور الدين محمود الى جعل الاقطاع الممنوح للجندى فى وضع مســـاو للملكية ، مما ادى الى تكالبه فى الدفاع عن نفسه والاستماتة من أجله ، فضلا عن تلبية نداء واجبات الحرب فى اسرع وقت ممكن ، اذا طلب منه ذلك (٥) •

ومن الواضح أن الخصائص الاستراتيجية للوجود الصليبى بالشام عقب سقوط بيت المقدس على ايديهم عام ١٠٩٩ م ، لم تزد على انها مجموعة

---

(١) ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية ، ص ٣٠ •
(٢) أبو الحسن على : اخبار الدولة السلجوقية ، ص ٦٨ •
(٣) الاصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٥٥ ،
نظير سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ، ص ٢ ــ ص ٣ •
(٤) ابو شامه : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٧ ــ ص ١٢٨ •
المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج ٢ ص ٢١٥ •
ابن الاثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ، ص ١٦٩ •
(٥) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٦٩ •
كرد على : خطوط الشام ، ج ٢ ، ص ٦٩ •
العرينى : الاقطاع فى الشرق الاوسط ، ص ١٤٢ ــ ص ١٤٣ •
ويبدو أن المرتبات النقدية ظلت موجودة فى العصر الايوبى فقد روى ابن مماتى فى كتابه قوانين الدواوين ، ص ٣٦٩ أن عبرة الاقطاعات المقدرة للجندى من الاتراك والاكراد والتركمان دينارهم الاقطاعى دينار واحد كامل •

متفرقة من المدن والقلاع ، انتظمت سويا فى وضع محفوف بالخطر • فدولة الصليبيين فى أقصى اتساع لها يمكن تشبيهها بشبه منحرف كبير امتد ضلعه فى الشمال من انطاكية غربا الى الرها شرقا ، وضلعه الايمن من الرها الى أيلة على البحر الاحمر ، وضلعه الجنوبى من ايلة الى غزة ، وضلعه الغربى من غزة الى انطاكية ، هذا مع اعترافنا بما فى هذا التشبيه من تجاوز ملحوظ، اذ ان الفرنجة امتلكوا أراضى ومدن خارج حدود تلك الرقعة (١) • والمعروف أن طول بلاد الشام من الشمال الى الجنوب لايتجاوز ٥٥٠ ميلا ، فى حين ان عرضها من البحر حتى الصحراء يتراوح بين مائة ومائة وخمسين ميلا (٢) •

أما الخصائص الاستراتيجية للوجود الاسلامى ، فامتازت باتساع رقعتها وطول خطوط مواصلاتها المتصلة شرقا وغربا ، ففى الشمال حلب وحماه ، والى الشرق منهما الموصل وقلاع الجزيرة ، وفى الغرب مصر وما وراءها غربا وجنوبا ، ثم ان القاهرة غدت فى عصر الايوبيين قاعدة للتدريب والتموين (٣) •

وقد أدرك الصليبيون منذ ان وطئت اقدامهم ارض الشام أنهم فى أمس الحاجة الى أراضى جديدة ، حتى يوطدوا مركزهم • ولا يتيسر ذلك الا اذا توافرت لهم القوة الحربية الكفيلة بتحدى المسلمين ، والقيام بأى عمل حربى ضدهم • ولانستطيع أن نعرف بالتحديد الاعداد التى احتوتها القوة الحربية للصليبيين ، ولكن على سبيل التخمين • فبعض مؤرخى الحملة الصليبية الأولى ، لم يسعه عند رؤية اعداد ضخمة من الرجال ، الا ان يقدر ذلك بمئات الالوف ، وزعم أن عدد قوات الحملة الصليبية الاولى يتراوح بين ٣٠٠ الف، ٦٠٠ ألف مقاتل (٤) • والبعض اقتصد فى تقديره ، فجعل القوة الحربية

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٤٧٧ •

(٢) Hulme : The Middle Ages. P. 481

(٣) نظير سعداوى : التاريخ الحربى المصرى ، ص ١٧٣ •

(٤) العرينى : الاقطاع الحربى عند الصليبيين ، ص ٣ •

الضاربة التى وقفت أمام اسوار بيت المقدس ليلة ١٣ ـ ١٤ يوليو عام ١٠٩٩م تبلغ ١٢ الف من الرجالة ، و ١٢٠٠ أو ١٣٠٠ من الفرسان (١) . ويشير وليم الصورى الى أن الجيش الصليبى فى عسقلان لم يتجاوز ١٢٠٠ فارس، وستون ألف راجل (٢) ؛ وذلك قبل أن يعـــود الكثير من الصليبيين الى بلادهم فى الغرب الاوروبى . ويذكر وليم الصورى ايضا أن جيش جودفرى (ت ١١٠٠) صار لايزيد عن ثلاثمائة من الفرسان ، وحوالى الفين من الرجالة (٣) . ومن الثابت أن اعداد المحاربين كانت مرتفعة فى الحملـــة الصليبية الاولى ، كما أن اعداد غير المحاربين كانت مرتفعة ، بمعنى أن الجيش الصليبى احتوى على اعداد هائلة من الفرسان والرجالة والصبية والشيوخ ورجال الدين والنساء ، ومن المرجح ان نسبة الوفيات من غيـــر المحاربين كانت مرتفعة خاصة بين الشيوخ والاطفال ، كما ان الفرسان حاقت بهم خسائر فادحة لتعرضهم للخطر خلال المعركة (٤) .

أما بالنسبة لتقدير حجم الجيوش الاسلامية ، فمن المستحيل علينا آن نقدر حجمها ، فالمؤرخون المسلمون مالوا الى المبالغة فى تقدير واحصاء عـــدد الجيوش والقتلى والجرحى والاسرى والمفقودين فى المعارك ، وهـــــم فى ذلك قد التقوا مع الصليبيين فى نقطة واحدة (٥) . ومن المحقق أن الجيـوش الاسلامية ، فاقت فى عددها الجيوش الصليبية ، وان الاخيرة لم تصل الى الحد الادنى من حجمها فى أى حال . وقد ذكر المقريزى ان الجيش النظامى لصلاح الدين تالف عام ١١٨١ م (٥٧٧ هـ) من ٨٦٤٠ فارسا ، منهم ١١ اميرا ، و ١٥٥٣ قراغلامية ـ وهم فرسان مزودون بأسلحة خفيفة ـ ، و٦٩٧٦

(١) Roymond of Aguilers, in R.H.C. Historiens Occidentaux, Vol. III P. 298

(٢) Recuil des Historiens Croisade. Historiens Occ., Vol. I P. 380

(٣) William of Tyre : A Hist. of Deeds Done Beyond the Sea. Vol. I P. 394

(٤) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ١ ص ٤٨١ ـ ص ٤٨٤ .

(٥) نظير سعداوى : ثلاثة من مؤرخى الحروب الصليبية ، ص ٢٢ .

من الطواشية ـ وهم فرسان مزودون بأسلحة ثقيلة ـ بالاضافة الى الاجناد الوطنيين الذين يتقاضون أرزاقهم من بيت المال (١) ٠

ولابد لنا فى مجال الحديث عن الفنون الحربية على زمن الحروب الصليبية أن نتناول الفئات التى تالف منها كل من الجيش الاسلامى والجيش الصليبى ٠

والواقع أن الجيش الاسلامى بلغ ذروة تنظيمه على عهد السلطان صلاح الدين الايوبى (١١٦٩ ـ ١١٩٣ م) ٠ ويلمس الدارس لذلك الجيش أن المصادر التاريخية المعاصرة أوردت لفظين هما العسكر والجند ، استخدما فى غير دقة ولا تحديد ٠ والمقصود من العسكر على عهد صلاح الدين الجيش النظامى ، أما الجند فهم الجيش الاحتياطى او الجيش الاقليمى (٢) ٠
ويقوم افراد الجيش النظامى أو الثابت بالخدمة الحربية بصفة دائمة ، ويتقاضون راتبا منتظما ، ولا يفارقون السلطان ، واحيانا يكلفون بحراسة القلاع والحصون والدفاع عنها ٠ وجعل صلاح الدين هذا الجيش من الاكراد والترك والتركمان ، وهم الذين اعتادوا حياة التقشف والخشونة ٠ وطريقتهم فى القتال أن يجعل كل منهم جزدان وجراوة وصواق وبقجة وتركاش ، ممتطيا جواده ويطلق عليهم الفرسان (٣)/ ٠ أما الجند فهم فى الحقيقة عساكر الامراء او مماليك الامراء او اجناد الامراء ٠ فكان على كل امير اذا نشبت الحرب، أن يشترك فيها بجنده ، وبمجرد أن تنتهى الحرب عادوا الى مراعيهم وخيامهم ، وهم لايتناولون اجرا ثابتا مثل العسكر ، ولكن يأخذون نصيبهم من الاسلاب والغنائم (٤) ٠ وفى الشام وجدت قوات عسكرية لكبار الطوائف الدينية كالدروز والحشاشين ، وتدخل تلك القوات فى عداد الجيوش الاقليمية٠

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٨٦ ـ ص ٨٧ ٠
(٢) نظير سعداوى : جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، ص ٨ ٠
(٣) المرجع السابق ، ص ٨ ـ ص ١٠ ٠
(٤) المرجع السابق ، ص ١٢ ٠

والى جانب هؤلاء ، تكونت فرقة حربية حديثة العهد عرفت باسم « الاحداث » أو أحداث المدن • وهم كثيرو الشبه بالحرس الوطنى فى العصور الحديثة ، وكانوا من الشبان المحاربين المتطوعين من ابناء المدينة ، كما كانوا يعيشون فى ظل نظام خاص ؛ واشتهر الاحداث فى دمشق بنشاطهم فى الوقوف ضد استبداد الحكام المحليين ، وكذلك فى الدفاع عن مدينتهم ضد الغزاه الاجانب ، وازدهر نشاطهم بشكل خاص فى الفترة الممتدة من القرن الرابع الى القرن السادس الهجرى (من القرن العاشر الى الثانى عشر الميلادى) (١) • واتخذ الاحداث رئيسا لهم ، وصارت الرئاسة ـ فى بعض الاحيان ـ تتوارثها بعض الاسر (٢) ، وعند قدوم الصليبيين الى الشام ساهم الاحداث فى توجيه الهجمات عليهم • واعتمد نور الدين محمود عليهم اعتمادا كبيرا فى حروبه مع الصليبيين ، على انه منذ بداية النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، صار الاحداث يسمون المتطوعة ، ومن ثم اختفت كلمة احداث ابتداء من عهد صلاح الدين الايوبى ، وحل محلها كلمة المتطوعين (٣) •

ولا ريب أن البدو العرب قد حاربوا ببسالة فى المعارك وحرب العصابات، والغارات المفاجئة ، فضلا عما قاموا به كأدلاء فى الصحارى لمعرفتهم بالدروب

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « الاحداث » ،
عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبى ، ص ٦٦ •
حامد زيان : حلب فى العصر الزنكى ، ص ١٠٦ ،
Ziadeh : Urban Life in Syria Under the Early Mamluks. P. 76

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « الاحداث » ،
حامد زيان : المرجع السابق ، ص ١٠٦ ـ ص ١٠٧ •
وقد حدث أن اختير رئيس أحداث حلب من بين اللصوص ، وذلك لدرايته باللصوص والشطار حتى يتعذر عليهم ممارسة نشاطهم داخل حلب (أنظر ابن النديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، ج ٢ ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩) •

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « الاحداث » ،
نظير سعداوى : جيش مصر فى ايام صلاح الدين ، ص ١٥ ـ ص ١٦ ،
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٥ •

والمسالك ، واستخدمهم صلاح الدين فى مواضع كثيرة ٠ على أن البعض منهم لم يكن مخلصا للجيوش الاسلامية ، ففى عام ١١٧٢ م (٥٧٨ هـ) توجـــه صلاح الدين من مصر بغرض محاصرة الكرك والشوبك ، فوجد جماعة من البدو نازلين بأرض الكرك ينقلون الاخبار الى الفرنج ، واذا اغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين (١) وبذلك طعنوا المسلمين من الخلف وآذوهم فى خطوط تموينهم ، وطرق مواصلاتهم طمعا فى المال ٠

ومهما كانت العناصر التى ساهمت فى تكوين جيش صلاح الدين ، فانه قسمه الى عدة فرق تشبه اللواءات فى وقتنــــا الحاضر ، وتنسب كل واحدة منها الى سلطان سابق،فيقال المماليك النورية نسبة الى السلطان نورالدين محمود أو تنسب الى احد القراد العظام السابقين ، فيقال المماليك الأسديةنسبة الى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين ٠ أما مماليك صلاح الدين ، فأطلق عليهم عــدة اسماء ، فيقال لهم المماليك الصلاحية نسبة اليه ، أو الناصرية نسبة الى لقبه الملك الناصر ٠ وقد تنسب الفرقة الى جنسية أفرادها ، فيقال الطائفة الكردية نسبة الى الاكراد ، ويتفرع منها طوائف أخرى مثل الهكارية والمهرانية والحمدانية والزرزارية (٢) ٠ ومعظم الجيش الايوبى كان من الاكراد، ولم يكن فى الجيوش النظامية من العناصر المصرية والشامية سوى ما يلحق الحملات الحربية عادة من الفقهاء والمقرئين والصناع (٣) ٠

على أن المصادر الأيوبية قد خلت من ذكر تفصيلات عن تقسيم تلك الطوائف الى أقسام أصغر منها ٠ ولكن ما جاء فى مراجع عصر دولة المماليك، وهو العصر الذى يمثل اكتمال النظم الحربية ، ما يلقى الضـــوء على تلك التفصيلات اذ أن اكابر الامراء من له امرة مائة فارس وتقدمة الف فارس ، ومن هذا الفريق يكون اكابر النواب ، وربما زاد بعضهم بالعشرة فوارس والعشرين؛ ثم امراء الطبلخانات ، ومعظمهم من يكون له امرة اربعين فارسا ، وقد يزيد

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٩٣ ٠
(٢) نظير سعداوى : المرجع السابق ، ص ٢٥ ــ ص ٢٩ ٠
(٣) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ١٢٢ ــ ص ١٢٤ ٠

على السبعين ، ثم امراء العشراوات ومنهم من يكون له امرة عشرون فارسا، ولا يعد الا فى امراء العشرات ؛ ثم جند الحلقة وهؤلاء لكل أربعين نفرا منهم مقدم (١) • وكان السلطان المملوكى ينعم على أمراء المئين بخيول مسرجة ملجمة ، ومن عداهم بخيول عرى ، ولجميع الامراء من المئين والطبلخاناه ، والعشروات ، الرواتب الجارية فى كل يوم من اللحم وتوابله كلها والخبز والشعير لعليق الخيل والزيت (٢) •

أما الجيش الصليبى ، فقد سبق القول أن ملك مملكة بيت المقدس كان على رأسه ، وهو القائد الاعلى للجيوش الصليبية حسب النظام الاقطاعى الاوروبى • وقد ساعد الملك فى مهام قيادة الجيش ثلاثة موظفين كبار وهم الكوندسطبل (الكونستابل) Le Connetable والمارشال Le Maréchal والقهرمان (السنجال) Le Sénéchal (٣) •

والكونستابل هو رئيس هيئة أركان حرب الجيش ، فهو الذى يجهز للملك رؤساء أو قائدى الجماعات ، وفى حالة غياب الملك عن المعركة ينوب عنه فى قيادة الجيش وتنظيمه من أجل القتال • وفى نفس الوقت يعتبر الكونستابل « الرئيس القضائى » فجميع رجال السلاح والفرسان وضباط النظام (السرجنديون) Sergents خاضعين لسلطته القضائية ، ويستطيع أن يضرب بعصاه أو مطرقته كل جنود المشاه او الخيالة الذين لايرجعون الى أصل نبيل فى حالة عدم اطاعتهم الاوامر، غير أنه ليس من حقه رفع يده على فارس من أصل نبيل متحالف مع الملك ، ولكن ذلك الفارس اذا ارتكب خطئا ما ، فان للكونستابل الحق فى قتل الحصان الذى يعتليه الفارس (٤) •

ويأتى المارشال فى المكانة بعد الكونستابل ، وعليه أن يقدم للاخير واجب الطاعة والاحترام ، ومهمة المارشال هى الاعتناء بتموين الجيش والتفتيش

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٤ ــ ص ٢١٥ •
(٢) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٥ •
(٣) Chalandon : op. cit. P. 318
(٤) Ibid. Loc. cit.

عليه ، وترتيب المعسكرات ، وتوزيع الغنائم بين اقسام الجيش المختلفة ؛ كما انه فى حالة غياب الكونستابل عن المعركة ، فعليه الوقوف الى جانب الملك حاملا الراية الملكية ؛ وللمارشال وظائف قضائية اقل مما للكونوستابل فهو يفصل فى قضايا الاتباع الصغار ، والمشرفين على الاصطبلات ، والخدم المرافقين للجيش (١) .

أما القهرمان أو السنجال ، فكانت اختصاصاته العسكرية تقل فى الاهمية عن الاختصاصات المناطة لكل من الكونستابل والمارشال ، والواجبات الملقاة على عاتقه هى فحص القلاع والحصون ، والعمل على أنتكون حاميات تلك الأماكن على أهبة الاستعداد ومعدة اعدادا كاملا ، فضلا عن توفير المؤمن لها ؛ ولا يحق للسنجال اذا اشترك فى معركة أن يقف الى جوار الملك ، وعليه ان يتسلم من المارشال حصة الملك فى الغنائم (٢) .

وقد وجدت ثلاثة اشكال من الجنود هم الفرسان من طبقة النبلاء ، والسرجنديون الذين يكونون المشاة والخيالة الخفيفة وهم ليسوا من طبقة النبلاء ، والتركبولية وهى قوات من الخيالة الخفيفة يتم تجنيدها من بين اهالى البلاد والوطنيين (٣) .

والتمييز وأضح بين طبقة الفرسان والطبقتين الاخيرتين ، فبالنسبة للفرسان وهم من طبقة النبلاء ، اعتبرت الخدمة الحربية ـ كما اسلفنا القول ـ التزاما شخصيا مرتبطا بالنظام الاقطاعى . فالفارس عندما يطلبه سيده الاقطاعى لاداء الخدمة ، ما عليه الا أن يلبى النداء مسرعا ، فيتقدم نفسه مسلحا امام سيده ومعه رجاله . وعلى الفارس أن يتحمل نفقاته ونفقات رجاله فى الحملة العسكرية ، واذا فقد حصانه أو اسلحته فلا بد أن ينال غيرهم وتلك الاسلحة كانت ـ على وجه التقريب ـ السيف والحربة فقط ، ومن عاداته

---

(١) Ibid. PP. 318 - 319

(٢) Ibid. P. 319

(٣) Ibid. P. 320

أن يقاتل دائما على ظهر حصانه (١) • وواجب الفارس فى وقت السلم أن يجهز عدته الحربية ، وأن يكون ورجاله على اهبة الاستعداد (٢) •

أما طبقة الاجناد (السرجندارية) فهى ليست سوى الرجالة ، الذين كان عددهم وفيرا ، وينتمون الى أصل فرنجى ، بيد أنهم لايعتزون بشرف المولد مثل الفرسان والنبلاء (٣) •

ولا يتبقى من القوات المساعدة فى الجيش الصليبى ، سوى التركبولية الذين يشكلون الخيالة الخفيفة La Cavalerie Légere وفى العادة كان يتم تجنيدهم من بين أهالى البلاد الاصليين،الذين ينتمون فى أصولهم الى العرب او الاتراك ، وهم يعينون تحت امرة المارشال الذى ينظم صفوفهم خلال المعركة ، ولا يتلقون الاوامر الا منه ، كما انه ليس عليهم مقدمون من جنسهم • ويبدو أن التركبولية استخدموا بوجه خاص فى مهام الاستطلاع (الاستكشاف) (٤) •

وعندما تم توحيد مصر والشام على يد صلاح الدين الايوبى ، واضحى الصليبيون فى الشام بين شقى الرحى ، اضطروا الى الاستعانة بالجند المأجورة أو المرتزقة، من أجل الدفاع عن بقائهم والمحافظة على فتوحات اسلافهم، بيد أن تكاليف الجند المرتزقة كانت تشكل عبئا باهظا على الصليبيين ، لم يستطيعوا احتماله على الدوام ، لقلة الموارد المالية (٥) • ومن المرتزقة من كان من الاهالى الوطنيين ، ومنهم من جاء من الغرب الاوروبى الى الشام وقبل الخدمة كمأجور (٦) • وهناك فئة أخرى من الجند المرتزقة ، تشكلت من الفرنجة المستقرين بالشام ، والدليل على ذلك أن والتر آفن Walter d'Avenes عند ارتحاله الى الغرب فى القرن الثالث عشر ، ترك وراءه اربعين فارسا ، بعد أن دفع لهم راتب سنة ، كما ان لويس التاسع خلف وراءه عند مغادرة الشام

---

(١) Ibid. P. 321
(٢) Ibid. P. 322
(٣) La Monte : Feudal Monarchy. PP. 160 - 161
(٤) Small : Crusading Warfare. P. 112
(٥) Ibid. P. 99
(٦) La Monte : op. cit. P. 160

عام ١٢٥٤ م مائة فارس (١) • على أن دفع رواتب الجند المأجورة يعتبر من المشاكل الخطيرة التى واجهت مملكة بيت المقدس ، بسبب ما تعرضت له فى كثير من الاحيان من الفقر وسوء الاحوال الاقتصادية ؛ وزخرت قوانين بيت المقدس بالاشارات الى حالات كثيرة توقف فيها السادة الاقطاعيون عن دفع مرتبات الجند (٢) •

ومما زاد فى قوة الجيش الصليبى بالشام أيضا ، ما جاء باستمرار من الغرب الاوروبى من صليبيين يجيش صدرهم بالتعصب الشديد ؛ وبالرغم أن ضررهم كان اكثر من نفعهم ، الا ان الفتوحات الصليبية كان من الصعب الابقاء عليها من غيرهم (٣) •

وفى الحرب كان فرسان المسلمين يهاجمون من على ظهور خيولهم ، وفى ايديهم الرماح ، وتميزت الخيول التى استخدموها فى القتال بصغر حجمها عن خيول الفرنجة ، كما أن الدروع التى يرتدوها كانت خفيفة (٤) • وقد تعلم الفرنجة من المسلمين مبدأ خفة الحركة فى القتال ، فالخيالة الثقيلـــة التى استخدمها الصليبيون ، اذا لم يساندها مشاة منظمين خاصة رماة الاسهم ، فانها تصير عديمة الجدوى فى الحرب ضد المسلمين المسلحين تسليحا خفيفا(٥) والحقيقة أن الفارس المسلم تميز بخفته فى المعركة ، فاذا تحرك وهو على فرسه فى المعركة ، مسيطرا على فرسه ، سريع الالتفاف ، يحس بمواطن الخطر فى حينها عند طلبه لعدوه اما مواجهة او محاذاة له (٦) • والسلاح الرئيسى الذى استخدمه المسلمون كان القوس ، ولكنهم حملوا أيضا الدرع والحربة والسيف

---

(١) Ibid. P. 161

العرينى : الاقطاع الحربى عند الصليبيين ، ص ١٧ •

(٢) العرينى : نفس المرجع والصفحة •

(٣) Carl Stephenson : Mediaeval History. P. 717

(٤) Duggan : The Story of the Crusades. P. 71

(٥) Hayes, Baldwin : Hist. of Europe. P. 235

(٦) ابن منكلى : سياسة الصناعات الحربية ، ورقة ٣٨ أ ،

بدر الدين الرماح : علم الفروسية (غير مرقم الصفحات)

والهراوة (١) • واستغل المسلمون مقدرتهم على التحرك السريع فى تطويق العدو والالتفاف حوله كما يفعل النحل بالضبط واذا لم يتمكنوا من ذلك ، فانهم كانوا يتفادونه ومن المؤكد ان هذا التكتيك يحتاج الى تفوق عددى ، بيد أنهم حرصوا على استخدامه دوما مهما قل عدد المحاربين (٢)» • حتى فى حالة التقهقر ، فان رماة السهام كانوا قادرين على أن يلتفوا الى الخلف بغتة ، من فوق صهوات خيولهم ، يصوبوا سهامهم تجاه مقتفى أثرهم من العدو (٣)•

ويفضل المسلمون خوض المعارك ضد العدو فى فصل الربيع ، لاعتدال مناخه ، بعكس الشتاء الذى يشـــــتد فيه هطول الامطار ، الامر الذى يبعث الملل والضجر فى نفوس العسكر من ناحية ، وحدوث الاوحال التى تعوق السير من ناحية أخرى (٤) • وتفاءل المسلمون بلقاء العدو يوم الجمعة عند الصلاة « تبركا بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر » (٥) • وجرت العادة أن تبدأ المعارك الحربية بين المسلمين والصليبيين فى الصباح الباكر ، وتنتهى عند المساء ، وان كان البعض يفضل ان تدور المعركة ليلا ، كى يتيسر للمحاربين الهرب تحت جنح الظلام فى حالة التقهقر • وقبل بداية المعركة ، كانت الاوامر تعطى بدق الطبول ثم النفخ فى البوق ، ويكبر المكبرون علامة على الاستعداد لمواجهة الاعداء ، وعند الضربة الثانية للطبول يأخذ الجند اهبتهم بخيولهم واسلحتهم ، وعند الضربة الثالثة يمتطون صهوة جيادهم ، ثم ينتظرون بقية الاوامر الصادرة اليهم (٦) • والجدير بالذكر هنا أن التكبير بصوت عال وأصوات الطبول من الصفات الحربية عند المسلمين ، التى افزعت الفرنجـــة وحازت اعجابهم فى آن واحد (٧)» •

---

(١) Shall : op. cit. P. 77

(٣) Small : op. cit. PP. 78 - 80

(٢) Ibid. P. 80

(٤) عماد الدين الاصفهانى : الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ص ٨٥ ، محمد بن تقى الدين الايوبى : مضمار الحقائق وسر الخلائق ، ص ١١١ ـ ١١٢ •

(٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٦ ص ١٧٤ •

(٦) نظير سعداوى : جيش مصر ، ص ٥٢ •

Small : op. cit. P. 75

وقد نجح المسلمون فى استخدام عنصر المفاجأة فى حروبهم مع الصليبيين، فكثيرا ماخرج الصليبيون للاحتشاش والاحتطاب بعيدا عنخيامهمومعسكراتهم، وما أن يتيقن الفرسان العرب انهم فى غفلة عن احتمال شن هجوم عليهم ، حتى ينقضون عليهم فجاة ، فيقتلون ويأسرون (١) • وكثيرا ما خرج الفرسان الصليبيون أيضا بعيدا عن قلاعهم وحصونهم بغرض اللعب والمرح ، وبمجرد أن يصل الخبر الى الفرسان المسلمين ، حتى يخرجوا اليهم ، فينقضون عليهم قتلا واسرا (٢) • والشواهد على ذلك عديدة ، من ذلك ماذكره أسامة بن منقذ أن الفرنجة نزلوا بشيزر ، وكان الماء بينهم وبين المسلمين زائدا لايمكن خوضه، فلما اطمان الصليبيون الى ذلك ، ترجلوا عن خيولهم وتركوها ترعى وهـــم نائمون • ولما فطن المسلمون بدورهم الى ذلك ، تجرد البعض منهم ، وسبحوا اليهم حاملين سيوفهم ، فقتلوا منهم وجرحوا بعضهم ، وانتشر الصـــياح بين الفرنجة (٣) • واستخدم المسلمون طريقة التسلل الى خيام الصليبيين ومعسكراتهم تحت جنح الظلام • فيفاجئون البعض منهمراقدا فى خيمتـــه والسكون منتشرا ، ويضعون السكين أو الخنجر على حلق الرجل وهو نائم • ثم يوقظونه ، ويقولون له بالاشارة ان الموت سيكون من نصيبه اذا رفـــع صوته او استغاث ويخرجون به الى معسكر المسلمين • وجرى ذلك مرارا كثيرة (٤) • وقد عرف اولئك الرجال الذين يدخلون معسكرات الصليبيين خلسة فى المصادر المعاصرة بلصوص المسلمين أو حرامية المسلمين• واطلق علىالفرنجة الذين يغيرون على خيام المسلمين للنهب والسلب ، بلصوص الفرنجة أو حرامية الفرنجة • وكثيرا ما كان حرامية المسلمين يخرجون طلبا لحراميـــة الفرنجـــة ! (٥) •

وجرت العادة أن يسبق المعركة حركة استكشاف الغرض منها الوقوف على حجم جيش العدو ، والتعرف على تحركاته ! وتعرف حركة الاستكشاف

---

(١) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ١٣٨ ، ١٤٦ ، ١٦٨ •
(٢) ابن منكلى : المرجع السابق ، ورقة ٢١ ب •
(٣) اسامه بن منقذ : كتاب العصا ، ص ١٩٧ ــ ص ١٩٨ •
(٤) ابو شامه : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٢ ، ص ١٨٦ •
(٥) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٨٨ ــ ص ٦٨٩ ، ابنجبير : الرحلة ، ص ٢٧٣ •

فى مصطلح الدولة الايوبية باليزك ، وهى تعنى طلائع الجيش ، وهى شبيهة بالاستطلاع فى الحروب الحديثة ، وقد يعهد الى اليزك مهمة مناوشة العــدو لاستدراجه الى معسكر المسلمين (١) •

واتخذ المسلمون عدة وسائل موفقة ، لنقل الاخبار بين فرق جيوشهم ، مثل وسائل البريد المعروفة على زمن الحروب الصليبية ، فضلا عن الجاسوسية، وهى ما تشبه المخابرات الحربية فى العصر الحديث • والواقع أن الفضل يرجع الى نور الدين محمود فى اتخاذه الحمام الهوادى لنقل الاخبار بالشــام سنة ١١٧١ م (٥٦٧ هـ) ، اذ رتب فى كل ثغر رجالا ومعهم الحمام ، بحيث اذا اقترب الفرنجة من أحد الثغور ، اتاه الخبر ليومه (٢) • وبنى أيضا الابراج على الطرق بين المسلمين والفرنجة ورتب لها من يحفظها ، ومعهم الحمام الزاجل ، فاذا رأوا العدو على مقربة ارسلوا الطيور ، فيأخذ الناس حذرهم • ومن الذين اهتموا بالبريد السلطان الظاهر بيبرس ، فقد حرص أن يشــرف اشرافا دقيقا على مختلف اجزاء دولته من جهة ، ومراقبة أعدائه من المغــول والصليبيين من جهة أخرى ، وفى عهده اضحت قلعة الجبل فى مصر مركزا لشبكة ضخمة من طرق البريد (٣) •

ومن وسائل الاتصال فى ذلك الحين ، استخدام امهر السباحين الذين يخترقون الحصار البحرى للعدو سباحة ، وعلى ظهورهم الكتب ونفقات الاجناد، ويعومون بالكتب المدونة بترجمة مصطلح عليها ، أى مكتوبة بالشفرة ، خوفا من وقوعها فى أيدى الاعداء (٤) • وعندما تعذر الاتصال بين حامية مدينة عكا وصلاح الدين الايوبى عام ١١٩٠ م (٥٨٦ هـ) ، انفذ اليهم عيسى العوام ، وعلى وسطه ثلاثة اكياس فيها ألف الف دينار ، فعام فى البحر ثم انقطعت

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب ، جـ ٣ ، ص ٤٨ •
نظير سعداوى : جيش مصر ، ص ٥١ ـ ص ٥٢ •
(٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٥٩ ،
أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ٥٢ •
(٣) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص ١٣٧ ـ ص ١٣٨ •
(٤) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ١٧٦ ـ ص ١٧٧ •
أبو شامه : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٥٢ •

أخباره ، ذلك انه اذا دخل البلد ، يصل طائر يعلن عن وصوله ، فابطأ الطائر ، فاستشعر صلاح الدين هلاكه ، وساورته الظنون ، وبعد ايام وجد عيسى العوام ميتا غريقا على طرف البحر ، وعلى وسطه اكياس النقود (١) ٠ كذلك استخدم المسلمون فى حروبهم التراسل بالنيران من على مسافات بعيدة ، وذلك بايقاد النار ليلا ، واثارة الدخان نهارا (٢) ٠ وأخيرا اذا ضاق الحصار بالمسلمين ، فانهم ــ احيانا ــ كانوا يحركون الاعلام والرايات بطريقة ما متفق عليها ، ليراها المراقبون من بعد (٣) ٠

اما عن التجسس فى الحروب ، وهو ما نطلق عليه فى العصر الحديث المخابرات الحربية ، فقد مارس المسلمون اعماله بشكل يبعث على الدهشة ، ويكاد أن يكون صورة مطابقة مما يجرى حاليا ٠ فقد استعان صلاح الدين الايوبى بالجواسيس (المخبرين) والمستأمنين من الصليبيين فى امداده بأدق التفاصيل عن حالة الجيش ، وامكانياته المادية والمعنوية ٠ واعتمد عليهم أيضا فى صحة الاخبار من عدمها ، فبينما كان واقفا بالقرب من بانياس عام ١١٧٩ م (٥٧٥ هـ) ، شاهد الابقار والاغنام جافلة ، وأتى له أحد الرعاة وأخبره انه شاهد الصليبيين ، ولكن السلطان استبعد ذلك قائلا : « لو كان ذلك صحيحا لجانا الجاسوس » ، وبينما هو كذلك ورد له من أكد صحة الخبر (٤) ٠ وتزخر المصادر المعاصرة بالحديث عن المستأمنين من الصليبيين الذين استعان بهم الايوبيون فى رصد تحركات الجيوش الصليبية، بل النساء استخدمن فى أعمال الجاسوسية لصالح الجيش الاسلامى ، فسبيللا وهى امراة فرنجية ، كانت جاسوسة تتقاضى دخلا من صلاح الدين ، مقابل ما تعطيه من معلومات عن قوة جيوش الفرنجة وتحركاتها (٥) ٠ وكان للملك المعظم عيسى بن العادل أبى بكر بن ايوب فى عكا « اصحاب أخبار واكثرهم

---

(١) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ٢٠٩ ٠
(٢) القلقشندى : صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، ج ١٤ ، ص ٢٩٨ ٠
(٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٨٧ هـ ٠
(٤) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ٢٠٤ ، ص ٢١٥ ، ص ٢٢٠ ٠
محمد بن تقى الدين الايوبى : مضمار الحقائق ، ص ١٦ ٠
ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ ٠
رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٩٤ ٠

نساء الخيالة ، فكانت طاقاتهم فى قبالة الكرمل ، فاذا عزم الفرنج على الغارة فتحت المرأة الطاقة ، فان كان يخرج مائة فارس اوقدت المرأة شمعة واحدة ، وان كانوا مائتين شمعتين ، وان كانوا يريدون حوران أو ناحية دمشق اشارت الى تلك الناحية ، وكذا الى نابلس ، فكان قد ضيق على الفرنج الطرق ، وكان يعطى النساء فى كل فتح جملة كثيرة (١) ٠ »

واذا كانت تحركات الجيوش الصليبية تصل الى المسلمين بواسطة الجواسيس والمستأمنين من الفرنجة ، فان اخبار المسلمين تصل ايضا الى بلاد الفرنجة بسرعة ٠ وقد برع الصليبيون فى التقاط الاخبار ، فكان اذا بلغهم حادث عن المسلمين ، يغيرون خططهم الحربية ؛ ومن الطبيعى انهم استخدموا افرادا من الأرض وغيرهم من المقيمين وسط المسلمين ، وربما كان للمسلمين يد فى ذلك طمعا فى مال أو انتقاما من سلطان (٢) ٠

ويذكر المؤرخون أن عماد الدين زنكى كان لايسمح لاى رسول ملك أن يعبر أراضى بلاده بغير أمره ، واذا استأذنه رسول فى العبور فى أراضى بلاده اذن له ، على شريطة أن يرسل اليه من يسير معه ، ولا يتركه يتصل بأحد من الرعية ، فكان الرسول يدخل البلاد ويخرج منها ولا يعلم عن أحوالها شيئا ، كما أنه اذا استغنى عن أحد من خدمه ، لايدعه يغادر بلاده خوفا من أن يدل على عورتها ويطمع العدو فيها (٣) ٠ والواقع أن خوف عماد الدين زنكى من أن يعرف العدو تجهيزاته ، هو ذاته التفكير الذى تأخذ به الجيوش الحديثة عن طريق الجاسوسية والمخابرات والطابور الخامس ٠

واذا اقترب فرد من حصن او معسكر للمسلمين ، كان عليه أن يذكر كلمة المرور وهى التى يقابلها فى التاريخ الحديث والمعاصر كلمة السر ٠ ولا أدل على ذلك من القصة الطريفة التى رواها أسامة بن منقذ ، ففى سروج أراد أن يدخل الحصن ، فرآه الديدبان (الحارس) فتصايحا :

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٦٢٢ هـ ٠
(٢) محمد كرد على : خطط الشام ، جـ ١ ، ص ٣٠٧ ٠
(٣) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٦٤٦ ــ ص ٦٤٧ ٠

— كلمة المرور ·

— أنا مؤيد الدولة ·

— معذرة يا سيدى ·· كلمة المرور ·

— اذن أين الجماعة ؟

— فى أقصى الوادى ·

— أى وادى ؟

— ســـروج ·

ويدهش أسامة من ذلك الحارس ، متهما أياه بالغباء ، لانه اخبره عن مكان الجماعة دون قصد منه ، وخاف من فرد اراد دخول الحصن ، فبتلك الطريقة ينفذ الى الافرنج خبايا المسلمين (١) ·

أما عن طريقة الصليبيين في الحروب ، لاسيما خلال احتدام المعركة ، فقد اعتمدت تماما على الفرسان الذين الفوا القوة الرئيسية فى الدفـــاع والهجوم (٢) · ومن الواضح ان الصليبيين لم يجيدوا أسلوب الكر والفر الذى اتبعه المسلمون فى معاركهم . كما لم يعرفوا فن المراوغة الذى أجاده المسلمون، اذ ولابد أن يهاجمهم العدو وجها لوجه ، واذا حدث أن ناوشهم العدو ، فان خيولهم سرعان ما يصيبها الاعياء بسبب ماينؤ به الفارس من ثقل · وعندما كانت تبدأ المعركة ، انهمك فيها الفارس الصليبى ، غير عابىء بغيره ، لأنه من الناحية الاجتماعية مساو لقائده ، الامر الذى يعطيه الحق فى أن يستخدم رأيه الخاص (٣) ، وتحركه الذى يراه · ولمـــا كان على الفارس أن ينهض بأعباء نفسه ، ويجهز مستلزماته ، فقد أحضر معه عددا من الخدم والسواس للعناية بأسلحته وخيوله ؛ ومع أن هؤلاء الرجال كانوا قليلى الفائدة فى المعركة ، الا أنه كان لاغنى للفارس عنهم (٤) · ومن الملاحظ أن الصـــليبيين

---

(١) احمد كمال زكى : اسامة بن منقذ ، ص ٤٨ ـ ص ٤٩ ·

(٢) Chalandon : op. cit. P. 324

(٣) Duggan : op. cit. P. 39

(٤) Ibid. P. 39

استفادوا خلال اللقاء الحربى مع المسلمين ، وخرجوا بتجارب جديدة عليهم • فعندما اشتبك الصليبيون الأوائل فى معارك مع العرب والاتراك ، أدركوا أن خيالة الاخيرين اخف حركة من خيالتهم ، كما أنها كانت ــ قبل بداية المعركة ــ تلقى الاضطرابات والفزع فى صفوفهم بغطاء من السهام ، مما سبب لهم أضرارا بالغـــة (١) •

والحقيقة أن الصليبيين لم تكن لديهم خبرة أو معرفة بوسائل القتال عند المسلمين • فاثناء زحفهم فى آسيا الصغرى ، فى اليوم الثالث من مغادرة نيقيه (٩ يوليو ١٠٩٧ م) ، قام الاتراك بهجوم مفاجىء مريع ، وهـــم يصرون على اسنانهم ، ويصرخون صرخات عالية ، ويرددون بصوت عال ــ وصفوه بأنه شيطانى ــ نداء الله أكبر ••• الله أكبر (٢) • ونتيجة لذلك اعترف الصليبيون ببسالة الاتراك فى الحروب ، واعتقدوا انه كان من الممكن الا يدانيهم قوم فى بسالتهم ، لو تاتى لهم الايمان بالديانة المسيحية (٣) ومن المسلمين من أثنى على شجاعة الصليبيين ، مثل اسامة بن منقذ الذى شهد بانهم يتميزون بفضيلة الشجاعة والقتال فقط (٤) •

ولم يهتم فرسان الطوائف الدينية العسكرية بمظهرهم ، فقد ترفعوا عن ارتداء الملابس الأنيقة ، ونادرا ما كانوا يغتسلون ، لايمشطون شـــعر رءوسهم تراهم اشعثين مغبرين ، اكتسبت بشرتهم لونا داكنا بسبب ثقل اسلحتهم وحرارة الشمس ، ولم تكن اسرجة خيولهم مزخرفة بأية زينة ، لأن كل تفكيرهم انحصر فى المعارك ، والأمل فى احراز النصر (٥) •

ونظرا لما كانت تعانيه مملكة بيت المقدس الصليبية من نقص شديد فى القوة البشرية ، طوال مدة تواجدها فى الشام ، فقد أدى ذلك الى انخراط

---

(١) Chalandon : op. cit. P. 324

(٢) Gesta Francorum, P. 18

(٣) Gesta Francorum, PP. 20 - 21

(٤) اسامه بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٣٢ •

(٥) Fedden : Crusader Casules, P. 34

النساء الصليبيات فى صفوف القتال الى جانب الرجال ، وهن فى أردية الفوارس • ولم يتبين المسلمون حقيقتهن الا بعد ان وقع البعض منهن فى الاسر ، وتعرض للعرى والتفتيش (١) •

ومن المعروف ان الخيل لعب دورا هاما طوال فترة العصور الوسطى ، فى زمن السلم والحرب معا • ولم يكن فى الامكان استخدام اى فرس للقتال، لأن فرس الحرب يختلف عن الفرس العادى • فالأول تم تدريبه بعناية بالغة على خوض المعارك ، ولهذا كان غالى الثمن ، من الصعب استبداله ؛ ومن اهم الصفات التى تميز بها فرس الحرب سرعة اندفاعه فى الهجوم ، اذا لمست أصابع الفارس سيور اللجام لمسا خفيفا من خلف درعه ؛ وفى العادة كان يتم اختيار فرس الحرب من نوع الذكور لقوته وفحولته ، على الرغم مما كان يسببه من ازعاج فى المعركة (٢) • ومن الامور التى كانت تعيب الفارس ، أن يعتلى صهوة جواد غير مدرب على الاساليب الحربية (٣) • وكما نعلم ذاع صيت الأتراك السلاجقة كرعاة للخيل ، واحتفظ كل منهم بمجموعة من الخيول مع نسائه واولاده على مقربة من مكان المعركة ، حتى يكون فى استطاعة فارس ما ان يتراجع أو ينسحب مؤقتا من المعركة ، لاستبدال فرسه بآخر اكثر نشاطا • ومن أجل هذا كان الجيش التركى يزخر بالحركة والجرى المستمر ، فى الوقت الذى كان فيه الفرسان الفرنجة ينهكون خيولهم الحربية (٤) • وقد فطن نور الدين محمود الى ضرورة تدريب الخيل ،بمزاولة لعبة الكرة التى كان مولعا بها ، كى يدمن الجواد اسلوب الكر والفر (٥)•

ومن البديهى أن رداء الفارس وعدته ، اضافا عنصرا هاما فى اثبات كفاءة

---

(١) أبو شامه : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٤٩ ، ص ١٥٨ ،
ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٥ هـ ،
مجير الدين الحنبلى : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، جـ ١ ص ٣٦٢ •

(٢) Duggan : op. cit. P. 39

(٣) ابن منكلى : سياسة الصناعات الحربية ، ورقة ١٧ أ •

(٤) Duggan : op. cit. PK 41

(٥) النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ ١ ، ص ٦١٠ •

الفرس فى القتال · وقد اشرنا من قبل الى ان الفرسان المسلمين تخففوا فى ملابسهم ، مما ادى الى تحمل الفرس « قوة المشوار » ، والعدو مسافات طويلة (١) ، وسهولة تحركة فى خفة ورشاقة · والقوس أهم سلاح حارب الأتراك به ، وهو مصنوع من قرنين لظبى على شكل « قوس كيوبيد » ، والى جانب ذلك ، سيف وحيد الحد ، أعقف قليلا ، استخدمه المحارب التركى عند الالتحام مع العدو ؛ هذا ولم يحدث أن ارتدى ذلك المحارب زردية معدنية كما فعل المحارب الصليبى (٢) ·

أما الفارس الصليبى ، فقد كان على صهوة فرسه لايزيد عن الخبب والنقل ، اذا أفلت خصمه لايتابعه ، ولايلج فى طلبه (٣)، ومرجع ذلك الى ثقل عدته التى تعوق حركة فرسه · وقد اعطانا مطرز بايو Bayeux Tapestry وأنشودة رولان ، قسطا وافرا من المعلومات عن التجهيزات الحربية للفارس الأوروبى فى القرن الحادى عشر ، وهى التى ظهرت أيضا فى الحملة الصليبية الأولى (٤) · ففى الجزء الاعلى من جسم الفارس المحارب ، الفيناه مرتديا صدرة مزردة Hauberk بلا أكمام ، تتألف من حلقات معدنية مركبة على أرضية من الجلد ، روعى فيها أن تكون مشقوقة طوليا من أسفلها — من أمام وخلف — حتى لاتعوق الفارس عن امتطاء فرسه (٥) · وكان الفارس يضع على رأسه خوذة حديدية مخروطة الشكل من الصلب ، لها قضيب معدنى عمودى فى المقدمة ، يمتد الى اسفل لحمايته من ضربات سيف خصمه (٦) · وقد تطورت تلك الخوذة التى ظهرت فى مطرز بايو الى أخرى أسطوانية الشكل ذات حجم اكبر ، تغطى كل الرأس والوجه ، ولاتترك الا فتحة أو فتحتين

---

(١) بدر الدين الرماح : علم الفروسية (مخطوط غير مرقم الصفحات) ·

(٢) Duggan : op. cit. PP. 41 - 42

(٣) أسامه بن منقذ : كتاب العصا ، ص ١٩٩ ·

(٤) Archer : The Crusades. P. 354

(٥) Duggan : op. cit. P. 38

سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٦٦ ·

(٦) Archer : op cit. pp. 355 - 356

ـ عندما يكون مقدمها مدلى الى أسفل ـ للرؤية والتنفيس ، غير أن عيبها يكمن فى استحالة معرفة الصديق من العدو خلال المعركة (١) • والقليل من الفرسان ارتدى سروالا قصيرا مزردا له مقعدة من القماش ، تجعل الفارس فى وضع مريح على السرج ، بيد أن الغالبية ارتدت سراويل مبطنة (محشوة) تنتهى حتى الكاحل ، وبها مهاميز حادة طويلة (٢) • ومن فوق كتف الفارس الايمن يتدلى نطاق ، معلق به درع يأخذ ـ غالبا ـ شكل الطائرة الورقية ، واحيانا شكل مستطيل او دائرة ، مصنوع من خشب الزيزفون أو الدردار المغطى بالجلـــد ، له مقبض بارز فى الوســـط ، ويبلغ طوله أربعـة أقدام تقريبا (٣) • وبسبب ثقل الدرع ، لايستطيع الفارس تحريكه فى سهولة ، فى وقت ينبغى أن تكون يده اليسرى مشغولة بسيور لجام الفرس • وعلى أية حال ، متى كان الدرع فى وضعه الصحيح ، فانه يقوم بتغطية الفارس من رقبته حتى ركبة الساق اليسرى ؛ وربما نقش على الدرع تصميما زخرفيا ، لان الشعارات الحقيقية على الدروع لم تكن قد اتخذت بعد (٤) •

ومن الواضح ان الرداء السابق دفاعى ، الغرض منه حمـــاية الفارس وصيانة جسده ، ومن ثم كان لابد ان يستكمل المحارب جهازه بعدة أسلحة هجومية يستخدمها فى مقاتلة خصومة (٥) • وأعم تلك الاســـلحة السيف والحربة والبلطة • والسيف لم يكن له طول ثابت ، فاحيانا يتراوح فى الطول بين ثلاثة وأربعة أقدام ، واحيانا أخرى بين قدمين وثلاثة ، وهو ذو حافتين، مثبت فى قراب على الجانب الايسر من المحارب (٦) • أما الحـــربة فكانت مصنوعة من خشب الدردار أو التفاح ذات راس مستدق يأخذ شكل ورقـــة

---

(١) Duggan : op. cit. P. 38

(٢) Ibid. Loc. cit &
Archer : op. cit. PP. 356 - 357

(٣) Archer : op. cit. P. 357

(٤) Duggan : op. cit. P. 38

(٥) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، جـ ٢ ، ص ٦٦ •

(٦) Archer : The Crusades. P. 357
Duggan : op. cit. PP. 38 - 39

الشجر أو مكعب ، ويبلغ طولها ثمانية أقدام (١) • وأخيرا البلطة التى كانت سلاحا هجوميا ضئيل القيمة فى الحروب الصليبية ؛ ومن الذين حملوا البلطة جنود شيخ الجبل زعيم الحشاشين كما ذكر جوانفيل (٢) •

وقد أتى الفرنجة الى الشام بالقذاف أو القوس القذوف Balista — arbalest-une arbalete الذى استخدم فى الحملة الصليبية الأولى ، ويتميز بدقته ، وهو عبارة عن قوس ونشاب ضخمين ، له القدرة على اطلاق سهام حديدية قصيرة ، تبلغ فى سمكها أربعة أضعاف السهام العادية ، ولا تستطيع الدروع مقاومة الاسهم التى تنطلق منه ، لما لها من قوة اختراق • وقد أشارت أنا كومنينا لهذا السلاح بانه « اداة شيطانية بكل ما فى تلك الكلمة من معنى » ، كما أنه كان السلاح المفضل لريتشارد قلب الأسد ؛ وبسبب فعاليته لم يتمكن صلاح الدين الايوبى من الاستيلاء على طرسوس عام ١١٨٨ م (٣)•

وعلى الرغم من حرص الفارس الصليبى على وقاية نفسه ، « من لبسه الزردى من قرنه الى قدمه كأنه قطعة حديد » ، فان فرسه كان هدفا طيبا لسهام المسلمين ، واذا حدث أن هلك ، انهارت قوة الفارس (٤) • والجدير بالذكر فى هذا الصدد ، أن اصابة خيول الفرسان الصليبيين أو هلاكها أو استيلاء المسلمين عليها، كان يحتم على ملوك بيت المقدس أن يتحملوا تبعية تعويضها، وهذا هو المعروف بنظام التعويض restor الذى يعتبر من أهم خصائص النظام الحربى عند الصليبيين (٥) • وشبيه بذلك النظام ما كان متبعا خلال حكم سلاطين المماليك ، فقد كانت الخيول السلطانية تفرق على المماليك

---

(١) Archer : op. cit. P. 357

(٢) Loc. cit.

(٣) Loc. cit. & Fedden : op. cit. P. 39

(٤) ابو شامه : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٨ ،
العرينى : الاقطاع الحربى عند الصليبيين ، ص ١٢ •

(٥) العرينى : المرجع السابق ، ص ١٢ ــ ص ١٣ •

السلطانية ومقدمى الحلقة ، فمن نفق له فرس من المماليك ، يحضر بقطعة من لحمه ، ويأتى بشهود ، فيعطى بدله (١) ٠

واللياقة البدنية كانت ضرورية للجند ابان الحروب الصليبية ، فهى تكسب الجسم المرونة والرشاقة والنشاط ٠ ومن أهم مظاهر الفروسية عند المسلمين لعبة الكرة ، تلك اللعبة التى كان يميل اليها نور الدين محمود ، فضلا عن براعته فيها ، واجادته لها على ظهر فرسه (٢) ٠ وقد كان فى ممارسة تلك اللعبة وامثالها ، رياضة للخيل والجند معا ، وتدريب للجند على الصبر وتحمل المشاق فى الحروب من جهة ، وتمرين لهم على اصابة الهدف من جهة اخرى (٣) ٠ واتضح بعد نظر نور الدين محمود ، عندما رأى أن حياة الجيوش لاتقتصر على الحرب فحسب ، حتى لاتصير مشقة لايطيقها الجنود ، بل لابد أن يتخللها فترات من الراحة يقوم فيها الجنود ببعض التمرينات الرياضية ، وهو فى ذلك يقول : « ولايمكننا ايضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا ، شـــتاء وصيفا ، اذ لابد من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها ، صارت حماما لاقدرة لها على ادمان السير فى الطلب ٠٠٠ (٤) » ٠ ومن فوائد تلك اللعبة الرياضية ، ملء النفس بالفرح والسرور عند الفوز والاحساس بلذته، ونشر روح التعاون بين الاصحاب (٥) ، لانها لعبة جماعية ، بعيدة عنروح الفردية والانانية ٠ وأخيرا فانها كانت نوعا من عبادة الله ، والتقرب اليه ، وتقوية للجند الذين عليهم أن يجاهدوا فى سبيل الله ، باجسام قوية ، وأخلاق سامية (٦) ٠ وقد اشاد أسامة بن منقذ بفضل هواية الصيد فى تربية فتيان المسلمين ، واعدادهم للجهاد فى سبيل الله ضد الصليبيين ٠ وفى عهد صلاح الدين الايوبى ، اضحت هواية الصيد رياضة محببة ، فيها الكثير من أعمال

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٥ ٠
(٢) أبو شامه : الروضتين ، ج ١ ، ص ٨ ٠
(٣) عبد اللطيف حمزه : ادب الحروب الصليبية ، ص ٢٣٨ ٠
(٤) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٦٤ ـ ص ١٦٥ ٠
(٥) الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٢٨ ـ ص ١٢٩ ٠
(٦) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٦٥ ،
عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ، ص ٢٣٨ ـ ص ٢٣٩ ٠

الحركة ، وانبعاث للتفكير السليم ، لما تتطلبه بعض المواقف من سرعة البديهة وحضور الذهن (١) •

أما عن التربية الاجتماعية فى المعسكر الاسلامى ، فقد حرص صلاح الدين الايوبى ـ كقائد عسكرى ـ على أن تسود روح المودة والسرور بين جنده ، ودأب على معاملتهم باحترام ، باسطا لهم افخر الثياب ، مقدما لهم أطيب التحف ، صانعا لهم اشهى الاطعمة ، وفى الليل يعرض عليهم التسلية البريئة كالرقص والغناء والضرب على الدفوف والطبول والزمامير (٢) •
وتدعيما للقوى الروحية ، وحرصا من القائد على مصلحة جنده ، فقد منع أى شخص من التعرض لنساء الاجناد ، وفى ذلك يقول عماد الدين زنكى : « ان جندى لايفارقونى فى اسفارى ، وما يقيمون عند أهليهم ، فان نحن لم نمنع من التعرض الى حرمهم هلكن وفسدن (٣) » •

وثمة نوع من الترويح عن الجنود الفرنجة ، استنكره المعاصرون من المسلمين ، ورأوا فيه ضربا من الانحراف والخروج عن جادة الصواب ، لمخالفته الواضحة للشريعة الاسلامية • ففى عام ١١٨٩ م (٥٨٥ هـ) وصلت سفينة الى ميناء عكا على ظهرها ثلاثمائة امرأة فرنجية على قسط وافر من الحسن والجمال ، وذلك بقصد الترفيه عن الجنود ، خاصة العزبان منهم ؛ أما العجائز من النساء ، فكان دورهن الغناء والانشاد لتحريض الرجال على الحرب ، وبعث الشجاعة فيهم (٤) •

والروح المعنوية من مبادىء الحرب التى لاغنى عنها لاحراز النصر ، فبفضلها امكن انقاذ موقف المسلمين المتهالك ، وانتزاع النصر من براثن

---

(١) الاعتبار ، ص ١٩٦ ،
نظير سعداوى : جيش مصر ، ص ١٠٤ •
(٢) نظير سعداوى : جيش مصر ، ص ١٠٤ •
(٣) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٨٤ •
(٤) أبو شامه : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٩ ،
العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ١٦٩ ـ ص ١٧١ ،
مجير الدين الحنبلى : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٣٦٢ •

الهزيمة . ولا يغيب عن البال فى هذا الشان ، موقف الجيوش الصليبيـــــة والجيوش الاسلامية اثناء الحروب الصليبية . فالاولى تسعى للفتح والقهر والاستيلاء ، والثانية تدافع عن حقها فى حياة حرة كريمة ، وتطهير ارضها من المحتل الغاصب .

ولا شك أن الخطبة الدينية التى يقصد بها اثارة الشـــــعور الدينى للمسلمين خلال فترة الحروب الصليبية ، كانت تسمع فى صلاة الجمعة وصلاة العيدين ، وفى أوقات الفتوح الكبرى ، وأوقات المحن القاسية التى كان يتعرض لها المسلمون عقب اى هجوم للفرنجة ، ودخولهم مدينة هامة من مدن الاسلام فى مصر أو الشام (١) . فكثيرا ما تولى ائمة المسلمين تحريض الجموع على قتال الكافرين (الصليبيين) ، فضلا عن نقد بعض ملوك المسلمين الذين قصروا فى الحرب ، أو تساهلوا مع الفرنج ، كما حدث ذلك عند التنديد بالملك الكامل الايوبى فى اعطائه القدس للامبراطور فردريك الثانى (٢) . ومن امثلة الوعظ الدينى التى كانت تبدو كجزء من برامج الدعاية السياسية ، واثـارة الحمية الاسلامية ابان الحروب الصليبية ، ما فعله سبط بن الجوزى ، فقـد ذكر للناس بجامع دمشق ، أن امرأة ارسلت له شعرها لتجعله قيدا للخيل فى سبيل الله ؛ ولما سمع الناس ما فعلته المرأة ، قطعوا شعرهم وصـــاحوا طالبين الجهاد فى سبيل الله (٣) . وكان المسلمون اذا اسوا تهاونا من الحكام المسلمين ، بصدد الجهاد ضد المسلمين ، اجتمعوا ومعهم رجال الدين ، وتوجهوا الى المساجد لاعلان احتجاجهم ، كى تصل صرخاتهم الى الحكام . ففى أول جمعة من شعبان سنة ٥٠٤ هـ (١١١٠ م) سار جماعة من أهل حلب ومعهم الفقهاء والصوفية الى جامع السلطان ببغداد لطلب الجهاد ، ومنعوا الناس من الصلاة بضجيجهم ، وكسروا المنبر فوعدهم السلطان بانفاذ العساكر للجهاد ، ثم قصدوا فى الجمعة التالية جامع الخليفة وهم يبكون ويستغيثون ، واحدثوا فوضى فى الجامع ، فبطلت الجمعة ، ووصل الخبر الى الخليفة ، فارسل بدوره

(١) عبد اللطيف حمزة : نفس المرجع ، ص ٢٠٣ .

(٢) نفس المكان .

(٣) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ، ج ٥ ، ص ١١١ .

الى السلطان الذى أمر الامراء بالاعداد للجهاد (١) • ولم يكتف رجال الدين بحث الحكام والرعية من المسلمين على قتال الفرنجة ، بل منهم من قرن القول بالعمل ، ضاربا بذلك أسمى وأروع مثال للتضحية • من ذلك ما حدث فى عام ١١٤٨ م (٥٤٣ هـ) ، عندما حاصر الفرنجة دمشق ، فخرج اليهم الاهالى والعسكر لقتالهم ، وفيمن خرج للقتال الفقيه يوسف الفندلاوي على الرغم من كبر سنه ، فلما رآه معين الدين أنر اشفق عليه ، وطلب منه العودة، ولكنه اجابه « قد بعث واشترى منى » ، وهو يقصد بذلك قول الله تعالى : (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة (٢)) • وتقدم للقتال حتى استشهد (٣) •

هذا من ناحية المسلمين ، اما من ناحية الصليبيين ، فعندما كان اليأس يبدأ يخيم على وجوههم ، ويترك انطباعا مؤثرا فى قلوبهم ، فانهم يلجأون الى رفع الروح المعنوية للجنود ، بأسلوب مغاير لأسلوب المسلمين ، وذلك باختلاق المعجزات والرؤى والأحلام التى يظهر فيها السيد المسيح عليه السلام • ففى اثناء حصار الترك لأنطاكية فى المدة من ٥ يونيو الى ٢٨ يونيو ١٠٩٨ م ، بلغ من ضيق الحصار ، ان اضطر الفرنجة لأكل الخيول والحمير ، اتى احد القسس لزعماء الفرنجة ، واخبرهم أنه رأى فى منامه السيد المسيح عليه السلام ووالدته السيدة مريم ، ومعهم بطرس سيد الحواريين ، واقترب منه المسيح وسأله اذا كان يعرفه ، ولما رد بالنفى ، عرفه بنفسه ، ووعده بالمساعدة ، فضلا عن احراز النصر على المسلمين (٤) • ومن الرؤى التى احدثت دويا هائلا بين صفوف المسلمين ، رؤية أحد الحجاج الصليبيين واسمه بطرس خلال حصار الترك لانطاكية ، فقد تراءى له

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٢ •
ابن خلدون : تاريخه ، القسم الثانى ، المجلد الخامس ، ص ٤١١ ــ ص ٤١٢ •
(٢) سورة التوبة ، آية رقم ١١١ •
(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٤٣ ،
أسامه بن منقذ : الاعتبار ، ص ٩٤ ،
سبط بن الجوزى : مراة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٩٧ ــ ص ١٩٩ •
(٤) Gesta Francorum, pp. 57—58.

القديس اندراوس ، ودله على الحربة التى طعن بها السيد المسيح حين رفع على خشبة الصليب ، كما تبدى له خلال حصار كربوغا للصليبيين بانطاكية (١٠ يونيو ١٠٩٨ م) ، وأخبره بانه سينتصر على اعدائه (المسلمين) (١)٠ ولقد عزا الصليبيون هذا النصر الى قدرة فوق طاقة البشر ، حيث أبصر البعض كتيبة تنزل من السماء عليها هالات قدسية من النور ، تقدمت الصفوف ، وتسلقت السلالم والأسوار ، ورمت فاصابت ، وهذا تعليل يدل على مدى العقلية التى كانت تسيطر على القوم (٢) ٠

ولكن تعبئة الروح المعنوية والشعور الدينى أخذت طابعا آخرا عند الصليبيين الغرض منه اثارة الغرب الاوروبى ، فى الوقت الذى اشتد فيه ضغط المسلمين على الصليبيين ٠ فعقب الانتصارات التى حققها صلاح الدين الايوبى ، وانتهت باستيلاء المسلمين على بيت المقدس ، أرسل الفرنجة عام ١١٨٩ م (٥٨٥ هـ) الرسل الى الغرب يطلبون ارسال نجدات ٠ ولكى يثيروا المشاعر ، رسموا صورة للمسيح ، والى جانبه رجل عربى يضربه ، وجعلوا الدماء تسيل على وجه المسيح ، وادعوا أن الرجل العربى الذى يضرب المسيح هو نبى المسلمين (محمد صلى الله عليه وسلم) ، مما ادى الى مجىء الحشود الهائلة من الغرب الاوروبى ، بهدف استنقاذ بيت المقدس من المسلمين (٣) ٠ وفى عام ١١٩٠ م (٥٨٦ هـ) ، حدث أن رسم صاحب صور صورة أظهر فيها قبر المسيح ، وعليه فارس مسلم يمتطى صهوة فرس ، وقد بال الفرس على القبر (٤) ٠ وبالطبع آذت تلك الصورة مشاعر المسيحيين وفتنتذ الى حد بعيد ، ومن المؤكد أن العديد منهم انخدع بها ، خاصة اذا علمنا أن العصور الوسطى هى عصور الايمان ٠ وما فعله الصليبيون خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر من دعاية سياسية مخالفة للحقيقة ، فعله الصهاينة

---

(١) Gesta Francorum, pp. 59—60.

(٢) حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ، ص ٦٢ ــ ص ٦٣ ٠

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٨٥ هـ ،
ابن بهادر : فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر ، ج ١ ، ورقة ٢٩ ٠

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٠ ٠

فى نزاعهم مع العرب فى القرن العشرين ، عندما سلبوا فلسطين ، وامطروا العالم بدعايتهم المسمومة ٠

وعلى الرغم من الروح العدائية التى سادت العلاقات بين المسلمين والصليبيين ، فان المجال انفتح فى بعض الاحيان لاتصالات سلمية ، تتخللها روح المودة والتآلف ، خاصة بعد انقضاء السنوات الاولى من الوجود الصليبى بالشام ٠ فقد اختلفت الروح المتبادلة بين الفريقين فى نهاية القرن الثانى عشر ، عما كان عليه الوضع عندما اتت الحملة الصليبية الاولى (١) ٠ ويتضح ذلك مما يرويه أبو شامه من أن الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال بعد ساعة (٢) ٠ ولم يقتصر الأمر على الكبار ، بل تعداه الى الصغار ، فأمام عكا عام ١١٨٩ م (٥٨٥ هـ) ، صار صبيان من المسلمين ، يخرجون لمصارعة صبيان الصليبيين ، واستطاع أحد صبيان المسلمين أن يضرب صبيا من الصليبيين ويأسره ، فاسترده الصليبيون بدينارين (٣) ٠

وفى بعض الأحيان ترجع فترات الهدوء النسبى التى تخللت الحروب الصليبية الى عقد هدنة بين المسلمين والصليبيين من جهة ، وتبادل المحادثات بين الفريقين من جهة أخرى ٠ واشتهر الصليبيون غالبا بنقض الهدنة باعتراف مؤرخيهم ، ففى فبراير ١١٥٧ م (ذى الحجة ٥٥١ هـ) ، نقض بلدوين الثالث الهدنة التى عقدها مع المسلمين من أجل الحصول على قطعان من الأغنام والماشية والخيل ، كانت تنتج بالقرب من بانياس ، الامر الذى أثار سخط نور الدين محمود (٤) ٠ ويبدو أن الملوك من الفرنجة كانوا لايحلفون على استقرار أمر هدنة ما ، أما عظماء الفرنجة أو كبار الامراء ، فلا غضاضة أن يقسموا اليمين على احترام أى هدنة تعقد بينهم وبين المسلمين ، فعندما جنح المسلمون والصليبيون الى المسالمة عام ١١٩٢ م

---

(١) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٢٣١ ـ ص ٢٣٢ ٠
(٢) ابو شامه : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٤٣ ٠
(٣) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ١٤٦ ـ ص ١٤٧ ،
ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ١٠٨ ـ ص ١٠٩ ٠
(٤) William of Tyre : op. cit. Vol. pp. 255—256

(٥٨٨ هـ) ، وتحالفوا على احترام الهدنة ، لم يحلف ريتشارد قلب الاسد لرسل السلطان صلاح الدين الايوبى ، ولكنهم « اخذوا يده وعاهدوه ، واعتذر بان الملوك لايحلون » ، وحلف غيره من كبار الفرنجة ، كذلك وصل رسل الفرنجة الى السلطان ، واخذوا يده على الصلح ، واستحلفوا أولاده ، واخاه واكابر أمرائه (١) ، واملا فى اكتساب الوقت لصالح كل من الفريقين ، استغرقت المفاوضات بين صلاح الدين وريتشارد — قبل الموافقة على الهدنة — وقتا طويلا (٢) ٠

واذا انتقل الباحث لدراسة الاسرى وشئونهم ، الفينا اختلافا واضحا بين سلوك المسلمين تجاه أسرى الصليبيين ، وسلوك الصليبيين تجاه أسرى المسلمين ٠ فمن وقع فى الأسر من الصليبيين فى ايدى المسلمين ، يدون فى سجلات ديوان الاسرى اسمه وجنسيته وديانته ، ويذكر ايضا من يتم الافراج عنه اما بمقتضى مرسوم ، واما بالهداية الى الدين الاسلامى (٣) ٠ ومعاملة الاسرى على زمن الحروب الصليبية ، لم تعرف اتفاقيات دولية كاتفاقية جنيف مثلا الخاصة بمعاملة الاسرى ، أو اى هيئات دولية أخرى تشرف على منكوبى الحروب من الاسرى ، وانما ترك مصيرهم تحت رحمة الغزاة المنتصرين ، يتصرفون فيهم قتلا واسترقاقا ، وبيعا وشراء ، كيفما شاءوا (٤) ٠ وتشير المصادر الى أن نور الدين محمود ، عندما وقع ملك الفرنجة فى أسره ، أشار عليه الامراء ببقائه فى أسره خوفا من شره ، ولكن نور الدين طلب منه ثلاثمائة الف دينار فى نظير ان يطلق سراحة ، فافتدى ملك الفرنجة نفسه ، وسلم المبلغ لنور الدين ، فبنى به مارستانا ومدرسة ، ودارا للحديث.

---

(١) ابو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٨٢ — ص ٨٣ ،
ابن بهادر : فتوح النصر ، ج ١ ، ورقة ٣١ ٠

(٢) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ٢٥٤ ،
Harold Lamb : The Crusades. p. 130.

(٣) الجزرى : تاريخ الجزرى ، ج ٢ ص ١١ ،
نظير سعداوى : جيش مصر ، ص ٦٩ — ص ٧٠ ٠

(٤) نظير سعداوى : جيش مصر ، ص ٦٧ — ص ٦٨ ٠

بدمشق (١) • وكان الحكام المسلمون والخيرون يفتدون أسرى المسلمين من الصليبيين ، طمعا فى ثواب الله وابتغاء لمرضاته ، وقد دأب أسامة بن منقذ على دفع مبالغ للصليبيين مقابل اطلاق سراحهم (٢) • ويتضح جليا انســانية صلاح الدين ومرؤته فى الاسلوب الذى عامل به الاسرى ، عقب سقوط بيت المقدس فى ايدى المسلمين عام ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ؛ فلم تتعرض دار من الدور فى المدينة للنهب ، ولم يحل مكروه بأحد من الاشخاص (٣) • بل أخذ باليان كل ما فى بيت المال لدفع ما وعد به من اموال الافتداء ، وقدرها ثلاثون الف دينار، ولم يخرج الاسبتارية عن شىء من اموالهم الا بصعوبة ، ولم يحفل البطريرك الابنفسه ،ودهش المسلمون حينما رأوا البطريرك هرقل يؤدى عشرة دنانير ، مقدار الفدية المطلوبة منه، ويغادر المدينة بقامة منحنية لثقل مايحمله من الذهب• وقد كان من الجائز ان ينجو من الاسترقاق الوف عديدة من المسيحيين ،لو أن الاسبتارية والداوية والكنيسة كانوا اكثر سخاء • ولم يلبث أن تدفق من أبواب المدينة طابوران من المسيحيين ، تألف الاول من اولئك الذين افتدوا انفسهم ، والثانى من اولئك الذين عجزوا عن افتداء أنفسهم ، ولذا توجهوا الى الاسر ومن المناظر التى دعت للاسى ، ما حدث من التفات العادل الى أخيه صلاح الدين يطلب منه اطلاق سراح الف اسير ، على سبيل المكافأة عن خدماته له فوهبهم له صلاح الدين • وجعل صلاح الدين للبطريرك سبعمائة اسير ليعتقهم ، كما جعل لباليان خمسمائة اسير • ثم أعلن صلاح الدين انه سوف يطلق سراح كل شيخ ، وكل امرأة عجوز ، وبذل للارامل واليتامى من خزائنه العطايا كل بحسب حالته (٤) • وما فعله صلاح الدين الايوبى يناقض تماما ما قام به

---

(١) النعيمى : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٦١١ ،
سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣١١ •

(٢) الاعتبار ، ص ٨١ ــ ص ٨٢ •

(٣) Lane-Poole : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem. p. 230.

(٤) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ٤٣ ــ ص ٤٤ ،
ابو الفدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ٧٢ ــ ص ٧٣ ،
ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٨٣ هـ ،
ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٣ ــ ص ٣٢٤ ،
ابن خلدون : تاريخه ، القسم الثالث ، ص ٦٧٥ ــ ص ٦٧٩ •

الصليبيون الغزاة فى الحملة الصليبية الاولى ، فعلى ايديهم بلغ عدد الضحايا نحوا من سبعين الفا (١) . ولكن صلاح الدين اتبع مع اسرى الاسبتار والداوية سياسة خاصة ، اقتضت قتل كل من يقع منهم فى الاسر ، بسبب ذلك تنكر فرسان هاتين الطائفتين للمبادىء الانسانية التى كرسوا حياتهم من اجلها ، ولما عرف عنهم من التعصب الأعمى ، وسفك دماء المسلمين ، « ولانهم أشد شوكة من جميع الفرنج (٢) » .

وطالما لقى الاسرى المسلمون فى المعسكر الصليبى العناء والمشقة ، ولا يجد الباحث وثيقة دامغة ابلغ مما دونه الرحالة ابن جبير ، بوصفه حال أسرى المسلمين قائلا : « ومن الفجائع التى يعانيها من حل بلادهم هم أسرى المسلمين يرسفون فى القيود ، ويصرفون فى الخدمة الشاقة تصريف العبيد ، والاسيرات المسلمات كذلك ، فى اسوقهن خلاخيل الحديد ، فتنفطر لهم الأفئدة ، ولا يغنى الاشفاق عنهم شيئا (٣) » وثمة تصرف قام به ريتشارد قلب الأسد ، دل على افتقاده روح الانسانية ، وبغضه للاسلام ، واعاد بذلك الى الأذهان السيرة السيئة لريمودى شاتيون (٤) . ويتضح هذا التصرف فى الاتفاق الذى عقد بينه وبين صلاح الدين الايوبى، وانتهى الى تبادل الاسرى، وارجاع الصليب الحقيقى ، وتعهد المسلمين بدفع غرامة حربية . ولكن ريتشارد ، فضلا عن أنه سلك طريق المماطلة والتسويف ، أنهى المفاوضات ، وأحضر زهاء ثلاثة آلاف اسير مسلم عزل أمام تل العياضية ، وذبحهم عن آخرهم فى ٢٠ اغسطس ١١٩١ م (٥٨٧ هـ) ، « وغشى المسلمين بذلك حزن عظيم » وأين هذا من انسانية صلاح الدين وكرمه النبيل ، الذى خفف من كارثة حطين بالنسبة

---

(١) Gesta Francorum, p. 91.
فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ ـ ص ٢٢٩ .

(٢) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ٢٢ ،
ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٨٣ هـ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٨٠ .

(٤) Grousset : Histoire des Croisades. T. III p. 60.

للفرنجة ، بل حتى عندما سقط ريتشارد مريضا ، ارسل له صلاح الدين شرابا مثلجا ؛ تلك المآثر الكريمة ، رد عليها ملك انجلترا بمذبحة (١) •

ومن الملاحظ ندرة افتداء أسرى الصليبيين بالمال ، ومرجع ذلك في الغالب الى أن اولئك الاسرى خليط من اجناس وشعوب أوروبية مختلفة ، لم تنصهر فى بوتقة واحدة ،بالاضافة الى تفكك الروابط الاسرية والقومية ، وانعدامها بين الاوروبيين (٢) • كذلك اذا وقع فارس الاسبتارية او الداوية لم يكن تدفع له فدية ، اذا ما وقع فى الأسر ، وقد اتبع هذا التقليد فى بداية الوجود الصليبى بالشام ، ولكن ذلك الأمر لم يستمر ، تبعا لتغيير الظروف الخاصة بقوانين الهيئتين ؛ ومما يدل على ذلك أن وفدا من الداوية والاسبتارية ذهب الى سلطان مصر الصالح أيوب لتقديم فدية اسراهم (٣) •

وقد استخدم أسرى المسلمين والصليبيين ، ممن يتمتعون بأجسام قوية ـ على السواء ـ فى بناء العمائر الحربية (٤) ، وهى التى سنلقى الضوء عليها بالدراسة فى السطور القادمة •

***

---

(١) ابو شامه : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٩ ،
Grousset : op. cit. T. III p. 61.

(٢) نظير سعداوى : جيش مصر ، ص ٨١ ـ ص ٨٢ ،

(٣) نبيله مقامى : فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ص ١٦٨ •

(٤) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٣٢ ،
فريد أبو حديد : تاريخ صلاح الدين وعمره ، ص ١١٠ •

ثانيا ــ العمارة الحربية :

استطاع الصليبيون فى بادىء الامر ، أن يحرزوا انتصارات على المسلمين، لكنها فى الواقع لم تبعث فى نفوسهم الثقة ، ولا التفاؤل بالمستقبل ، فضـــلا عن أنهم لم يطمئنوا الى مصيرهم وبقائهم فى الشرق الأدنى (١) • واذا نحن استثنينا الطرفين الشمالى والجنوبى للبقعة التى احتلها الصليبيون ، لوجدنا ان معظم البلاد التى استولوا عيها ، كانت تطل على الساحل ، اما البـــــلاد الداخلية ، فقد ظلت فى ايدى اصحابها المسلمين ؛ وايضا اذا كانت بعض المدن الداخلية الكبيرة مثل حلب ودمشق وحماه ، دفعت الجزية للصليبيين حينا بعد آخر ، الا انها لم تخضع لسيطرتهم قط (٢)؛ • حتى فى الامـــــارات التى انشاها الصليبيون ــ الرها وانطاكية وطرابلس وبيت المقدس ــ فانهم كانوا اقلية بالنسبة لسكانها ، واضحت الجاليات اللاتينية كمراكز محصورة محاطة بالاعداء ، وناهيك بالنزاع الذى كان قائما بين تلك الامارات (٣) •

ونظرة فاحصة الى بلاد الشام ، توضح لنا تناثر الحصون والقلاع بشكل يدعو الى الدهشة ، لا سيما فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ واول ع:د زاهر لتشييدها بدا فى العقد الثانى من القرن الثانى عشر ، زمن بلدوين الثانى (١١١٨ ــ ١١٣٠ م) ، واستمر زمن فولك انجو (١١٣٠ ــ ١١٤٣ م) ؛وتمتد تلك القلاع بين جزيرة « الجرية » (جزيرة فرعون وتقع شمال خليج العقبة) وسلسلة جبال امانوس شمالى الشام (٤) • وما بنى من قلاع وحصون خلال فترة الحروب الصليبية ، بلغ من ضخامة العدد ، مالم يبلغه من قبل سواء فى العصر الرومانى او البيزنطى ، او خلال الحكم العربى للشام (٥) •

---

(١) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٥٥ •

(٢) نفس المكان •

(٣) فيليب حتى : المرجع السابق ، ص ٣٥٥ ــ ص ٣٥٦ •

(٤) Deschamps : Le crac des Chevaliers. p. 44.

عبد الرحمن زكى : القلاع فى الحروب الصليبية ، ص ١٩ •

(٥) عبد الرحمن زكى : القلاع فى الحروب الصليبية ، ص ١٩ •

ولا شك أن الاوضاع الجغرافية للشام لها أثر كبير فى اختيار مواقع القلاع والحصون الكبيرة ، خاصة الاستراتيجية ؛ فنظرة الى خريطة الشام للاراضى التى تمتد بين صيدا وانطاكية ، يتبين لنا أهمية المواقع التى بنيت فوقهـا تلك القلاع (١) • فجبال لبنان ترتفع ارتفاعا شاهقا مفاجئا ، يصل فى بعض الاحيان الى عشرة آلاف قدم ، وجبل العلويين الى الشمال من لبنان ، على الرغم من أنه اقل ارتفاعا من جبال لبنان ، الا أنه وعر تماما (٢) • وعلى ذلك فقد رؤى ضرورة بناء القلاع من صيدا الى انطاكية ، عند المرات القليلة التى تربط بين الساحل وداخلية البلاد ، فشيدت قلعة صهيون بحيث تغطى الطرف الشمالى من جبل العلويين ، والمرقب بنيت حيث تتجه سلسلة الجبال نحـو الساحل مكونة ممرا ضيقا بين الجبال والبحر ، وحصن الاكراد وصـافيتا وعكار وغيرها من القلاع ، كل منها تسيطر على ثغرة حيوية بين أقصى الطرف الجنوبى لجبل العلويين أول استحكامات لبنان (٣) وعلى طول سلسلة جبال لبنان نفسها ، لم تكن هناك اى حاجة لبناء قلعة كبيرة ، فقلعـة شقيف ارنـون Belfort ، تحدد لنا نهاية تلك السلسلة ، وتقوم بحراسة المر الذى يخرج منه نهر الليطانى متجها ناحية البحر (٤) •

أما فى الجنوب حيث توجد فلسطين ، فان الدفاعات الطبيعية لها أقـل تأثيرا ، لذلك استدعت الحاجة تشييد قلاع كثيرة ؛ وكان هناك خط دفاع أول للدفاع عن الأرض شبه الصحراوية فى شرق الأردن ، فالصبيبة فى جنوب جبل الشيخ لكشف أى تقدم من جهة دمشق ، وحصـن الكرك الذى شـيد فى صحراء البتراء ، فقد هيأ موقعه السيطرة على الطرق الوحيدة السالكة الممتدة من مصر وغربى شبه الجزيرة العربية الى بلاد الشام ؛ والشوبك فى صحراء الاردن وشمال خليج العقبة (٥) • أما خط الدفاع الثانى فكان فى غرب نهر

---

(١) Feddan : Crusader Castles. p. 21.

(٢) Loc. cit.

(٣) Fedden : op. cit. pp. 21—22.

عبد الرحمن زكى : نفس المرجع ، ص ٦٥ •

(٤) Fedden : op. cit. p. 22.

(٥) Loc. cit.

رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٧٠ ـ ص ٣٧١ •

الأردن ، ويرتكز على قلعتى تبنين Toron وصفد Saphet بالاضافة الى انه يشرف بالتتابع على الطرق المؤدية من الاردن الأعلى الى صيدا وعكا ، وكوكب Belvoir ى تشرف على المخاضة الهامة الى الجنوب من طبرية (١) . والى أبعد نقطة جنوب وادى نهر الاردن نفسه والبحر الميت شيدت قلاع منيعة : كذلك شيدت عثليث (قلعة الحاج (Chastel Pelerin) أحد القلاع الرئيسية على ساحل البحر ، حيث تحتضنها الأمواج من ثلاث جوانب (٢) .

ولكن لماذا قام الصليبيون بتشييد ذلك الحشد الهائل من القلاع والحصون وأبراج الحراسة فى الشام ، خلال الفترة التى نتناولها بالدراسة ؟ ولماذا كرسوا الكثير من وقتهم ونشاطهم ومهاراتهم منذ اللحظة الاولى من أجل اقامتها ؟ ربما كان مجىء الصليبيين الى الشام يتفق مع بداية الحقبة التاريخية الكبرى لبناء القلاع فى أوروبا ، فالبرج الابيض فى لندن ، وهو نموذج اولى للحصون التى ظهرت فى الغرب الاوروبى ، بنى فى عام ١٠٧٧ م ، بالاضافة الى أن كل اقطاعى فى غرب اوروبا له قلعته التى تحميه ، ومملكة بيت المقدس الصليبية لم تكن الا صورة من الاقطاع الاوروبى فى الشرق الأدنى (٣) . ولكن هناك أسباب ملحة تفسر قيام الصليبيين بتشييد الوفير من الابنية الدفاعية . وهذه الاسباب لانجدها الا فى موقع المملكة اللاتينية نفسها .

فبعد أن عبرت جيوش الحملة الصليبية الاولى جبال طوروس عام ١٠٩٧م، وحتى طرد البقايا الصليبية فى اغسطس عام ١٢٩١ م ، من المشاهد أن المملكة اللاتينية شكلت موقعا فريدا ، بمعنى انها احتلت موقعا يجعلها ـ باستمرار ـ

---

(١) Fedden : op. cit. p. 22

بنى هيوسانت أومر قلعة تورون المعروفة حاليا باسم تبنين ، على جبل يشرف على الطريق الذى يربط بين صور وبانياس ودمشق ، أما صفد فقد شيدها فولك عام ١١٤٠ م بأعلى طبرية ، على أهم مواقع الفرنجة الواقعة بين عكا والاردن . انظر :

Grousset : Hist. des croisades et du Royaume Franc des Jerusalem. Vol. II p. 138.

(٢) Fedden : op. cit. p. 22

(٣) Fedden : op. cit. p. 10.

عبد الرحمن زكى : نفس المرجع ، ص ٥١ .

عرضة للهجوم من جيرانها المسلمين (١) • فأراضى الصليبيين التى امتدت من الجنوب الى الشمال ، وضمت كونتيه طرابلس وامارة انطاكية وامارة الرها التى ظلت خمسين عاما ، يبلغ طولها من اربعمائه الى خمسمائة ميلا تقريبا ، وفيما عـدا اقصى الطرف الشمالى ، فقد كان عرض المملكة الضيق يسبب خطورة ، اذ أنه يتروا‌ح بين خمسين وسبعين ميلا ، فمثلا كان امتداد امارة الرها لايزيد عن ٢٥ ميلا (٢) • وعلى الجانب الصحراوى الطويل لهذه الدولة الساحلية ظلت مدينتا دمشق وحلب الاسلاميتين القويتين ، دون أن يتمكن الفرنجة من الاستيلاء عليهما ، بل شكلتا قاعدتين خطيرتين ، استطاع المسلمون الانطلاق منهما ، لتوجيه الهجمات العنيفة والضربات المتواصلة لتلك الدولة (٣) • ومن الطبيعى أن الموقف الحربى العام كان يتغير تماما ، لو أن الصليبيين بدلا من اندفاعهم بحذاء الساحل فى الطريق الى بيت المقدس ، اتجهوا نحو الشرق واستولوا على دمشق قاعدة الشام ، ولكنهم اضاعوا تلك الفرصة ، وكلفهم ذلك الكثير ؛ فلو حدث أن نجحوا لكانت الصحراء حدا فاصلا، يفصل مملكة بيت المقدس عن هجمات المسلمين من الشرق ، تلك الصحراء التى يبلغ طولها ثلاثمائة ميل ، والتى تعوق تقدم أى جيش (٤) • ولكن الصليبيين ادركوا خطأهم المميت بعد فوات الاوان ، وبذلك ظل المسلمون قابلين للحركة باستمرار ، على الجانب الطويل المكشوف لمملكة اللاتين ، الامر الذى أدى الى ضرورة قيام نظام دفاعى •

وهناك سبب أبعد وأشد خطورة ، جعل الصليبيين يبنون القلاع الهائلة، ذلك هو النقص فى القوة البشرية • فالجيش الصليبى الذى خرج من نيقية عام ١٠٩٧ م كان ضخما بالنسبة للجيوش المعاصرة ، ولكن الخسائر عند دوراليوم كانت ضخمة أيضا ، بحيث أن الجيش الذى فرض الحصار على انطاكية ، كان يتراوح بين خمسين الفا ومائة الفا (٣) • وعندما أوشك

(١) Fedden : op. cit. p. 11.
(٢) Loc. cit.
(٣) Loc. cit.
(٤) Loc. cit. &
عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٥٢ •
(٥) Fedden : op. cit. p. 13.

الصليبيون على الوصول الى هدفهم ، انسلخ القواد الواحد بعد الآخر بالقوة العسكرية التابعة له ، ليؤسس لنفسه ممتلكات اقطاعيـــة ، لذلك كان من المحتمل أن الجيش الذى وصل الى بيت المقدس عام ١٠٩٩ م ، لم يتجـــاوز ١٥٠٠ فارس ، وعشرة امثالهم من الجنود المشاه (١) ٠ والاجابة الطبيعية لهذا المازق الذى وقع فيه الصليبيون ، تمثلت فى طلب الامدادات العسكرية من أوروبا، وفى هذه الحالة فان التعزيزات التى كانت تصل الى الاراضى المقدسة لم تكن ملائمة ، وكان نصيبها الفشل ٠ وعلى هذا فلم يعد باقيا أمام الصليبيين سوى القيام باعمال التحصينات الدفاعية ، وبمعنى آخر ان تقوم الأحجار بعمـــل الجنـــود (٢) ٠

وتامين حركة الحج الى الاراضى المقدسة ، كان ايضا من الاسباب التى ادت بالصليبيين الى بناء القلاع والحصون ٠ فمن المعروف أن الصليبيين اتوا الى الشام لأغراض ظاهرة ، منها تحرير الاماكن المقدسة من سيطرة الأتراك السلاجقة ، وما ان وصلوا الى هدفهم حتى عكفوا على تأمين حركة الحج من الساحل الى كنيسة القيامة ، ولهذا شيدوا سبعة معاقل بين يافا والقدس ، أهمها قلعة شقيف أرنون (٣) ٠

والجدير بالذكر ان خوف الصليبيين الدائم من تحركات جيرانهم المسلمين، جعلهم لا يأبهون ببناء الكنائس والقصور أول الامر ٠ فالكنائس والقصور ينبغى لها أن تنتظر حتى يطمئنوا الى تملك البلاد ، ولهذا لجأوا الى بنـــاء

---

(١) Loc. cit.

(٢) Fedden : op. cit. p. 14.

(٣) Fedden : op. cit. p. 16 and

عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٦٢ ٠

تعرف قلعة شقيف أرنول عند الغربيين باسم بلفورت Belfort ، وسماها العرب شقيف عرنون نسبة الى قرية صغيرة بالقرب منها تسمى عرنون ، وتقوم هذه القلعة وكأنها عش نسر على شاهق يشرف على نهر الليطانى على ارتفاع ٢١٩٩ قدما فوق سطح البحر ، وهى بمثابة حارس يقوم على حراسة الممر الجنوبى الذى يربط صيدا وصور بالبقاع فدمشق ٠ وقد بناها فولك عام ١١٣٥ م (فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٥٨ ـ ص ٣٦٠) ٠

الاستحكمات الدفاعية ، وأصلحوا اسوار المدن ، وشيدوا القلاع لحراسة الحدود ، لاستخدامها مراكز ادارية آمنة للمناطق بالبلاد (١) ·

ولكى يحتفظ الصليبيون بتثبيت اقدامهم على الشاطىء ، كان عليهم أن يحتفظوا بالسيادة على صلتهم بالبحر ، حتى يبقوا فى الوقت نفسه على اتصال بمواطنيهم فى الغرب الاوروبى ؛ وهذا الاتصال ميزة من الممكن أن يستغلها فرنجة الشرق ، وذلك باستدرار عطف الغرب الاوروبى فى ارسال النجدات ؛ ولهذا كله كان على الصليبيين اقامة التحصينات الساحلية ، ليؤمنوا العمليات البحرية ، فقاموا ببناء سلسلة من الابراج استخدموها للمراقبة على الشاطىء (٢) · وقد وجد الصليبيون فى معظم موانى الساحل حصونا بيزنطية وأسوارا عربية ، شيدت قبل وصولهم الى الشام بمدة طويلة ، ومن ثم اقتصرت اعمالهم على الامتداد أو التوسع ؛ ومن أمثلة تلك القلاع حصن انطرطوس Tortosa وجبيل وبيروت وقلعة البحر فى صيدا (٣) ·

هذا ومن الملاحظ ان الصليبيين اجتنبوا اقامة القلعة أو الحصن فى وسط المدينة ، كما كان يفعل العرب ، وهؤلاء اسوة بالرومان ، وبدلا من ذلك ، شيدوها فى أحد اركان المدينة ، كى تستطيع أن تقوم بواجبها كوحدة مستقلة فعالة ، محتفظة بحرية مواصلاتها ، واذا حدث أن سقطت المدينة ، استطاعت القلعة الحفاظ على مواصلاتها البحرية (٤) ·

وقد دخلت فى تركيب وبناء الحصون والقلاع الصليبية بالشام ، مواد مأخوذة عن ابنية أقدم عهدا شادها الاغريق والرومان من قبل ، أى أنهم انتفعوا بخرائب الآثار القديمة للهياكل والقصور ، فانتزعوا احجارها ،

---

(١) رنسيمان : المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٣٥٦ ·

(٢) Fedden : op. cit. p. 18.

فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٥٦ ·

(٣) Fedden : op. cit. 18.

(٤) Loc. cit.

عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٦٣ ·

واستعانوا بها فى البناء ، وبذلك وفروا مشقة نقلها من المقاطع (المحاجر) (١)٠ وليس هذا فقط ، بل انهم انتفعوا بالقلاع والحصون التى سبق أن اقامها اما الرومان او البيزنطيون أو العرب ، فاصلحوها ورمموها واعادوا بنائها ٠ وفى نفس الوقت شيدوا انواعا عديدة من التحصينات ، اختلفت فى أحجامها ، من الابراج الصغيرة المعزولة ، الى الحصون المنيعة القادرة على استيعاب حاميات تزيد عن الألف ٠ وليس من السهل تتبع المراحل التى مر بها الفرنجـــة ، واستطاعوا بفضلها الوصول الى ذروة فن العمارة الحربى الخاص بهم ٠ ذلك لان معظم القلاع انتابتها يد التجديد على الدوام ، وهى فى الوقت الحالى تأخذ المظهر الذى كانت عليه فى القرن الثالث عشر ، عندما وقعت فى نهاية الامر فى أيدى المسلمين (٢) ٠

كان اهم ما يميز طابع القلاع والحصون فى اوائل القرن الثانى عشـر ، استخدام الحصن النورمانى المربع على غرار القلاع الفرنسية ، وبناء ســور بسيط تدعمه الأبراج المربعة الموزعة على مسافات طويلة نسبيا ، وذات نتوءات واضحة ؛ وقد استفاد الصليبيون فى هذا الصدد بما وجدوه فى البلاد من القلاع البيزنطية ، فضلا عما نقلوه معهم ـ بصورة أمينة للاصل ـ من الغرب من أساليب البناء الحربية (٣) ٠ واذا كانت الشام مسرحا للاحداث البيزنطيـــة والعربية ، والدولة البيزنطية ـ كما نعلم ـ وريثة الدولة الرومانية ، بذلك يكون المسلمون والصليبيون على حد سواء ، قد عرفوا الكثير من التحصينـــات الدفاعية ، التى ترجع الى ما قبل القر نالثانى عشر بكثير (٤) ٠ وتأثـــر الصليبيون بما وجدوه يرجع الى بداية المسيرة الطويلة لجيوشهم ، عبـــر آسيا الصغرى عام ١٠٩٧ م ، عندما مروا بانقاض نيقية ، ثم فى العام التالى

---

(١) لامنس : تسريح الأبصار فيما يحتوى لبنان من الاثار ، ص ٦١ ـ ٦٢ ٠

(٢) Oman : A Hist. of The Art of War. Vol. II p. 20.

(٣) Fedden : op. cit. p. 27 &

Archer : the Crusades. p. 361 &

عبد الرحمن زكى : القلاع فى الحروب الصليبية ، ص ٥٦ ـ ص ٥٧ ٠

(٤) Fedden : op. cit. pp. 22-23

عندما استولوا على مدينة أنطاكية • وكلا المدينتان من أساليب التحصين البيزنطية التى ظفرت باعجاب الصليبيين •

وحين نبحث مسألة التأثير البيزنطى ، لابد أن نضع فى الاعتبار أن احتياجات الصليبيين والبيزنطيين ، اختلفت احداها عن الأخرى • فالبيزنطيون لم يقاسوا النقص فى القوة البشرية ، ذلك الداء المزمن الذى عانى منه الصليبيون فيما بعد ، بالاضافة الى أن الفنون الحربية وأسلحة الحصار خلال الفترة السابقة للحروب الصليبية ، لم تتطلب الاسوار الشديدة الصلابة (١) • والصفة المميزة للقلعة البيزنطية ، اعتمدت على سور ساتر Curtain Wall رفيع نسبيا ، تحميه عدة ابراج مربعة الشكل بارزة قليلا خارج ستارة السور ، على مسافات مختلفة غير منتظمة ، ففى أجزاء السور التى يمكن الوصول اليها ، تتقاربت الابراج ، اما فى الأجزاء المنيعة التى يصعب الاستيلاء عليها ، تتباعدت الابراج (٢) • واذا كان البيزنطيون قد اهتموا اهتماما بالغا بحفر خندق كبير يحيط بأسفل أسوار القلعة ، ويتقدمه ركام ترابى (متراس)، فمن الملاحظ انهم لم يهتموا كثيرا باختيار البرج المربع المنيع ، أو العمل على تقوية الاسوار ومتانتها (٣) •

ولم يكتف الصليبيون فى ايامهم الاولى الاستفادة من نماذج التحصينات الدفاعية البيزنطية التى وجدوها ، ولكنهم أدخلوا تحسينات عليها • فالحصون التى على شكل المحار Shell-Keeps ، أو البرج المربع المنيع Donjon — Keep الذى يقوم بوظيفة الخط الدفاعى الاخير للقلعة ، هذه الحصون التى خلفها الفرنجة وراءهم فى الغرب الاوروبى ، أدركوا انها لاتصل فى مناعتها بالنسبة لما شاهدوه فى الشرق (٤) • ومن ثم استخدموا

---

(١) Ibid. p. 23

(٢) Oman : op. cit. Vol. II p. 28

(٣) Fedden : op. cit. p. 23.

(٤) Fedden : op. cit. pp. 23 — 24

(٥) Oman : op. cit. Vol. II p. 30.

الابراج فى حصونهم على غرار النمط البيزنطى ، وشيدوها بادىء الامر مربعة الشكل ، من غير النتوء البارز الذى عرفه البيزنطيون (١) • وتأثر الصليبيون ايضا بتقليد الحصـــــون البيزنطية ، التى كان البيزنطيون يشيدون فيها برجا واحدا يمتاز بضخامته ومنعته عن الابراج الاخرى • وذلك البرج القوى المنيع Massive Keeps Donjon ، تالف غالبا من طابقين وشرفة Terrace (٢) ، بدأ الصليبيون فى اقامة العديد منه فى صافيتا والكرك ، وصهيون ، وجبلة ، وعكار ، بالاضافة الى اماكن اخرى • وفى هذا الصدد كانت لهم تجربة سائدة فى الغرب الاوروبى ، سرعان ما تخلوا عنها ، فقد كانوا يشيدون أقوى برج فى القلعة فى مكان يسهل الدفاع عنه، حتى يتحمل ذلك المكان كثافة الهجوم وشدته ؛ ولكنهم ادركوا أن خير مكان يقام فيه هذا البرج ، هو المكان الذى لا يصل اليه المحاصر بسهولة ، أى فى أشد المناطق خطورة فى القلعة (٣) • ويعتبر البرج المربع من أهم السمات البارزة التى ارتبطت بالأرض المقدسة منذ البداية ، غير ان له مساوىء خطيرة ، وضحت فى حروب الحصار المتعاقبة ، منها أن باب البرج لايسمح للحامية بالانســـــحاب عندما تضطر الاحوال، كما أن هناك مساوىء فنية أخرى لازمت كلا من البرج المربع وبرج السور المربع ، فهما معرضان من زواياهما (اركانهما) للغم (٤) •

ونلمس التقدم الواضح للخندق البيزنطى على أيدى الصليبيين فيمـــا نشاهده فى الخندق الكبير المحفور فى الصخر المحاط بقلاع صهيون والكـــرك والصبيبة والشقيف وعثليت (قلعة الحاج) (٥) •

ولندرة الأخشاب فى الشام ، اضطر الصليبيون الى استخدام العقـــود والقبوات (القناطر) من الحجر ، بدلا من الخشب ، واضطروا ايضا الى تحديد

---

(١) Fedden : op. cit. p. 24
(٢) Ibid : p. 27
(٣) Oman : op. cit. Vol. II p. 30
(٤) Fedden : op. cit. pp. 27—28 &
عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٥٧ ـ ٥٨ •
(٥) Fedden : op. cit. p. 24

عدد الطوابق التى لم تتجاوز اثنين أو ثلاثة ، كما أن الأبراج التى تتوسط القلاع الصليبية Keeps . كانت أقل علوا من تلك المألوف فى الغرب (١) ٠

وعلى كل حال ، فقد نشطت حركة بناء القلاع وتعميرها على ذلك الاسلوب بصورة واضحة على عهد بلدوين الثانى ، ثم على وجه الخصوص على عهد فولك أنجو (١١٣١ ــ ١١٤٤ م) ٠ ففيما بين عامى ١١٣٧ و ١١٤٢ م شيدت سلسلةقوية من القلاع فى الجنوب الغربى من عسقلان ، تضم قلعة تل الصافية Blanche gard ، وذلك لحراسة الطريق الممتد من عسقلان الى بيت المقدس (٢) ٠ وفى بيت جبرين Bethgibelin ، تلك القرية التى أطلق عليها الصليبيون خطأ اسم بير سبع ، شيد حصن سيطر على الطريق الممتد من عسقلان الى الخليل (٣) ٠ والواضح أن الهدف من هذه الاستحكامات ، منع غارات المصريين المرابطين فى عسقلان ، فضلا عن اغلاق الطريق من مصر الى فلسطين (٤) ٠ وفى عام ١١٣٩ م بدأ الفرنجة يشيدون قلعة شقيف المنيعة على أحد الجبال المطلة على نهر الليطانى ، كى يتحكموا فى أحد مخانقه الضيقة ؛ وبعد اربع سنوات شيدوا الكرك فيما بين ١١٤٠ ــ ١١٤٣ م شرق البحر الميت ، وهى قلعة تمتاز بموقعها العسكرى وتعد نموذجا طيبا فى أسلوب التحصين ؛ وفى تلك الأثناء تسلمت طائفة الاسبتارية حصن الفرسان (الأكراد Crak des Chevaliers ؛ ومن أهم تلك القلاع قلعة كوكب الهواء Belvoir التى شيدها فولك عام ١١٤٠ م على الأسلوب البيزنطى، اذ يحيط بها سور خارجى يكاد يكون مربع الشكل تقريبا ، وتدعمه الأبراج ويقوم فى وسطها حصن عال كان يؤلف فى الواقع قلب الدفاع (٥) ٠

---

(١) Ibid. p. 26.

(٢) Grousset : op. cit. Vol. II p. 156 &
عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٥٨ ٠

(٣) William of Tyre : op. cit. Vol. II p. 132

(٤) Ibid Vol. II pp. 80—81.

(٥) عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٥٩ ٠

وقد دعا الضعف المتورات للحصن النورمانى المربع والبرج المربع فى السور ، الى التخلى جزئيا عن الشكل المتبع ، والى احداث تغييرات هامة فى عمارة القلاع الصليبية أواخر القرن الثانى عشر الميـــــلادى (١) • ومن المشاهد أن الفرنجة لم يشيدوا ـ قبل حوالى عام ١١٧٠ م ـ اية ابراج مستديرة ضخمة ، ولكنهم بعد معركة حطين عام ١١٨٧ م ، اعتمدت اعمالهم الدفاعية على الأبراج المستديرة ذات النتوء الكبير ، الذى يمتد نحو الاتجاه المتوقع منه الهجوم ، والتى من مزاياها انها كانت تسمح بكمية كبيرة من النيران الجانبية (٢) • وربما يرجع السبب فى استخدام الابراج المستديرة ، الى انها كانت تستطيع مقاومة الآلات الحربية المستخدمة فى هدم الأسوار على حين أن الحصون المربعة تمثل اركانها نقاط ضعف (٣) •

هذا ، ويعزى الى بداية القرن الثالث عشر ، التطور الكامل فى بناء القلاع • اذ نشأ نوع من القلاع ، اشتمل على عدة خطوط او ساحات دفاعية متعاونة ، تعتمد على بعضها بعضا داخل القلعة ، وأطلق عليه « القـــلاع المتداخلة الحصون » Concentric ، بمعنى أن المحاصر لايستطيع الوصول الى أهم نقطة فى الدفاع الا بعد ان يواجه خطوط الدفاع الخارجية • وقد ظهر ذلك النوع من التحصينات فى الشرق الفرنجى أوائل القرن الثالث عشر ، ومن المحتمل أنه خرج الى حيز الوجود بعد الزلزال المرعب ، الذى حدث فى ٢٠ مايو عام ١٢٠٢ م ، وحطم جانبا كبيرا من القلاع الصليبية فى الشام• وعلى اية حال ،فان الغالبية العظمى من قلاع القرن الثالث عشر ، توضـــح لنا التطور الرائع فى العمارة الحربية من ذلك النوع الذى اطلق عليه « القلاع المتداخلة الحصون » (٤) •

---

(١) Fedden : op. cit. p. 28

(٢) Loc. cit. &

Oman : op. cit. Vol. II p. 33

(٣) Oman : op. cit. p. 34

(٤) Oman : op. cit. p. 38

ولم يمض وقت طويل على القرن الثالث عشر ، حتى صار ذلك النوع من القلاع شائعا فى غرب أوروبا ، ولكن الكتاب المعنيين بالعمارة الحربية أطلقوا عليه الادواردى Edwardian نسبة للملك ادوارد الذى شيد أفضل نموذج لهذا النوع خلال مدة حكمه (١٢٧٢ ــ ١٣٠٧ م) ٠ غير أن هذه التسمية لاتتفق مع الواقع ، لأن الأمثلة المبكرة لهذا النوع ترجع الى عهد الملك هنرى الثالث (١٢١٦ ــ ١٢٧٢ م) ٠ وقد أضحى برج لندن النموذج المتقن الرائع لهذا النوع من القلاع ، عندما أضاف اليه هنرى الثالث ساحته الدفاعية الخارجية فى الفترة ما بين ١٢٤٠ و ١٢٥٨ م ٠ ومن هذه النماذج أيضا قلعة كارفيللى Caerphilly التى تعد من أفضلها ، وقد شيدت قبل اعتلاء ادوارد العرش بعام ٠ ومن المستبعد القول أن الملك ادوارد أتى معه بتصميم ذلك النوع بعد عودته من الحملة الصليبية التى قام بها فى الشرق عام ١٢٧٠ م ، اذ استخدم هذا النوع فى انجلترا ، لاسيما القارة الاوروبية قبل ذلك التاريخ بمدة طويلة (١) ٠

ولا يعرف على وجه الدقة أصل هذا الأسلوب فى القلاع الصليبية ٠ صحيح أن الامبراطورية البيزنطية قد استخدمت هذا النوع من الاستحكامات ذات الحصون المتداخلة فى بيزنطة وغيرها ، كما استخدمها الخليفة العباسى المنصور (٧٥٤ ــ ٧٧٥ م) ، عند بناء الاسوار المستديرة فى تشييد مدينة بغداد فى القرن الثامن بدلا من دمشق عاصمة الأمويين ؛ وعرفت فى انجلترا على أيام الرومان والسكسون بعض الاستحكامات الترابية من هذا النوع **Concentric** earthworks ٠ ومن الممكن أيضا أن تكون القلعة ذات الحصون المتداخلة قد **تطورت من البرج** الذى على شكل المحار Shell-Keep وهو عبارة عن قلعة وحصن Keep-fortress شيد وسط **فناء ؛ وقد اثبت هــذا** التخطيط فى أوروبا ، **انه أحسن ما يستعاض** به عن الحصن النورمانى المحدود المهمة (٢) ٠

---

(١) Ibid. pp. 38—39

(٢) **Fedden : op. cit. pp. 28—29 &**

عبد الرحمن زكى : نفس المرجع وصفحة ٠

وعلى اية حال ، فانه مهما اختلفت الآراء فى منشأ هذا الطراز المعمارى أهو شرقى ام غربى ؛ وبمعنى آخر سواء عرفه الفرنجة فى الشرق ، ام نقلوه الى الشرق، فانه ازدهر على زمن الحروب الصليبية ازدهارا مدهشا ، وهو عنوان القوة الهائلة والجمال النادر فى آن واحد (١) ٠

ومن الحقائق الغريبة فى الشام الصليبية أن عددا من البنائين الذين ارتبطوا بقلاع هيئة الداوية ، والقرين (١٢٢٧ ـ ١٢٢٩ م) معقل طائفة فرسان التيوتون ، هؤلاء البناءون لم يتاثروا بنمط القلاع المتداخلة الحصون Concentric Castles ، بل استمروا حتى نهاية فترة الحروب الصليبية فى تشييد القلاع ذات النمط البيزنطى ، فضلا عن انهم ظلوا يستخدمون الطريقة القديمة فى بناء البرج المربع ٠ وربما يرجع سبب التمسك بالطراز القديم الى المنافسة الحادة بين الداوية والاسبتارية ، فالاخيرة ارتبطت ارتباطا وثيقا بتطور وازدهار القلاع المتداخلة الحصون ؛ ومن الصعب حاليا أن نكون رايا فى ذلك ، لأن الزمن أثر فى قلاع الداوية بصورة اشد من قلاع الاسبتدارية ؛ ومن قلاع الداوية التى اصابها الضرر الكبير صفد وعريمة وصافيتا وطرطوس، فضلا عن الحصون الجنوبية (٢) ٠

وثمة راى آخر يذكر أن وجود الابراج المربعة القوية الى جانب الأبراج المستديرة بالشام ، ليس دليلا على أن الفرنجة كان لهم فى الشرق طرازين من المبانى الحربية ، ذلك الذى يتمثل فى الابراج المربعة الذى مارسه فرسان الداوية ، والآخر فى الابراج المستديرة الذى استخدمه الاسبتارية ؛ ولكن المهندسين الصليبيين تكيفوا مع احتياجات الأرض ، فشيدوا مبانيهم وفقا لعقليتهم الدفاعية البارعة (٣) ٠

---

(١) Fedden : op. cit. p. 20 &

عبد الرحمن زكى : نفس المرجع ، ص ٦٠ ـ ص ٦١ ٠

باركر : الحروب الصليبية ، ص ١١٢ ـ ص ١١٤ ٠

(٢) Fedden : op. cit. pp. 30 -31.

Longnon : Les Français d'Outre-Mer p. 148

(٣) Dussaud : La Syrie Antique. p. 122.

وقد واكب هذا التطور فى تخطيط القلاع عدة تغييرات فى البناء ، عند نهاية القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر ، منها احياء استخدام الحجارة المنحوتة (المصقولة) ، التى لابد أن رأوها فى الجوانب القديمة المبعثرة فى كل مكان من المملكة (١) . وتلك الاحجار لايتيسر لسلالم الحصار التغلب عليها ، لأنها لاتستطيع الامساك بها (٢) . وتطورت أيضا طريقة عمل المزاغل (فتحات السهام) التى اضحت تتخذ عادة شكل منحرف الى اسفل ، وأحيانا قاعدة على هيئة ركاب الفرس ، وبذلك سهل الرمى الى اسفل القلعة ؛ ولم تقتصر المزاغل على الطوابق المرتفعة فى الحصن ، بل عمت أيضا فى الطوابق المنخفضة الى مستوى الأرض (٣) . واخذ الصليبيون أيضا عن العرب ظاهرة المشربيات Machicolations، التى زودت بها الأبراج بغرض السيطرة على أسفل السور ، وهذه المشربيات عبارة عن دعائم يتقارب بعضها من بعض ، وتحمل فوقها حواجز بارزة ، وبين كل دعامتين فتحة مقفولة بباب مستور ، يمكن ان تصوب السهام منه الى رؤوس المحاصرين الذين يحاولون أن يحفروا تحت الجدران ، أو يشعلوا النيران ؛ كما يمكن من هذه المشربيات أن يصب الزيت والماء المغليان على رؤوس المحاصرين ، ولندرة الاخشاب فى الشام اضطر الفرنجة لاستخدامها من الحجر (٤) . وهناك عدة أمثلة لهذه الظاهرة المعمارية فى عدد من المبانى بالقرب من أنطاكية ، يرجع تاريخها الى ما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين (٥) ، بالاضافة الى مثلين فوق باب النصر (١٠٨٧ م) أحد أبواب القاهرة ، وهما أقدم بنحو قرن من أية مشربية عرفت فى أوروبا (٦) . ذلك أن اقدم أمثلة لهذه الظاهرة المعمارية فى أوروبا ، نجدها فى قلعة شاتو جايار Chateau Gaillard (١١٨٤م) وشاتيون (١١٨٦ م) ونوريتش (١١٨٧م) Norwich وونشستر Winchester

---

(١) Fedden : op. cit. p. 25

(٢) Ibid. p. 29

(٣) Fedden : op. cit. p. 29

(٤) Oman : op. cit. Vol. II p. 34 &

سعيد عاشور : المدنية الاسلامية ، ص ١٩٩ .

زكى محمد حسن : الفنون الاسلامية ، ص ٦٦١ .

(٥) Fedden : op. cit. p. 25

(٦) سعيد عاشور : نفس المرجع والصفحة .

(١١٩٣م) • وبمقارنة التواريخ السابقة يتضح جليا أن هذه الظاهرة نشأت فى الشرق قبل ظهورها فى اوروبا (١) •

والجدير بالذكر هنا ، أن المسلمين خلال فترة الحروب الصليبية ، كانوا قوة مهاجمة متحركة ، ذات تفوق عددى عظيم ، لديها القدرة على أخذ زمام المبادرة ، ولهذا فانهم — فى المقام الأول — لم يهتموا بأعمال التحصينات الدفاعية ، وبالتالى فان تأثيرهم على العمارة الحربية الفرنجية أمر قليل الشأن (٢) • وعلى الرغم من ذلك ، فقد استفادوا من خبرة العرب فى أساليب البناء الحربى • فهم الذين قاموا بادخال منحدر ضخم الى اساسات اسوارهم ، مما ادى الى زيادة سمك جدران اسوار قلاعهم ، وتأكيد قوة دفاعها ، وقد اتبع المسلمون هذا الاسلوب ، دفعا لأضرار الزلازل ، واعاقة لزرع الألغام (٣) • كذلك عرف الصليبيون ايضا المدخل الملتوى للقلاع عن العرب • فابان الحروب الصليبية أضحى المدخل الحربى من باب القلعة الى داخلها متعرجا او على شكل زاوية قائمة ، حتى لايتمكن العدو الذى يصل الى الباب من أن يرى الفناء الداخلى ، او أن يصوب سهامه الى من فيه (٤) • ويبدو أن الرومان والبيزنطيين لم يعرفوا هذا النوع من المداخل ، وانما كانت تشيد عدة أبواب متتالية على خط عمودى واحد ، يفصل كل باب عن الآخر مضاء • وتدل الابحاث الحديثة على أن العرب كانوا اول من استعمل

---

(١) سعيد عاشور : المدنية الاسلامية ، ص ٦٦١ •
مارتن برجز : تراث الاسلام ، ص ١٢٧ — ١٣٩ •

(٢) Dussaud : op. cit. p. 143
Fedden : op. cit. p. 26 &
Longnon : op. cit. p. 118

(٣) Fedden : op. cit. p. 26 &
عبد الرحمن زكى : نفس المرجع ، ص ٦١ •

(٤) سعيد عاشور : المدنية الاسلامية ، ص ٢٠٠
زكى محمد حسن : الفنون الاسلامية ، ص ٦٦١ •
مارتن برجز : تراث الاسلام ، ص ١٣٩ — ص ١٤٠ •

المداخل الملتوية بمدينة بغداد فى القرن الثامن الميلادى ، ثم بدت هذه الظاهرة فى قلعة صلاح الدين بالقاهرة التى شيدت سنة ١١٧٦ م ، ثم ظهر منها مثال بديع فى قلعة حلب • وعندما انتقلت ظاهرة المدخل الملتوى الى قلاع أوروبا ظهرت بوضوح فى قلعة بوماريس Beaumaris فى انجلترا ، وفى قلعة كاركاسون Carcassonne فى فرنسا (١) • وقد أقام الصليبيون فى القلاع عددا من الابواب السرية أو الخلفية Postern Gate فى اركان خفية ، ليس متوقعا انشاؤها بها ، ويعتبر البيزنطيون أول من ادخل هذا التصميم فى اخفاء ابواب قلاعهم (٢) • ومن التحسينات التى أدخلها الفرنجة على قلاعهم نقلا عن العرب ، وهؤلاء بدورهم عن البيزنطيين « المتراس » [illegible] ويمكن وصفه بأنه اطار من الخشب أو الحديد ، مدبب الاطراف من أسفله، ينزلق عموديا فى حزين جانبيين فى كتفى باب حصن أو قلعة ، ويثبت فى الاطار شبكة من الحديد ، يستطيع المدافعون من خلالها قذف السهام ، ويسدل المتراس عند محاولة المهاجم اقتحام القلعة ، وذلك بخفضه بواسطة حبال متينة أو سلاسل (٣) •

وعلى أية حال ، فان الدروس التى استفادها الصليبيون من البيزنطيين والمسلمين فى مجال العمارة الحربية ، قد حولوها الى فائدة رائعة ومستوى عظيـــم (٤) •

ومن الواضح جليا ، أن الرقاع الصليبية ببلاد الشام قد تقلصت فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، نتيجة ضغط القوات الاسلامية ، ومن ثم فترت حماسة الصليبيين فى تشييد القلاع ، باستثناء القليل • وانتقلت عنايتهم الى تحصين قلاع الساحل ، حتى يتمكنوا من مراقبة

---

(١) سعيد عاشور : المدينة الاسلامية ، ص ٢٠٠ ،
مارتن برجر : تراث الاسلام ، ص ١٤٠ ،
Fedden : op. cit. p. 30

(٢) Fedden : op. cit. p. 30

(٣) عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٧٥ •

(٤) Fedden : op. cit. p. 26

البحر ، وان كان هذا لايمنع أن البنائين الفرنجة قد استمروا حتى الساعة الاخيرة فى تشييد وتعمير ، لأن وضع حجر فوق حجر صار خلال قرنين من الزمان طريقة معتادة فى التفكير والسلوك (١) .

وقد تميزت القلاع الصليبية بالشام بمنعتها وضخامتها ، وفاقت مثيلاتها فى الغرب الاوروبى . فبعضها كان ضخما للغاية ، حتى انه بلغ فى حجمه ضعف كوسى Coucy وبييرفوند Pierrefonds اضخم القلاع فى فرنسا (٢) . وكانت تلك القلاع كانها وحدات دفاعية مستقلة تزداد قوة باتصال احداها بالاخرى . وقد تاثر الصليبيون اثناء وجودهم فى الشرق ، بما وجدوه من نظم اتصال عند المسلمين . من ذلك استخدام الحمام الزاجل فى نقل الرسائل العاجلة ، أو طلبا لنجدة عند اقتراب جيوش المسلمين ، والمعروف ان نور الدين محمود استخدم الحمام الزاجل فى نقل البريد عام ٥٦٧ هـ (٣) . كذلك تاثر الصليبيون فى الشرق باستخدام الاشارات كوسيلة من وسائل التخاطب اثناء الحروب . ففى الليل توقد النيران ، وفى النهار يثار الدخان ؛ وقد عرفت تلك الوسيلة باسم « المناور » اى مواضع رفع النار فى الليل والدخان فى النهار ، وهى تاتى بالخبر أسرع من الحمام الزاجل (٤) . فمن اعلى حواجز شرفات قلعة الشقيف استطاع رجال الاشارة الاتصال مع جنود الصبيبة اسفل منحدرات جبل الشيخ ، مع قلعة تورون الى الجنوب ؛ ومع حامية قلعة صيدا على بعد ١٩ ميلا على الساحل . وفى اقصى الجنوب ، عندما كان صلاح الدين يحاصر قلعة

---

(١) Ibid. p. 16

(٢) Lamb : The Crusades. p. 386.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، حوادث عام ٥٦٧ هـ ،
ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٦٧ هـ .
وقد ذكر ابن واصل فى كتابه مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب جـ ١ ، ص ٢٨٣ ان نور الدين محمود « بنى ايضا الابراج على الطريق بين المسلمين والفرنج ، وجعل فيها من يحفظها ، ومعهم الطيور الهوادى ، فاذا رأوا من العدو أحدا أرسلوا الطيور . فأخذ الناس حذرهم ، واحتاطوا لانفسهم ولم يبلغ العدو منهم غرضا » .

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ١٤ ، ص ٣٩٨ ـ ص ٤٠٠ ،
الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ٨٨ ،
Dussaud : op. cit. pp. 146—147

الكرك عام ١١٨٣ م ، كانت تلك القلعة تتصل ليلا بواسطة الشارات النارية ، عند البحر الميت بقلعة بيت المقدس (برج داود) التى تبعد عنها مسافة خمسين ميـــلا (١) ٠

والعديد من تلك القلاع الصليبية بها صهاريج لاختزان المياه ، أو مجرى مغطى يتجه بأسفل الى مستودع كبير للمياه ؛ واذا استبعدنا حالة المفاجاة فى الهجوم على تلك القلاع ، فانها استطاعت الصمود بجدارة أمام هجمـــات المسلمين ، حتى يصل الجيش الرئيسى من مملكة بيت المقدس للنجدة (٢) ٠

ومما يثير دهشة الباحث ، كيف سقطت ـ أو أجبرت على الاستسلام ـ تلك القلاع الكبرى ، التى شيدها الفرنجة على الرغم من ضخامتها وقوتها ؟ ليس من شك أنه قد اجتمعت عوامل على سقوط تلك القلاع ٠ من تلك الاسباب النقص فى القوة البشرية ، والافتقار الى القـــوة الضـــاربة التى عانى منها الصليبيون ، منذ ان وطئت اقدامهم أرض الشام ٠ ففى خلال حصار قلعـــة صهيون المنيعة عام ١١٨٨ م ، اكتشف المسلمون أن قسما كبيرا من الســـور المنيع للقلعة ، لايدافع عنه أحد من رجال الحامية (٣) ٠

وقد أوجدت القلاع الكبرى عند الصليبيين عقلية دفاعية ، فرضت عليهم جهدا نفسيا ومعاناة قاسية ، اذ كانوا على الدوام فى انتظار ما يجلبه المهاجمون من مفاجآت ، الامر الذى أدى الى ان يظلوا فى حال من اليقظة المستمرة والرقابة والانتظار والانصات والخوف ٠ ومن الطبيعى ان رجلا قضى حياته خلف جدار ذى فتحات على سطح حصن ، لابد أن يصيبه الضجر والانهيار والملل ، وتلك كلها أعداء مخيفة للجند تعرضهم لانهيار معنوى شامل ، خاصـــة اذا جاءت الاشاعات بسرعة الريح عبر الاسوار ، أو اذا تسرب المسلمون من الابواب

---

(١) Lamb : op. cit. p. 58 &
Fedden : op. cit. p. 31
عبد الرحمن زكى : نفس المرجع ، ص ٦٧ ٠

(٢) Lamb : op. cit. p. 58

(٣) Fedden : op. cit. pp. 34—35

السرية الخلفية (١) • كذلك الحال اذا نضبت المياه ، وتفشى المرض ،ووصلت انباء تفيد ان العدو قد اباد نجدة كانت آتية لخلاص المدافعين عن القلعة (٢)• وفى الوقت الذى اخذ فيه القرن الثالث عشر يقترب من نهايته ، وتقلصت البقاع الصليبية ، وصارت مسالة الانهيار الشامل لملكة بيت المقدس مسالة وقت ، تضاءلت الروح المعنوية للقلاع ، ويفسر لنا ذلك لماذا سلمت قلعة انطاكية المنيعة ، ذات الحامية الكاملة عام ١٢٦٨ م ، بعد حصار لم يدم اكثر من خمسة أيام (٣) •

وعلى الرغم مما توافر بالقلعة من مستودعات المؤمن والصهاريج ، ظلت المجاعة والعطش من الاخطار السائدة ، فضلا عن انهما كانا من اهم عناصر اسلحة الحصار فى العصور الوسطى بوجه عام • بيد أن هذا السلاح لم يلعب الا دورا صغيرا نسبيا ابان الحروب الصليبية ، ويرجع السبب فى ذلك الى ان رجال الحصن لم يكن عددهم من الضخامة ، بحيث يحتاج الامر الى مقادير وفيرة من المؤن ، فقد احتوت القلاع ــ كما سبق ان اشرنا ــ على مخازن تحت الارض مكدسة بالمؤن لمواجهة اى احتمال مفاجىء (٤) • فمثلا وجد فى قلعة المرقب من المؤن التى تكفى الجند لمقاومة خمس سنوات من الحصار ، وكان فى حصن الاكراد طاحون للقمح ومخازن للزيت والحبوب ، وفى قلعة صهيون وجد صهريجان كبيران للمياه ، تكفى حاميتها مدة حصار طويلة (٥) • وفى بعض الاحيان كانت تبدو صورة المجاعة مزعجة مخيفة ، فتذكر المصادر الدفاع المرير الذى قام به رينودى ساجيت Reynaud de Sagette وحاميته الباسلة عن قلعة الشقيف ، وانتهاء ذلك الدفاع بالتسليم لصلاح الدين عام

---

(١) Fedden : op. cit. p. 35

عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ٧٨ •

(٢) Fedden : op. cit. p. 35

(٣) Loc. cit.

عبد الرحمن زكى : نفس المرجع والصفحة •

(٤) Oman : op. cit .Vol. II pp. 29 30.

(٥) Fedden : op. cit. p. 36

١١٨٨ ـ ١١٨٩ م ، بعد أن تحمل رجالها قسوة المجاعة ، ومن الحالات التى فتكت المجاعة فيها أيضا قلعة كراك مؤاب ، وقلعة صافيتا عام ١١٨٨م (١)٠

ولأساليب الحصار واسلحته ، صلة وثيقة بسقوط القلاع الصليبية ٠ والملاحظ ان الصليبيين عندما باشروا عمليات الحصار الكبرى للمدن المحصنة الكبيرة ، مثل نيقية وانطاكية أو القدس ، قد اكتسبوا خبـــرة ٠ فالاتهم الواهية ، وطريقتهم العتيقة فى الهجوم ، كانت عاجزة تماما عن التغلب على مثل تلك التحصينات ، ولولا عنصرى المجاعة والخيانة ، لما تمكنوا من الاستيلاء على الاماكن التى فرضوا الحصار عليها (٢) ٠ ولكنهم خلال فترة وجودهم بالاراضى المقدسة ، احكموا فن الحصـــار وبرعوا فيه ٠ والجيش المحاصر للقلعة لم يكن أمامه سوى أحد اختيارين ، أما الهجوم أو القصف ، وبمعنى آخر ، اما تسلق سور القلعة أو الحصن ، أو ايجاد ثغرة فيه (٣) ٠

ويعتبر سلم تسلق الاسوار (السلالم المتحركة) أبسط طريقة للهجوم المباشر ، بيد انه يكلف الجيش المحاصر العديد من الارواح ، اذ يسهل بعدد ملائم من حامية القلعة صد الهجوم ؛ ولكن اذا كانت الهجمات مكثفـــة ومتوالية ، فانها تعطى أملا فى اقتحام الحصن ٠ واذا كان الغرض الرئيسى من السلم المتحرك ، هو وصول الجيش المهاجم الى مستوى حاجز شـــرفة الحصن ، ففى الامكان الاستعاضـــة عنه بطريقة معقدة ، تتمثل فى تكديس الأتربة على جدار السور ، حتى يتكون منحدر كبير ، تستطيع القوة المهاجمة أن تتقدم من فوقه (٤) ٠ على أن هذا الاسلوب الاخير ، يعرض الجند المتقدمين على المنحدر الترابى لخط النار المدمرة التى تلقى عليهم من شرفات الحصن ، مما يؤدى الى كوارث فادحة ، بالرغم من أن الجيش المهاجم كان يستعين بالسواتر النقالة المغطاة بجلد الحيوان (٥) ٠ ولا يغيب عن البال أن السلم

---

(١) Loc. cit

(٢) Oman : op. cit. Vol. II p. 24.

(٣) Fedden : op. cit. p. 37

(٤) Loc. cit.

(٥) Loc. cit.

المتحرك عرضة للكسر أحيانا ، كما حدث خلال حصار انطاكية فى ٣ يونيو عام ١٠٩٧ م (١) •

أما عن أبراج الحصار أو الدبابات الخشبية أو قلاع الحصار Siege Castle ، فكانت أهم أسلحة العصور الوسطى الهجومية ، وأكثر فعالية من السلالم المتحركة ، استخدمها اللاتين خلال عمليات الحصار فى الشام • وقلعة الحصار كانت عبارة عن برج متحرك مبنى من الخشب ، بالغ الارتفاع، لدرجة أنه يصل الى أقصى ارتفاع جدران حصن أو مدينة معرضة للهجوم • وتتحرك قلعة الحصار على عجلات ، وفى أعلاها وجد رماة الأسهم والمنجنيقات والآلات الأخرى المعدة لاطلاق القذائف • ويحاول المحاصرون ابعاد قلعة الحصار ـ أو الدبابة ـ عن الاسوار ، بلصق عروق خشبية ذات رؤوس حديدية فى الأسوار لتقاومها ؛ واذا وجدوا أن تلك الطريقة لاطائل تحتها ، فانهم كملاذ أخير ، ألقوا بالنار الاغريقية ، أو الاسهم المشتعلة ، مما يؤدى الى اشتعال النار فى قلعة الحصار • وحتى تكون قلعة الحصار بمنأى عن تأثير النار ، فقد روعى تغطيتها بالجلود المنقوعة فى الخل (٢) •

وقد ساعدت تلك الأبراج فى الاستيلاء على بيت المقدس ، ومن قبل على مدينة المعرة ، ففى نوفمبر عام ١٠٩٨ م أمر ريموند الصنجيل رجاله ببناء برج حصار خشبى ، ولما تم بناء البرج ، وقف الفرسان فى الطابق العلوى منه ، فى حين قام رجاله اسفل البرج بدفعه نحو سور المدينة ، وأثناء انشغال المسلمين بالقاء الاحجار والنار الاغريقية على البرج ، تمكن جنود صليبيون آخرين من احداث ثغرة فى السور ، نفذوا منها يوم ١١ ديسمبر ، حيث استطاعوا الاستيلاء على المدينة (٣) • وخلال نزول الفرنجة على ميناء صيدا فى ١٩ اكتوبر عام ١١١٠ م (٣ ربيع الآخر عام ٥٠٤ هـ) ، ومضايقته برا وبحرا ، قاموا بتجهيز برج البسوه بحطب الكرم وجلود البقر الطرية ، ليقاوم

---

(١) Gesta Francorum. pp. 46—47

(٢) Archer : op. cit. pp. 352—353

الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٩٢ •

(٣) Gesta Francorum, pp. 77—79

الحجارة والنفط ، ثم نقلوه على بكر (عجلات) ، وزحفوا به بعد أن زودوه بالماء والخل لاطفاء أى نيران تلقى عليه (١) ٠ وخلال حصار الصليبيين لعكا عام ١١٩٠ م (٥٨٦ هـ) ، قاموا بصنع ثلاثة أبرجة من خشب وحـــديد ، شديدة العلو ، بحيث امكن رؤيتها من اسوار المدينة ، مركبة على عجل «يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر على ماقيل.» ، ويتسع سطحها لأن ينصب عليه منجنيق ، فقام السلطان صلاح الدين بجمع الزراقين والنفاطين للعمل على احراقها ، ولكنهم اخفقوا ؛ ولكن شابا (أغفل التاريخ ذكر اسمه) نحاسا من دمشق ، استطاع أن يخلط بعض المواد فى قدور من النحاس ، وسكبها على البرج الاول ، فالتهبت فيه النيران (٢) ، ومن مساوىء تلك الأبراج الخشبية ، انها لا تستطيع العمل الا على أرض مستوية ، او لم يكن ثمة خندق ، بالاضافة الى أن المدافعين يمكنهم اكتشافها بسهولة (٣)٠

ووجدت وسائل مالوفة لاحداث ثغرة فى أسوار المدن والقلاع على زمن الحروب الصليبية ، وهى : الكبش Ram ، والمنجنيق Mangon والنقب Bore وزراعة الالغام Mine ٠ وكان يتم تجهيز الكبش من اكبر ساق لأضخم شجرة يمكن أن تقدمها منطقة الصراع ، ثم يعلق ذلك الساق بعد أن يوضع فى مقدمة ثقل من الحديد ، على نطاق وســـط عمودين قصيرين ، ويجر الكبش على عجلات الى القلعة ، ويقوم فريق من الرجال من الممكن ان يصل عددهم الى ستين رجلا ـ تحت غطاء سقيفة وقائية ـ بتوجيه الدعامة الخشبية الكبيرة ، تجاه موضع فى الحائط وقع علية الاختيار لاحداث الثغرة به (٤) ٠ وامام الضربات المروعة المتواصلة ، لايستطيع أى بناء الصمود

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٧ ٠

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢٠ ـ ص ١٢١ ٠
سبط بن الجوزى: مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٤٠١ ـ ص ٤٠٢ ٠
ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٨٦ هـ ٠

(٣) Fedden : op. cit. p. 38
Gesta Francorum, p. 91

(٤) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ٢١٣ ،
Fedd en : op. cit. p. 38
Archer : op. cit. pp. 351--352

اذ تتخلخل احجاره ويمكن انتزاعها • غير أنه من الممكن مقاومة ذلك السلاح، مثلما استطاعت القوة المطوقة المسلمة اثناء فرض الحصار على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م ، أن تدلى بكتل من القضبان والعوارض الخشبية لايقـــاف الصدمة ، فضلا عن الامساك بالكبش ومنعه من التحرك ، حتى لايوزع ضرباتـــه (١) •

والجدير بالذكر أن الاسوار التى كانت فى متناول المحاربين ، كان يتم ضربها بالكباش ، أما تلك التى لايمكن الوصول اليها اما لوعورة الطريق ، او وجود خندق مثلا ، فكان يتم قصفها بالمنجنيق (٢) • والمنجنيق ، تلك الآلة التى اطلق عليها بصدق مدفعية الفترة الصليبية ، والتى امكن للمحاصرين والمدافعين استخدامها سواء بسواء ، لم تكن فى الحقيقة غير مقلاع بلغ من القوة بحيث استطاع القذف بصخور ضخمة • وقد وصف القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى (٣) المنجنيق قائلا : « آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل راسه ثقيل وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كفة المنجنيق التى يجعل فيها الحجر ، يجذب حتى ترتفع اسافله على اعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة ، فيخرج الحجر ، فما اصاب شيئا الا اهلكه » • وهو على اصناف كثيرة ، منه الصغير والكبير ، ذو احجام مختلفة (٤) • غير أنه لما كان مسار القذيفة منحنى عال ، كان من الصعب تصويبها بدقة واحكام على نقطة معينة فى الجدار (٥) • كذلك كان من الصعب استخدام المنجنيق فى فصل الشتاء ، اذا اتفق وقوع الامطار والثلوج ، اذ تحدث المقاساة بسبب جـــر العجل بواسطة الابقار ، فالمسافة التى يستغرقها جر البكر (العجلات) على أرض جافة فى احوال جوية عادية ، تختلف عنها على ارض وحلة سببتهـــا سقوط الامطار • فقد حدث خلال زحف السلطان الاشرف خليل بن قلاوون على عكا عام ١٢٩١ م (٦٩٠ هـ) ، أن استغرق جر آلات المنجنيق من حصن

---

(١) Fedden : op. cit. p. 38

(٢) الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٨٨ ـ ص ١٨٩ •

(٣) جـ ٢ ، ص ١٤٤ •

(٤) الحسن بن عبد الله : آثار الاول ، ص ١٩١ •

(٥) Fedden : op. cit. p. 39

الإكراد الى عكا شهرا كاملا ، فى حين أنها لاتزيد عن ثمانية ايام فى الاحوال العادية (١) • ولم يكن المنجنيق معروفا للفرنجة ، ولكنهم اقتبسوه لأنفسهم فى النصف الاول من القرن الثانى عشر ، عندما شاهدوا استخدامه بشكل عام بين المسلمين (٢) •

وثمة نموذج آخر من القذائف (المدفعية) التى استخدمت ببلاد الشام ابان الحروب الصليبية ، وهو نوع من انواع المنجنيق اطلق عليه البعيد المدى Terbuchet ، ومهمته قذف الاجسام من مسافة طويلة • وقد تألف ذلك النوع من سارية طويلة وضعت على شكل النواسة (لعبة من لعب الاطفال) ، أو الارجوحة فوق عمود • وللسارية طرفين ، طرف قصير غليظ كان يوضع فيه ثقلا كبيرا ، وطرف السارية الاطول لوضع القذيفة ويثبت بالارض • وحين يفصل طرف السارية الطويل من الارض ، فان الثقل الموازن يقوم بطرد (اطلاق) القذيفة • ومع أن المسار المنحنى لذلك النوع من المنجنيق يشبه المسار المنحنى للمنجنيق ، الا ان الاول كان له ميزة كبيرة ، فمن اجل الحصول على دقة أبرع فى التصويب ، من السهل أن يكيف (يعدل) وضع الثقل على طرف السارية ، بحيث يصير قريبا من النقطة المحورية (٣)•

وقد اختلف النقب — أو زراعة الالغام — عن الكبش ، ففى حالة النقب امكن ايجاد ثغرة فى أى جدار بالحفر ، بدلا من احداث الصدمة فى حالة الكبش• وقد عرف الرومان زراعة الالغام من قبل لما لها من أهمية • وعلى عهد الحروب الصليبية ، كانت اهم أخطار أسلحة الحصار المعاصرة ، فقد استخدمها المهندسون (اللغامون) ببراعة تامة ، خاصة مهندسو حلب — الذين استخدمهم ريتشارد الاول عند حصار داروم عام ١١٩٢ م — فقد بلغوا شأوا عظيما فى هذا المضمار • والحقيقة أن وضع الالغام فى عصر لم يكتشف فيه البارود ينم عن فن حربى عبقرى ، فبعد أن يقوم المهندسون بازالة الاتربة من تحت البرج ، يحدثون فجوة على عمق لابأس به ، يسندونها بأعمدة من

---

(١) الحسن بن عبد الله : أثار الأول ، ص ١٩٤ ،
أبو الفدا : المختصر ، ج ٤ ص ٢٤ •
(٢) Fedden : op. cit. p. 39
(٣) Loc. cit.

الخشب كلما تقدموا من خلالها ، ثم يضعون الحشائش الجافة سريعة الالتهاب ، وعندما يتم اشعالها تتداعى الفجوة ، وما يعلوها من البناء (١) ٠ غير أن زراعة الالغام كانت تبدو مستحيلة فى بعض الاحيان ، اذا كانت القلعة متشيدة على صخرة صلبة مثل حصن الاكراد ، فاذا عوت القلعة ، كان ذلك عادة لأسباب أخرى (٢) ٠ ولاريب أن أبرع استخدام لزراعة الالغام ، حدث فى قلعة المرقب للاسبتارية ، التى لم يستطع صلاح الدين الايوبى الاستيلاء عليها ، فبعد اعدادات شاملة استغرقت وقتا طويلا ، قام السلطان المنصور قلاوون على رأس جيش كثيف ، بتطويق تلك القلعة عام ١٢٨٥ م ، ولكن المجانيق الوفيرة التى نصبها على سفح الجبل التى تقع القلعة بأعلاه ، كان مصيرها الدمار على يد الحامية الفرنجية ٠ ونتيجة لذلك ، زرع المسلمون الالغام فى التحصينات الدفاعية للقلعة ، وتمكنوا من اسقاط التحصينات الخارجية ، ثم وجهوا هجوما الى التحصين الرئيسى فى القلعة انتهى بالاخفاق ٠ وعاود المهندسون زراعة الالغام ، وبعد أن قضوا ثمانية ايام فى عمل متواصل تحت الارض ، استطاعوا احداث ثقب تحت البرج الدائرى الذى كان بمثابة التحصين الرئيسى ٠ وملأوا ذلك الثقب بالاخشاب سريعة الالتهاب ، وفى ٢٣ مايو عام ١٢٨٥ م اشعلوا النار فى الثقب ٠ فأخذ البرج يهوى ، ودخل السلطان القلعة فى موكب فى ٢٥ مايو عام ١٢٨٥ م (٣) ٠

وملكية كل قلعة من القلاع الصليبية بحاميتها الصغيرة القديرة ، وبما احتوت عليه من اسطبلات واسعة ، وابراج حمام ، وطواحين ، ومستودعات سرية ضخمة تكفى مؤنا غذائية لحصار طويل الأمد ، وصهاريج مياه ضخمة، كانت تابعة لاحد كبار الاقطاعيين (٤) ٠ والمعروف أن الحملة الصليبية الاولى كانت تمثل قمة النظام الاقطاعى المعاصر فى غرب أوروبا ، ومن أجل هذا

---

(١) Oman : op. cit. Vol. II pp. 29–31
Fedden : op. cit. pp. 38–39

(٢) Fedden : op. cit. pp. 39–40

(٣) أبو الفدا : المختصر ، ج ٤ ، ص ٢١ ،
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣١٥ ــ ص ٣١٧ ٠

(٤) Longnon : op. cit. p. 148 and
Fedden : op. cit. pp. 31–32

قامت مملكة بيت المقدس على نطام اقطاعى . وفى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، اتسع نطاق العمليات الحربية بين المسلمين والصليبيين ، وتعرضت مملكة بيت المقدس لضغط اسلامى متزايد ، فى الوقت الذى صارت فيه اعباء ونفقات القلاع ، والحفاظ عليها ، مسئولية ابعد من أن يتحملها كبار السادة الاقطاعيين (١) . ولهذا عمل السادة الاقطاعيون الواحد بعد الآخر ، على بيع قلاعهم أو تقديمها فى صورة هبة ، حتى جاء اليوم الذى صارت فيه ملكية قلعة كبيرة لسيد اقطاعى ، أمرا نعتبره فى حكم الاستثناء . وقد آل معظم تلك القلاع ـ خاصة القلاع الضخمة الواقعة على الحدود ـ فى منتصف القرن الثانى عشر الى طائفتى الاسبتارية والداوية ، اللتين اضطلعتا بالحفاظ على تلك القلاع ، فضلا عن مسئولية الدفاع عن مملكة بيت المقدس بأسرها (٢) . كذلك من الاسباب التى ادت الى منح القلاع والحصون للطوائف الدينية الحربية ، تناقص القوة الضاربة للصليبيين ، اذ تضاءلت الاصوات المقيمة بامارات الفرنج ، اما بالوفاة أو بالوقوع فى الاسر ، ولذا اعتمد أملريك الاول (١١٦٣ ـ ١١٧٤ م) اساسا على منظمتى الاسبتارية والداوية ، اللتان تسلمتا فى سنة ١١٦٧ م والسنوات التالية عددا كبيرا من الحصون وما يحيط بها من الاراضى (٣) . وكان بوسع الصليبيين الزائرين أن يقاتلوا الموسم او الموسمين ، غير انهم لن يلبثوا أن يعودوا الى بلادهم . اما طوائف الفرسان الرهبان ، فكفلت مددا لاينقطع من العساكر الاتقياء المحترفين ، الذين لم يكلفوا الملك شيئا من النفقات ، والذين توافر لهم من الثروة ما يكفى لان يقيموا من القلاع وينفقوا عليها ، الأمر الذى لم يتيسر الا لقلة من السادة الاقطاعيين (٤) .

والقلاع التى آلت للطوائف الدينية العسكرية ، بعض احجامها ينزع الى الضخامة مثل الكرك او عثليت ، فكل منها تعتبر مدينة عسكرية ، لأنها تأوى الآلاف من المقاتلين والاتباع اللازمين لهم (٥) . وما حازته طائفة

---

(١) Fedden : op. cit. p. 32

(٢) Ibid. pp. 32—33

(٣) رنسيمان : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٦٠٨ .

(٤) رنسيمان : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٥٠٢ .

(٥) Deschamps : Le Crac des Chevaliers. Vol. II pp. 70—75

الاسبتارية من قلاع مثل : القلعة الضخمة التى اشتهرت بحصن الفرسان (الأكراد) ؛ وحصن كوكب الذى تحكم فى مخاضا تنهر الاردن الى الجنوب من بحر الجليل (١) ؛ وحصن ارسوف الذى تسلمه السلطان الظاهر بيبرس بعد حصار دام أربعين يوما (٢) ؛ وحصن المرقب تلك الكتلة الهائلة الضخمة من البناء التى هيأت لمواجهة امكان قيام زلزال ، شيدت على قمة جبل (٣). وقد تنازل برتراند مانسويه عن ذلك الحصن للاسبتارية فى أول فبراير عام ١١٨٦ م بتصريح من سيده بوهيموند (٤) . وعن مناعة ذلك الحصن قال العماد الاصفهانى (٥) : « وهو معقل للاسبتارية ، عالى المنكب ، سامى المرقى والمرقب ، ضيق المذهب ، عسر المطلب » . ويكفيه انه قاوم الباطنية بجدارة ، وحرس حدود امارات انطاكية وطرابلس (٦) . وكان من الممكن رؤية قلعة المرقب على بعد فراسخ ، ذلك لأنها ـ كما قلنا ـ تتوج قمة تل منزوى يرتفع عن سطح البحر بحوالى ٢٠٠٠ قدم ، وقد بنيت من الحجر البازلت الاسود ، ويتميز برجها الرئيسى بانه اضخم من اى برج . وسورها المزدوج المحيط بها ، مزود بالعديد من الأبراج المرتفعة التى تبدو كانها تمسك باعنان السماء . وقد اخضعت القلعة لنفوذها شيخ الجبل (زعيم الباطنية) وملك حلب ، على الرغم من القلاع العديدة التى كانت تحت ايديهما ، وقد اضطرا لدفع جزية سنوية مقدارها الفين من الماركات من اجل الحفاظ على السلام معهما (٧). وتولى نوبات حراسة القلعة كل مساء اربعة فرسان وثمان وعشرون رجلا ، حتى فى أوقات السلم احتفظ الاسبتارية بحامية قوامها خمسة آلاف رجل . وزودت القلعة بالاحتياجات الضرورية التى تكفيها خمس سنوات ؛ وفى القلعة

---

(١) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ١٠٢ ،
ابن كثير : البداية والنهاية ، حوادث عام ٥٨٤ هـ .
(٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ .
(٣) Archer : op. cit. p. 361
(٤) Dussaud: La Syrie Antique. p. 152
(٥) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ١٠٢ .
Camille : Les Monuments des Croisés. Vol .II pp. 442—443 &
ابن حبيب : درة الاسلاك ، ج ١ ، ورقة ٨٠ .
(٧) Lamb : op. cit. p. 275

بعد الغروب كان يجتمع حول موائد العشاء فرسان الاسبتارية ، بأرديتهم السوداء من جنسيات مختلفة ، مثل الالمانى والايطالى والفرنسى والبروفنسالى والانجليزى والقطلانى والاسبانى (١) .

اما طائفة الداوية ، فقد حازت على قلاع مثل : صفد التى فتحها صلاح الدين الايوبى عام ١١٨٨ م (٥٨٤ هـ) (٢) ؛ وقلعة حصن الاحزان الذى بناه الداوية عام ١١٧٨ م (٥٧٤ هـ) ، وهدمه صلاح الدين فى العام التالى (٣)، وحصن طرطوس الذى امتنع برجه الضخم عن السقوط فى أيدى المسلمين عام ١١٨٨ م (٤) ؛ وحصن دربساك الذى كان « مرتفع الذرى ، ممتنع الذرا ، قد جاوزت الجوزاء ، وناجت أرضه السماء » ، بيد أنه سقط فى أيدى صلاح الدين عام ٥٨٤ هـ (٥) . ومن تلك الحصون أيضا : حصن بغراس على مقربة من انطاكية ، وقلعة صافيتا فى منتصف المسافة بين طرسوس وحصن الاكراد ، التى شيدت على تل وعر صعب المسلك ، على ارتفاع يبلغ حوالى ٣٢٠ مترا ، ولكنها سقطت فى أيدى السلطان الظاهر بيبرس فى يناير عام ١٢٧١م (٦).

ومن الطوائف الدينية الحربية التى حازت على قلاع ، منظمة فرسان التيوتون ، ولكن عددها كان قليلا ، لايقارن بعدد قلاع الداوية والاسبتارية ، ومن قلاع التيوتون قلعة القرين ، التى شيدت عام ١٢٢٧ م على مرتفع صخرى يبلغ حوالى ١٨٥ مترا ، على الحدود الغربية للجليل شمال فلسطين ، وهى ترجع الى أصل فرنسى ، وكانت مقرا لمونتفرت Montfort ، ثم تنازل عنها سيد ماندليه Le Seigneur de Mandelée لمقدم منظمة التيوتون هرمان دى سالزا Herman de Salza عام ١٢٢٩ م وصارت منذئذ مركزا للمنظمة ، وفرض عليها الظاهر بيبرس الحصار عام ١٢٦٦ م ، ولكنها لم تسقط فى يده

---

(١) Lamb. : op. cit. pp. 275—276
Dussaud : op. cit. p. 151

(٢) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ٧١ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، حوادث عام ٥٨٤ هـ .

(٤) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ١٠٢ .

(٥) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ١١٧ .

(٦) Camille : op. cit. Vol. II pp. 89—90

الا عام ١٢٧١ م ، فما كان منه الا أن دك أسوارها (١) • وفى عام ١٢٥٧م منح حاكم صيدا أو صاحب قلعة الشقيف ، قلعة شقيف تيرون للفرسان التيوتون، وهى تقع الى الشمال من قلعة الشقيف على بعد بضعة اميال ، وتعرف الآن بقلعة نيحـا (٢) •

واذا كانت الطوائف الدينية العسكرية للفرنجة قد امتلكت القـلاع والحصون ببلاد الشام ، فان طائفة الاسماعيلية التى لعبت دورا كبيرا بين المسلمين والصليبيين ، امتلكت القلاع ايضا ، اما بطريق المنح أو الشراء أو الحيلة • فبعد أن عظم امر الاسماعيلية بالشام عام ١١٢٦ م (٥٢٠ هـ) ، وانتشر مذهبهم ، طلبوا من طغتكين صاحب دمشق حصنا ، فوهبهم قلعـة بانياس (٣) • وقد شيدت تلك القلعة على قمة عند سفح جبل الشيخ ، وتسميها العامة قلعة النمرود (٤) • واستطاعت تلك الطائفة أن تشترى قلعة حصن القدموس ، وهى قلعة بالقرب من الخوابى ، واتخذتها سكنا لها ، ثم انطلقت منها لمحاربة جيرانها من المسلمين والصليبيين (٥) • وفى عام ٥٣٥ هـ استطاعت تلك الطائفة ايضا ، الاحتيال على صاحب حصن مصيات (مصياف) فى جبال النصيرية ، ومكروا به ، وتمكنوا من الاستيلاء عليه بطريق الحيلة والمكيدة (٦) • وقد حاول صلاح الدين الايوبى الاستيلاء على ذلك الحصن بعد قلاعهم أيضا : ابو قبيس ، والكهف ، والمنيقة ، والعليقة ، والرصافة ، وهى لن فرض عليه الحصار عام ١١٧٦ م (٥٧٢ هـ) ، ولكنه أخفق (٧) • ومن قلاع « رفيعة المقدار ، لاتسامى منعة ، ولا ترام حصانة (٨) •

Les Guides Bleus, pp. 504-506

King : op. cit. p. 305

(٢) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٢٦٠ ــ ص ٢٦١ •

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٢٠ هـ •

(٤) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٢٦٠ •

(٥) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٢٧ هـ •

ابو الفدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ٨ •

(٦) Dussaud : op. cit. p. 128

ابو الفدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٥

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٣ •

(٧) ابو الفدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ٥٩ •

Dussaud : op. cit. p. 129

(٨) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٤٦ ــ ص ١٤٧ •

ومن المسلم به أن القلاع والحصون الصليبية ، قد شيدت فى المقام الاول ، بغرض الدفاع عن الكيان الصليبى بالشام ؛ واصطبغت بصبغة عسكرية وارتبطت بنظام صارم ، ولا سيما القلاع التى كانت فى حوزة الطوائف الدينية الحربية ، فلم يكن بها مأوى للنساء (١) . ولكن تلك القلاع قامت بوظائف فعالة أخرى ، اذ كانت مراكز ادارية تموج بالسلام ، وعلامة بارزة على التطور الاقتصادى (٢) . وفضلا عن ذلك فقد كانت تلك القلاع مراكزا لعدد من المجتمعات القروية الهادئة ، فالصليبيون ربطتهم علاقات طيبة مع القرى المحيطة بهم من ناحية ، وسكانها الاصليين من الموارنة والمسلمين والشيعة والدروز ممن عاشوا فى أراضيهم من ناحية أخرى (٣) . واحتفظت القلاع بمظاهرها الدينية والاجتماعية والجمالية . فالبناؤون — خاصة السريان والروم — الذين استطاعوا بناء الاسوار الضخمة الصلبة ، كان فى امكانهم ايضا — اذا اقتضت الحاجة وقت السلم — ان يبتدعوا نحتا مزخرفا رائعا ، وليس أدل على ذلك من الكنائس الصغيرة La Chapelle ذات التصويرات الحائطية الملحقة بالقلاع (٤) . وكان بكل قلعة كبيرة ، غرفة واسعة كبيرة Great Chamber ،يصل طول البعض منها الى ما يزيد على ثمانين مترا (٥) . فالحجرة التى كانت للمقدم فى حصن الكرك ، بسقفها المعقود البارز، وبأعمدتها المربعة النحيلة ، وبشريطها الزخرفى البسيط الدقيق النحت المؤلف من خمس من اوراق الزهور ، هذه الحجرة فاقت فى الروعة والابداع معظم حجرات الحصون الكبيرة (٦) . وكان يعلق على جدران الحجرات الرايات والنصب التذكارية ، والنسيج المزدان بالرسوم والصور ؛ وقد وصف لنا الرحالة الالمانى ولبراند أولدنبرج Wilbrand of Oldenburg فى بداية القرن الثالث عشر ، غرفة كبيرة رآها فى قلعة بيروت — بيدوانها تضمنت الهاما

---

(١) Miller : Essays on the Latin Orient. p. 521

(٢) Small : Crusading Warfare. p. 60

(٣) Fedden : op. cit. pp. 40—41

(٤) Camille : op. cit. Vol. II p. 314
Fedden : op. cit. p. 41

(٥) Longnon : op. cit. p. 148

(٦) Enlart : Les Monuments des Croisés. Vol. II pp. 95—98.

بيزنطيا عربيا ـ ، قائلا : « غطيت الأرض بالفسيفساء ، والمياه يذبعث منها الخرير ، والنسمات هادئة خفيفة ، ويعتلى المرء الدهشة عندما يسير ولا يرى أثرا لوقع اقدامه على الرمل ، وغطيت جدران الغرفة بشرائح من الرخام الرائع الجمال ، والسقف مدهون بلون مشابه للون السماء ... وفى وسط الغرفة نافورة من الرخام المتعدد الالوان ، تتدفق منها مياه شفافة تاخذ مسارا منحنيا، والنسيم الآتى من خلال النوافذ المفتوحة يمد الغرفة بانتعاش لذيذ (١) » . وفى تلك الغرف كان يجلس الفرسان لسماع الموسيقى العربية المنبعثة من عود شرقى ، فى الوقت الذى كانوا يحتسون النبيذ المحلى (٢) . وفى قلعة الحاج (عثليت) وجد الحجاج الصليبيون وسائل الراحة النادرة . وفى نزل القلعة استطاعوا وضع امتعتهم الشخصية الى جانب الفراش النظيف المحشو بالقش . وتناولوا طعامهم فى حجرة طويلة ، انعشها نسيم البحر ، وفى تلك الحجرة كان بامكانهم مشاهدة ضباط الداوية وهم يتداولون الحديث (٣) . وتلك الغرف الكبيرة كانت معدة ايضا لعقد مؤتمرات الحرب ، واستقبال كبار الضيوف (٤) .

وعلى أية حال ، فان الشام خلال فترة الحروب الصليبية ، كانت تمثل بيئة غنية بالتحصينات الحربية من الطراز الاول ، استفاد منها الفرنجة ايما استفادة . فبعد ان عادوا الى اوطانهم فى الغرب الاوروبى ، ظهر تاثير الخبرة التى أكتسبوها فى العمارة الحربية واضحا ، فقد ادركوا الانجازات العظيمة فى آلات الحصار القوية ، والتاثيرات الرهيبة لحفر الخنادق وزرع الالغام ، فضلا عن ضرورة اختيار الموقع المناسب لتشييد القلعة او الحصن . ولا أدل على ذلك من قلعة شاتو جايار التى شيدها ريتشارد الأول ملك انجلترا (١١٩٦ ـ ١١٩٨ م) على نهر السين ، على جرف شديد الانحدار بلغ ارتفاعه ٣٠٠ قدم، وكانت أعظم القلاع قوة فى الغرب الأوروبى آنذاك : فضلا عن القلاع التى شيدت

---

(١) Fedden : op. cit. p. 41

(٢) Loc. cit.

(٣) Lamb : op. cit. pp. 273-274

(٤) Dersaud : op. cit. p. 144

فى نورماندى وانجلترا وروشستر ، التى يتضح منها التأثير البيزنطى (١) ٠ ولا ينبغى أن نغفل ان عمائر صلاح الدين الايوبى الحربية فى القاهرة ، تمثل قواعد الفن الحربى المعمارى فى المدرستين اللاتينية ، والعربية البيزنطية أحسن تمثيل ، وتوضح مدى التفاعل الحاصل بين المدرستين (٢) ٠

* * *

(١) Ency. Brittanica, Art. Castle and Lethaby : Mediaeval Art. pp. 105—106

(٢) نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ٢٠٨ ٠

الفصل الخامس

النشاط الفكرى والتفاعل الاجتماعى بين المسلمين والصليبيين

أولا ـ النشاط الفكرى :

ثانيا ـ التفاعل الاجتماعى .

***

أولا ـ النشـــاط الفـــكرى :

مما لاشك فيه أن الحروب الصليبية التى اتخذت من بلاد الشام مسرحا رئيسيا لأحداثها مدة قرنين من الزمان ، أدت الى وجود احتكاك حضارى بين المسلمين والصليبيين ، كان له شأن هام فى انتقال بعض التأثيرات الحضارية الاسلامية عبر بلاد الشام الى الغرب الاوروبى • وينبغى علينا الأخـــذ فى الاعتبار أن الحضارة الاسلامية ـ أو التأثيرات الحضارية الاسلامية ـ عندما اخذت تشق طريقها الى الغرب الأوروبى ، منذ أواخر القرن الحادى عشر ، سلكت عدة معابر أو قنوات أهمها ثلاثة هى : أسبانيا أولا ، وصقلية ثانيا ، وبلاد الشرق الادنى وما ارتبط بها من حروب صليبية ثالثا • غير أنه يحسن عدم الانسياق فيما ذهب اليه بعض كتاب القرن التاسع عشر من تركيز الضوء على أهمية الحروب الصليبية ، كمعبر انتقلت عليه التأثيرات الحضارية الى الغرب الأوروبى (١) • فالصليبيون قصدوا بلاد الشرق للغزو والاستعمار ، واتصفت حياتهم الجديدة بما يتصف به الجنود عادة من خشونة ، وتوجيه اهتمامهم الى الدفاع عن كيانهم وسط المحيط الاسلامى الواسع • واذا كانت الحروب بين المسلمين والصليبيين خفت وطأتها احيانا ، وتوقفت حينا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، الا أن الروح العدائية كانت هى الأصل • فالمسلمون لم ينسوا ان الصليبيين أتوا الى بلادهم بقصد الغزو والاستقرار ، ومن ثم آلوا على أنفسهم ضرورة طرد الصليبيين من بلادهم ، وبالفعل تمكن المسلمون من القضاء على آخر المعاقل الصليبية الكبرى بالشام ـ وهى مدينة عكا سنة ١٢٩١ م • وهكذا لم تتح للصليبيين فى الشرق الأدنى حيـــاة الاستقرار ، وهى الحياة اللازمة لمباشرة النشاط الفكرى ، بالقدر الذى اتيح لاخوانهم الاوروبيين فى الاندلس وصقلية (٢) • على أنه يجب أن نضع فى بالنا أن أوقات السلم بين المسلمين والفرنجة ، كانت أطول من فترات الحروب ،

---

(١) سعيد عاشور : المدنية الاسلامية ، ص ٥٦ ـ ص ٥٧ ،
محمد خلف الله : الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة ، ص ٢٣٤ ـ ص ٢٣٥ ،
(٢) سعيد عاشور : المدنية الاسلامية ، ص ٥٧ •

سواء أكان ذلك شتاء أم صيفا ، وتلك الفترات التى كانت تستمر فيها الهدنة اتاحت للفريقين الفرصة لان يختلطوا اجتماعيا ، ويتعاطوا مختلف الاعمال الاقتصادية (١) • أما التبادل الفكرى فلا يتم الا فى ظل استقرار كامل •

والواقع أن المسلمين فى كل مكان من بلاد الشام ، كانوا يعتبرون انفسهم ارفع ثقافة من الافرنج ، فكانت نظرتهم اليهم نظرة ترفع فيها شىء من الازدراء وعليه فلم ير المسلمون ان الفرنجة لديهم شىء ثقافى ومعارف تستحق الاهتمام (٢) • وافضل من عبر عن موقف المسلمين من الفرنجة بالنسبة الى الثقافة والعلوم ، هو اسامة بن منقذ صاحب شيزر ، اذ قال : « سبحان الخالق البارىء ، اذا خبر الانسان أمور الافرنج ، سبح لله تعالى وقدسه ، ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لاغير (٣) » ويمكن القول ان الحروب الصليبية، على الرغم من انها كانت غنية فى حوادثها المثيرة ، فانها كانت حروبا عقيمة هزيلة فيما حققته من نتائج فى حقل الفكر والثقافة ، وان المرء ليستطيع القول ان اثرها فى الغرب كان افضل من اثرها فى الشرق ، لأنها فتحت امام الغربيين نوافذ اطلوا منها على آفاق رحبة بعيدة ، لاسيما فى حقلى التجارة والصناعة ، اما فى مجال الفكر ، فقد كان مجدبا (٤) ، قليل العطاء •

وقد كان من الصعب فى عصر الحروب الصليبية ، ايجاد تفاعل فكرى بين المسلمين والفرنجة ببلاد الشام • صحيح أن الحضارة الاسلامية كانت وقتئذ متفوقة على الحضارة الغربية ، وعلى مستوى ارفع منها ، لكن العداء المستحكم بين الشرق والغرب ، والتعصب الدينى ، والحاجز اللغوى ، كل هذه الامور وقفت حائلا دون التفاعل الفكرى على نطاق واسع (٥) • وقد كان من المتوقع مثلما حدث فى بالرمو بصقلية ، أن يثير الاتصال بين الفرنجة والمسلمين النشاط العقلى ، على ان مجتمع الشرق الفرنجى الذى كاد أن يتالف باسره من

---

(١) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٧٩ •
(٢) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٨٧ •
(٣) الاعتبار ، ص ١٣٢ •
(٤) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٧٨ ،
Hitti : History of the Arabs. p. 659
(٥) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٨١ •

الجنود والتجار ، لم يهيىء فى الواقع مناخا صالحا لاقامة مستوى فكرى رفيع (١) .

ومن الثابت أن الصليبيين قد تغيروا خلال مدة تسعين عاما من احتلالهم الاراضى المقدسة ، اذ تبادلوا الحديث مع رجال من ذوى العلم من العرب ، وعاشوا مع الحشود الكهنوتية لاسيما : النساك النساطرة ، والأرمن . والرهبان الاقباط ، والموارنة ، واليعاقبة الذين كانوا يأتون للصلاة فى كنيسة القيامة عندما تكون الطرق آمنة (٢) . وقد أدى ذلك الى انهيار خشونة السيد الاقطاعى المألوفة فى الغرب الاوروبى امام كياسة الشرق ولباقته ، وتحوله الى رجل مهذب ذو ثقافة وعادات طيبة (٣) . ولهذا كان من بين الامراء والنبلاء الصليبيين كثير من رجال الثقافة ، لاسيما فى بلاط بيت المقدس ، فبلدوين الأول (١١٠٠ ـ ١١١٨ م) الذى كان قسا فى شبابه كان مثقفا ؛ وبلدوين الثالث (١١٤٣ ـ ١١٦٣ م) وعمورى الأول (١١٦٣ ـ ١١٧٤ م) شغفا بالقراءة ، وأولعا بدراسة القانون والتاريخ ، وكانا يشعران بالغبطة عند التحدث مع الاطباء والشمامسة والعلماء ، وعمورى هو الذى طلب من وليم الصورى الشروع فى كتابة تاريخ للصليبيين (٤) . كذلك كان حنا دى ابلين Jean d'Iblen نموذجا للبارونات المتحضرين من الجيل الثانى ، راعيا للفنون، مهتما بالادب ، دارسا عظيما للقانون (٥) .

ومن المعروف أن التبادل الفكرى بين فريقين ، لابد وأن يسبقه معرفة كل فريق بلغة الآخر ، حتى يتسنى له الاطلاع على آدابه وعلومه ، وسبر أغوارها؛ واذا طبقنا ذلك فى الشرق الفرنجى نجد أن اللغة حالت دون التمازج الفكرى والثقافى . وبالرغم من ذلك ، فقد الزمت ضرورات الحياة السياسية

---

(١) رنسيمان : الحرب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٨١٧ .
(٢) Lamb : op. cit. p. 56
(٣) Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages. Vol. I p. 435
(٤) Longnon : Les Français d'Outre Mer en Moyen p. 143
(٥) Thompson : op. cit. p. 435

والاجتماعية بعض كبار الامراء والنبلاء الصليبيين أن يتعلموا اللغة العربية ، وان يلموا بها الماما تاما ، حتى يسهل عليهم التعامل مع المسلمين ، والتفاوض معهم فى ميادين السلم والحرب (١) . وبصرف النظر عن البولانيين الذين كانوا على دراية باللغة العربية ، فقد كان على العديد من السادة الاقطاعيين ان يكونوا على دراية بالعربية ، وهى معرفة لازمة للعلاقات بافصالهم ، وتنظيم الادارة والتجارة ، غير انه لاشىء يدل على ان بارونات بلاد الشام كانوا على دراية بالشعر العربى مثلما هو الحال بالنسبة للنورمان فى صقلية (٢) .

ويأتى فى مقدمة الذين اهتموا بمعرفة اللغة العربية ، وتذوق آدابها ، المؤرخ وليم الصورى ، الذى من المرجح انه ولد فى مدينة بيت المقدس قبيل عام ١١٣٠ م . من ابوين ينتسبان الى أسرة فرنسية : نشا وليم فى الشرق ، وتعلم اللغتين العربية واليونانية ، واجاد القراءة والكتابة بهما اجادته اللاتينية ، والف بناء على رغبة صديقه وسيده عمورى الاول ملك بيت المقدس ، كتابا عن تاريخ الشرق بوجه عام والغرب بوجه خاص ، منذ ظهور الاسلام الى زمنه ، وتناول فيه الحديث عن محمد صلى الله عليه وسلم وأمراء الشرق اجمعين ، معتمدا على المصادر العربية واليونانية ولا سيما تاريخ سعيد بن البطريق ، وأسمى وليم كتابه هذا تاريخ Une Historia Sara Cenorum وللاسف ضاع هذا المخطوط الكبير ، ولم يبق منه سوى ما نقله منه مؤرخو القرن الثالث عشر (٣) . وشارك وليم فى هذا الميدان ريموند كونت طرابلس الذى تولى الوصاية على ملك بيت المقدس عام ١١٧٤ م ، ففى اثناء السنوات الطويلة التى أمضاها فى الاسر فى حلب بدءا بعام ١١٦٥ م ، انكب على القراءة والدراسة ، وتعلم اللغة العربية ، ودرس سبل المسلمين وأساليبهم (٤) .كذلك كان ريناد سيد صيدا (١١٧١ ــ ١١٨٧ م) ممن كان بهم ميل للعلم والدراسة، وله ولع خاص بالآداب العربية ، عرف باطلاعه « على بعض التواريخ والاحاديث » ، وكان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه ، وقد نال ريناد اعجاب صلاح

---

(١) نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٨٤ .

(٢) Lammens : La Syrie Précis Historique. Vol. I. p. 261

(٣) نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٨٤ ــ ص ١٨٥ .

(٤) رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ٦٥٢

الدين الأيوبى ، اذ عندما اشتد ضغط الاخير على قلعة الشقيف ارنـــون فى ديسمبر عام ١١٨٨ م (٥٨٥ هـ) ، قدم رينالد الى مخيمه ،وأعرب له عن رغبته فى تسليم القلعة والالتجاء الى دمشق ، بعد ان يمهله ثلاثة شهور لتسوية أموره ، ولوح لصلاح الدين بانه قد يعتنق الاسلام ، فاقتنع بصدق نيته . ولكن ظهر بعد ذلك أن ما قاله خديعة (١) • وعندما زار ابن جبير عكا مع قافلة ، شاهد كتاب الديوان (الجمرك) الصليبيين ، وهم يكتبون باللغة العربية ويتكلمون بها (٢) • وقد وجد رهبان الفرنج أن من الخير لهم استيعاب اللغــة العربية . ونلمس ذلك عندما أرسل زعيم طائفة الاسماعيلية وفدا الى لويس التاسع ، احتاج الى تراجمة من الافرنج لينقلوا الرسالة بواسطتهم ، ولما ارسل لويس سفيرا للاسماعيلية فى قلاعهم ؛ وقع اختياره على الراهب الدومينيكانى ايف لى بريتون Yves Le Breton ، الذى كان على دراية تامة باللغة العربيـــة (٣) •

ولم يحاول المسلمون معرفة لغة الفرنجة ، كما يصنع أغلب الذين يختلطون بهم من التجار ونحوهم . واسامة بن منقذ الذى خالط البعض منهم وصادقــه لم يكن يحسن غير لغته العربية ، وهو يقول عن الافرنج : « انهم لا يتكلمون الا بالافرنجى ، ما ندرى ما يقولون (٤) » • وفى مكان آخر يشير الى امرأة فرنجية « تبربر بلسانهم وما ندرى ما تقول (٥) » •

اما عن التعليم فى الشرق الفرنجى ، فالمعلومات عنه ضئيلة للغاية ، لعدم اهتمام الامارات اللاتينية بانشاء مراكز ثقافية لرعاياها ، ولأن التعليم بها مثلما كان بالغرب لايعدو أن يكون عبارة عن مدارس ملحقـــة بالكاتدرائيات

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٤٢ ــ ص ٤٣ •
ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٦ ، ص ١٩٢ ــ ص ١٩٣ •
ابو شامه : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٩ •

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٧٥ •

(٣) Grousset : Histoire des Croisade. Vol. III pp. 517—518

(٤) الاعتبار ، ص ٦٦ •

(٥) الاعتبار ، ص ١٤٠

الكبيرة ، أو ببلاط الملوك والامراء على النمط الموجود فى الغـــرب الاوروبى وقتذاك : ولا ادل على ذلك من ان قادة الفكر من رجال السياسة والدين أمثال وليم الصورى ، وايمرى بطريرك انطاكية ، وجيمس دى فيترى اسقف عكا ، كانوا ممن ذهب الى فرنسا لاكمال تعليمه (١) • وعلى أية حال ، فقد ظلت ثقافة الفرنجة فى الشرق الفرنجى مستوردة من الغرب ، ولم يحدث الا اتصال ضئيل بالثقافة المحلية ، فيما عدا الفنون ، لاسيما الحـــربية منها • ومن الاسباب التى ادت الى ضآلة الحياة العقلية الفرنجية ببلاد الشام ، حالة العداء الدائمة التى عاشها السادة الاقطاعيون الصليبيون بينهم وبين المسلمين، وترتب على ذلك أن ما اسهمت به الحروب الصليبية من ثقافة لغرب أوروبا كان مخيبا للآمـــال (٢) •

واذا فرضنا ان الصليبيين توافرت لهم مقومات الحياة العلمية ، فأين لهم بالعلوم التى يأخذون عنها ؟ فالثابت ان عصر الحروب الصليبية بالذات قد امتاز بنوع من النضوب الفكرى فى بلاد المشرق الاسلامى ، فقل الاقبال على الفلسفة بوفاة ابن سينا عام ١٠٣٧ م ، والغزالى عام ١١١١ م ، بل أن الخليفة العباسى فىبغداد أمر عام ١١٥٠ م (٥٤٥ هـ) باحراق الكتب الفلسفية، ومن بينها مؤلفات ابن سينا نفسه ؛ ولهذا لم يكن فى وسع رسل الغرب الاوروبى الاستفادة من المسلمين وعلومهم (٣) •

وبالاضافة الى ذلك الرأى ، فان المسلمين الذين وقعوا تحت الســيطرة المباشرة للصليبيين ، لم يكن فى وسعهم مزاولة النشاط العقلى كما ينبغى نظرا لوضعهم المزعزع ، والمتلىء بالقلاقل ، حتى المدن التى ظلت بعيدة عن متناول الصليبيين ، وصلت الحياة العقلية فى بعضها الى درجة بالغة الانحطاط • من ذلك حلب التى كانت امارة مستقلة حينا ، وتابعة لدمشق تبعية فعلية حينا ،

---

(١) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٨١٨ ،
سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٨٨ •

(٢) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٨٢٢ ،
Chalander : Hist. de La Première Croisade, p. 360.

(٣) سعيد عاشور : النهضات الاوروبية ، ص ٣٧٣ •

واسمية حينا آخر ، نلاحظ أنها على ايام الحروب الصليبية الاولى خلت من العلماء بسبب التهديد الصليبى المستمر لها ، حتى صار الناس يأخذون النحو من أبى السخاء فتيان الحلبى ، وهو حائك من عوام حلب ، قرأ شيئا من النحو وفهم أوائله ، ولما عدم فى زمانه من يعرف هذا الشأن ، وظلت المدينة حينا من الزمن لا عالم بها، ، قنع الناس بما عند فتيان الذى توفى فى حدود عام ٥٦٠ هـ ، ثم لم تلبث حلب ان استعادت مركزها العلمي ، حتى صارت مكتظة بالعلماء ، كما وصفها بذلك ابن خلكان عندما زارها عام ١٢٢٨ م (٦٢٦ هـ) (١) • واذا كان ذلك حال حلب ، فان الوضع فى دمشق اختلفت عنها ، فأثناء زيارة ابن جبير لها فى عصر الحروب الصليبية على أيام صلاح الدين الايوبى ، وزار جامعها الشهير ، رأى ما كان يعقد من حلقات الدراسة ، التى كان ينفق على طلبتها ومدرسيها أوسع النفقات ؛ وقد كان هذا الجامع الذى وصفه ابن جبير من أعظم مواطن الثقافة فى الشام ، وعرف فى عصر الحروب الصليبية طائفة من اعلام العلماء ؛ ويرجع السبب فى ذلك الى أن دمشق كانت أبعد من أن تنالها آمال الصليبيين ، ولهذا ظلت الحركة العلمية نشيطة بجامعها العتيد (٢) • أما المسجد الاقصى ، عندما سقط فى ايدى الصليبيين عام ١٠٩٩ م (٤٩٢ هـ) ، عملوا على تحويل قبة الصخرة الى كنيسة ، والمسجد الى منزل لسكنى ملكهم ، وسرعان ما اختفى صوت العلم فيه زهاء تسعين عاما ، حتى فتحه صلاح الدين الايوبى ، فاعاده الى ما كان عليه (٣) ، وقبل مجىء الصليبيين كانت مدينة طرابلس من أعظم مواطن العلم فى الشام ، بفضل الحسن بن عمار قاضى طرابلس للفاطميين والمتغلب عليها ، فقد أنشأ بها دار حكمة ، على مثال تلك التى انشأها الحاكم بأمر الله بالقاهرة ، وللغرض نفسه انشئت من أجله ، وهو نشر التشيع ، وعظمت طرابلس فى زمن بنى عمار ، ويقال انه كان بها اذ ذاك عدة مدارس وخزائن كتب ، ولكن نور العلم لم يلبث أن خبا بعد عهد قصير من قيام الحروب الصليبية ، اذ سقطت طرابلس فى يد الفرنجة عـــام ١١٠٩ م (٥٠٣ هـ) (٤) •

---

(١) أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ، ص ٢٥ •
(٢) أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ، ص ٢٣ ــ ص ٢٤
(٣) أحمد بدوى : المرجع السابق ، ص ٢٦ •
(٤) أحمد بدوى : المرجع السابق ، ص ٢٩ ــ ص ٣٠ •

ولهذا لم تكن بلاد الشام والحروب الصليبية ، فيما زعم بعض باحثى القرن التاسع عشر ، الطريق الاكبر للتبادل الثقافى بين الاسلام والمسيحية، فلم يكن هناك فى مملكة اللاتين فى الشرق الادنى او قريبا منها مركز عظيم للمعارف الاسلامية ، يستطيع المسيحيون ان يستمدوا منه ، ولم يكن هناك أيضا امتزاج ثقافى مستمر او عميق بين المسيحية والاسلام كما كان فى اسبانيا وصقلية (١) • وثمة فارق بين الوضع السياسى فى اسبانيا ايام حكم العرب لها ، وبين بلاد الشام على زمن الحروب الصليبية • ففى اسبانيا كان الغالب ـ وهم المسلمون ـ يمتلك معظم البلاد فيما عدا بعض الجيوب الصغيرة فى المناطق الشمالية الجبلية : اما فى الشام فقد كان الغالب ـ وهم الفرنجة ـ فى وضع قلق مزعزع ، يقيم فى القلاع والتكنات ويعد مديدا واسع من المعادين• من أجل هذا استطاع العرب فى اسبانيا ان ينشروا ثقافتهم وعلومهم ، فاستفاد منها المسيحيون استفادة بالغة الاهمية ، بعكس الامر فى بلاد الشام ، اذ اهتم الغالب بالطريقة التى يحمى بها وجوده قبل اى شىء اخر •

ويقع الانتاج العقلى للفرنجة فى الشرق الادنى فى ثلاثة اقسام : اولها الحوليات والتواريخ • فلمدة قرنين من الزمان ، اصبحت الحركة الصليبيـــة حديث اوروبا ، وقد تنافس الرجال الذين كانت لهم القدرة على الكتابـة على طريقة الحوليات ، وهى الطريقة الشائعة فى العصور الوسطى بين مورخـــى الشرق والغرب ؛ وفى اول الامر كتب القسس والجنود والملاحظون الاذكيـــاء قصصا عن الحوادث التى شاهدوها وعرفوها ، تلك القصص المفعمة بالمعجزات والخوارق والخرافات والبطولات (٢) • وكل الحوليات باستثناء وليم الصورى وتاريخ احد المذيلين علية مثل ارنول ، الفها رجال ولدوا ونشأوا فى الغرب (٣)• وتاريخ الحروب الصليبية ببلاد الشام رواه ما يقرب من اثنى عشر مؤرخ معاصر ، والمع أولئك المؤرخين قاطبة وليم الصورى ، فاعماله التاريخية عظيمة بكـــل ماتحمله الكلمة من معنى ؛ واذا كان قد اطلق على هيرودوت أب التاريخ

---

(١) محمد خلف الله : الثقافة الاسلامية ، ص ٢٣٥ •

(٢) Lamb : op. cit. p. 382

(٣) رنسيمان : الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٨١٩ ،
نظير سعداوى : الحرب السلام ، ص ١٨٨ •

فان وليم الصورى يعتبر أب التاريخ فى عصره ، وهو جدير بذلك اللقب لحسن نظامه وتنسيقه ، ومعالجته الفنية للموضوع ، تمتعه بفن السرد الحيـــوى للحوادث (١) • وقد امتلك وليم أعظم صفتين لكتابة التاريخ فى عصـــره ؛ المعرفة الشخصية باصحاب الحوادث بحكم منصبه الرسمى الحالى ، وايمانه الشديد بالحقيقة ؛ ولما كان وليم دبلوماسيا واسقفا ومؤدبا ملكيا ورئيسا لـديوان انشاء المملكة ، فمن المحقق أنة امتلك تجربة عن الرجال والشئـــون العامة لاينافسه فيها أحد (٢) • ومن بين مؤرخى الحروب الصليبية الغربيين ذلك النورمندى المجهول الذى صنف كتاب «أعمال الفرنجة» Gesta Francorum وصف فيه أول حرب صليبية ؛ وفولشر الشارترى Fulcher of Charters الذى الف كتاب Historia Hierosolymitana وصف فيه الحرب الصليبية الاولى ، وتاريخ مملكة بيت المقدس حتى عام ١١٢٧ م (٣) •

وثانى الانتاج العقلى للفرنجة فى بلاد الشام ، تلك الحصيلة الضخمة من المؤلفات القانونية ، وهى مجموعة التشريعات القانونية والدستورية التى اهتم بها الصليبيون الاوائل وسلالتهم ، وحرصـوا على تدوين آرائهم ، واحكامهم القضائية ونظمهم السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية• وقد جاءت هذه التشريعات بصورة مطابقة لمثيلتها فى الغـــــرب الاوروبى ، باستثناء بعض الاصلاحات الضرورية التى تطلبتها البيئة الشرقية (٤) • ويخص المؤرخون من تلك التشريعات بالذكر ما وضعته مملكة بيت المقدس الصليبية ، فخلقت منها دولة ذات نظام سياسى وطيد الاركان ، وجددت الحقوق والواجبات لرعاياها ، وهم من جنسيات متعددة واهواء متباينة ، فحققت هذه التشريعات الحياة اليومية العادية للمسيحيين من أهل الشام على اختلاف مذاهبهم ، وللمسلمين واليهود والسامريين والبدو والفرنجة فى ظل ادارة ارستقراطية من أصل فرنسى (٥) • وقد وضعت تلك التشريعات زمن بلدوين

(١) Archer : The Crusades. pp. 440–441

(٢) Miller : Essays on the Latin Orient. pp. 350—351

(٣) باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٢٥ ــ ص ١٢٦ •

(٤) رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٨١٩ ،
نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٨٨ ــ ص ١٨٩ •

(٥) نظير سعداوى : المرجع السابق ، ص ١٨٩ •

الاول ، ورغم صيانتها عام ١١٨٧ م ، وهو العام الذى احرز فيه صلاح الدين الايوبى انتصاراته الباهرة ضد الصليبيين ، فقد حل محلها فى القرن الثالث عشر مجموعة أخرى من القوانين ، لم يعرف منها سوى اربعة كتب : اولها « كتاب فيليب دى نافار » تناول فيه قانون الاقطاع ، والظاهر انه كتبه قبل عام ١٢٥٣ م ؛ وثانيها « كتاب حنا ابلين » كونت يافا ، وكتبه حوالى عام ١٢٥٣ م وهو صورة من كتاب فيليب دى نافار ؛ وثالثها « كتاب الملك » عالج فيه مؤلفه السلطة الملكية وسلطات بعض الامراء ؛ ورابعها وآخرها « كتاب نشأة البورجوازية » ، ويتناول فيه مؤلفه القانون المدنى ، ويبدو انه كتب بين عامى ١١٩٤ ، ١٢٢٩ م : ونخرج من ذلك الى أن الكتب الاربعة جمعت القوانين الادارية والتشريعية الحياة السياسية فى الشرق الفرنجى خلال القرن الثالث عشر ، كما درست طبقات المجتمع الصليبى (١) .

اما القسم الأخير من انتاج الحياة العقلية فى بلاد الشام الفرنجية ، فيتمثل فى الشعر القومي والعاطفى تمثيلا حيا . والحروب كما هى العادة دائما توحى الى الادباء والشعراء بادق الاحاسيس والمشاعر فى الوان متعددة ، يصفون فيها البطولات والمعارك . واذا كانت الحروب الصليبية قد اثرت تاثيرا قويا على الادب العربى ، بل وعلى الراى العام بوجه عام ، فمن الواضح انها اثرت فى الفكر الاوروبى ؛ وساعد على نمو هذا النوع من الادب ما اغدقه الملوك والامراء بسخاء على الشعراء . ولا ريب ان شعر العصور الوسطى كان ابتداعا صليبيا ، نمذ بداية الحروب الصليبية انسى التعصب الدينى والبسالة الحربية وغموض الشرق ، موضوعات الوعظ منتصف العصور الوسطى ، فتغنوا بهذه المعانى على انغام القيثارة ، وسرعان ما صار الكل انشودة عظيمة عنصرها الشرقى . فهيون من باردو Huon of Bordeaux كان له مغامرات عديدة فى مصر والشرق ، ورينو دى مونتابان Renaud de Montauban الذى انجزنى اواخر عمره اعمالا بطولاية عادية فى الارض المقدسة ، وبيفز من هامبتـون Bevis of Hamptoun الذى زار بيت المقدس ، وتزوج بابنة امير ، ولهذا كان الصليبيين قد ابتكروا ادبا سياسيا جديدا (٢) .

---

(١) انظر عدداوى : المرجع السابق ، ص ١٨٩ — ص ١٩٠ .
(٢) Archer : op. cit. p. 414

والمعروف أن الحملات الصليبية جاء برفقتها العديد من الشعراء الغنائيين المعروفين بشعراء التروبادور • وما اقترنت به الحروب الصليبية من أحداث رائعة مثيرة أعطت فيضا غزيرا للشعراء ، فلم يلبث جودفرى اللورين (ت ١١٠٠ م) ان صار بطلا اسطوريا ، ذكرت مغامراته فى قصيدة Chevalier au Cygne ، غير انها اذا كانت متداولة فى الشرق حينما الف وليم الصورى تاريخه ، الآ أنة جرى قرضها فى الغرب ؛ وشبيه بذلك القصيدتان المنظومتان عن الحملة الاولى ، وهما انشودة أنطاكية Chanson d'Antioche وأنشودة بيت المقدس اذ جرى تأليفهما فى الغرب على اساس مانقله الصليبيون العائدون معهم من معلومات : اما الملحمة الوحيدة التى ألفت فى الشرق فهى أنشودة الحقراء (الأدنياء) Chanson des Chétifs التى تتعلق بحصار أنطاكية عام ١٠٩٨ م ، وتروى قصة مدهشة عن الصليبيين الذين وقعوا فى أسر كربوقا (١) • وقد نظم القصيدة الاخيرة مؤلف مجهول ، تلبية لرغبة ريموند دى بواتييه أمير انطاكية (١١٣٦ ــ ١١٤٩ م) • غير أن ما استندت اليه من اساس تاريخى بعيد عن الدقة ، يعطى مؤشرا أن مؤلفها كان من القادمين حديثا الى الشرق الفرنجى ؛ وعلى كل فانها حظيت بقبول واسع فى الشرق الفرنجى وأوربا سواء • ومن أولئك الذين نظموا الشعر ، ولم ينشأوا فى الشرق الفرنجى ، فيليب النوفارى Philippe de Navare السياسى والمؤرخ والمشرع الذى نظم بالفرنسية ، على الرغم من أنه ايطالى المولد ، ويعتبر أحد رواد الثقافة الفرنسية فى الشرق ؛ وفيليب نانتيل الذى أسر فى القاهرة ونظم قصائد عن وطنه فرنسا ، عبرت عن احاسيسه ومشاعره المكبوته فى الاسر ، وحنينه الى وطنه (٢) • وبتلك القصائد وغيرها ، تكونت مادة القصص التاريخية التى وضعت فى قالب شعرى ، عمل على نقلها بعد ذلك المغنون المتأخرون ، فنمقوها واضافوا اليها اضافات رومانسية من وحى خيالهم ، الأمر الذى أدى ــ بمرور الزمن ــ الى ابتكار أدب رومانسى جديد ، يتصف بالخيال ، نتدت فى ثناياه الحقائق المجردة (٣) •

وعلى عصر الحروب الصليبية الاولى انتشرت أغنية رولان Chanson

---

(١) Ibid. Loc. cit.

(٢) Grousset : L'Empire du Levant. p. 327

(٣) Archer : op. cit. p. 444

de Roland ، التى اظهرت شارلمان فى ثوب الصليبى الذى قام بحرب دينية مقدسة ضد مسلمى الاندلس ، وقد دونت تلك الاغنية باللغة الفرنسية الناشئة فى اسلوب جميل ، يجمع بين البلاغة وقوة التاثير ، مما مكن رجال الدين من استغلالها فى الدعوة للحروب الصليبية • ويبدو ان كثيرا من اغانى الملاحم كان الغرض منها تشجيع المعاصرين على الحج وزيارة الاماكن المقدسة فى كومبوستلا وروما وفلسطين : كما يبدو ان نسبة كبيرة من تلك الاغانى كتبها بعض رجال الدين ، وبعبارة أخرى كانت نوعا من الدعاية الدينية فى العصور الوسطى اتخذت شكل ملاحم (١) •

واذا كانت حالة عدم الاستقرار فى بلاد الشام ، قد اعاقت انشاء مراكز فكرية الصليبيين تؤدى الى تفاعل الثقافتين الاسلامية واللاتينية ، فان الامر لايخلو من امثلة تدل على انتقال الافكار العلمية والفلسفية العـــربية الى أوروبا ، عن طريق بعض العلماء الذين زاروا بلاد الشام على زمن الحروب الصليبية • فيقال أن أدلار الباثى Adelard of Bath الذى درس على العرب علوم الفلك والهندسة ، قد طاف بمصر وآسيا الصغرى ابان النصف الاول من القرن الثانى عشر : ومن الثابت ايضا أن ليوناردو فيبوناتشى Leonardo Fibonacci قد طاف بمصر والشام ، وليوناردو هذا أول عالم مسيحى اشتغل بعلم الجبر وكان معاصرا لفردريك الثانى (١١٩٨ ــ ١٢٥٠ م) والبه قدم بحثه فى الاعداد المربعة Square Numbers (١) •

ومن الناحية اللغوية ، انسابت بعض الكلمات والمصطلحات العربية فى اللغات الغربية ، وان كانت هناك صعوبة فيلولوجية فى تحقيق نسبة استعارة هذه الالفاظ ، لان بلاد الشام لم تكن وحدها المكان الذى اتصل فيه الغـــرب الأوروبى بالشرق العربى (١) • ولازالت الكلمات العربية التى دخلت اللغة الأوروبية حية ، تعطى الدليل القاطع للاهداف الجديدة والافكار التى وردت من الشرق الفرنجى،وتقابلنا تلك الكلمات فى كل مكان،مثل الكحول alcohol

---

(١) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ ــ ص ٢٤٨ •

(٢) باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٢٣ •

(١) سعيد عاشور : النهضات الاوربية ، ص ٣٢٤ ،

باركر : الحروب الصليبية ، ص ١١١ ــ ص ١١٢ •

والفصة alfalfa ، والقلوى alkali ، والجبر algebra ، والسمت azimuth ، والـــذروة zenith (١) • ولايزال يستعمل فى الغرب ايضا اصطلاحات عربية فى التجارة مثل : سوق Bazar ، دينار Dinar ، تعريفة Tariff ، الترتره zechin ؛ وفى الشئون البحرية مثل : أمير البحر (أمير الماء)admiral ، دار الصناعة arsenal ؛ وفى الشئون المنزلية مثل : مختلى مظلل (فى حديقة) alcove ، الغرافة (ابريق زجاجى) Carafe ، حشية (فراش) mattress ، اريكة sofa ، تميمة (حجاب) amulet ، الاكسير elixir ، الجلاب (شراب منعش معد من بعض الأعشاب العطرة) Julep ، الطلسم Talisman ؛ ولايزال يستعمل أو قد استعمل فيما مضى بضعة اصطلاحات عربية فى الموسيقى مثل : عود lute ، النقارة naker ؛ وأيضا من الكلمات العربية التى استعيرت الى اللغة الانجليزية ، نذكر الكلمات : قافلة Caravan ، دليل السياح (الترجمان) dragoman ، جرة Jar ، شراب Surup ؛ ونكرر القول أنه قبل البت فى أن ادخال مثل هذه الاصطلاحات راجع الى الحروب الصليبية ، لابد من الرجوع الى استشارة الفيلولوجيـــة الرومانسية والعربية ، والتدقيق فى تعيين المكان الاصلى والزمن الذى تسربت الكلمات من خلاله • أما الكلمات الغربية التى انسابت فى اللغة العربية فهى أقل بكثير ، ومما يذكر منها : انبرور inperator ، قسطل Castellum ، برج Burgus ، غرشى Grossu(٢) • ورغم أن المسلمين احجموا عن تعلم لغة الصليبيين ، مخالفين فى ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم وهو من تعلم لغة قوم أمن شرهم ، فان المؤرخين المسلمين كثيرا ماترددوا فى المصادر الاصطلاح الغربى « ترم » term ، ومثال ذلك قول ابن شداد : « انقضى الترم الأول ، وتحضر الرهائن فى ترومكم (فصولكم) (٣) • وأيضا قول العماد الاصفهانى : « وانتهى الترم الأول » (٤) •

وعلى عصر الحروب الصليبية كان الطب واحدا من العلوم التى نبغ فيها المسلمون ، يدل على الفروق الحضارية الواضحة بين المسلمين والصليبيين •

---

(١) Lamb. op. cit. p. 380

(٢) باركر : المرجع السابق ، ص ١١١ ــ ص ١١٢ •

(٣) النوادر السلطانية ، اماكن متفرقة •

نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٩١ ــ ص ١٩٣ •

(٤) الفتح القسى ، ص ٢٦٨ •

وتكاد تنعدم معلومات الصليبيين عن الطب فى ذلك الوقت ، شأنهم فى ذلك شأن الاوروبيين فى الغرب الاوروبى ، وذلك بسبب الجهل وتزمت رجال الدين فى العصور الوسطى ، حتى اعتبروا المرض نوعا من الجزاء او العقاب الالهى لايصح للانسان ان يعالج أو يبرأ منه ، فاذا حدث ان انتابت أحدهم حمى هرع الى أقرب دير او كنيسة حيث يختفى على مقربة منها منتظرا حدوث معجزة تشفيه (١) • والثابت أن السادة اللاتين فى القرن الثانى عشر فضلوا الاطباء المسلمين أو اليهود على اطباء الغرب الاوروبى (٢) • وما أورده اسامة ابن منقذ من أمثلة عن ممارسة الفرنجة للطب ، تدل على جهلهم بابسط المبادىء الطبية ، فقد قال : « ومن عجيب طبهم (الفرنج) ان صاحب المنيطرة كتب الى عمى يطلب منه انفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه • فأرسل له طبيبا نصرانيا يقال له ثابت • فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ما اسرع ما داويت المرضى ، فقال : احضروا عندى فارسا قد طلعت فى رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف • فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت • وحميت المرأة ورطبت مزاجها • فجاءهم طبيب افرنجى فقال لهم : احضروا لى فارسا قويا وفأسا قاطعا « فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر • فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس : « اضرب رجله بالفاس ضربة واحدة اقطعها » فضربه ، وأنا اراه ، ضربة واحدة ما انقطعت • ضربه ضربة ثانية ، فسال مخ الساق ، ومات من ساعته • وأبصر المرأة فقال : « هذه امرأة فى رأسها شيطان قد عشقها • احلقوا شعرها ، فحلقوه • وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل • نزاد بها النشاف • فقال : «الشيطان قد دخل فى رأسها» • فأخذ الموسى وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الراس وحكه بالملح ، فماتت فى وقتها • فقلت لهم : « بقى لكم حاجة ؟ » قالوا : « لا » فجئت وقد تعلمت من طبهم مالم أكن أعرفه » (٣) • وفى ذلك المجال يروى أسامة أيضا قصة عن عجائب الطب لدى الفرنجة قائلا : « ومن عجيب طبهم ماحدثنا به كليام دبون William of Bures صاحب طبرية وكان مقدما فيهم • واتفق انه رافق الامير

---

(١) سعيد عاشور : المدنية الاسلامية ، ص ١٤٦ •

(٢) Schlumberger : Campagnes du Roi Amaury. 1er p. 1

(٣) الاعتبار ، ص ١٣٢ ــ ص ١٣٣ •

معين الدين ، رحمه الله ، من عكا الى طبرية وانا معه . فحدثنا فى الطريق قال : « وكان عندنا فى بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت . فجئنا الى قس كبير من قسوسنا قلنا : « تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلانا ؟ » .قال : « نعم » ومشى معنا ونحن نتحقق انه اذا حط يده عليه عوفى . فلما رآه قال : « اعطونى شمعا » فأحضرنا له قليل شمع ، فلينه وعمله مثل عقد الأصبع . وعمل كل واحدة فى جانب أنفه . فمات الفارس فقلنا له : « قد مات » . قال : « نعم » كان يتعذب سددت انفه حتى يموت ويستريح » (١).

ولم يحاول الاطباء الصليبيون محاولة اطباء جنوب ايطاليا فى الاستفادة والتعلم شيئا من الطب المحلى ، وطريقة التداوى المنظم التى استردت بعض جذورها من الشرق الاسلامى (٢) ، على الرغم من أن ستيفن الانطاكى قام سنة ١٢٢٧ م بترجمة كتاب « كامل الصناعة الطبية » من العربية الى اللاتينية ، الذى ألفه على بن العباس المجوسى (ت ٩٩٤ م) ، وكان الافرنج يضيفون الى اسمه « القديس » ، ولم يعرف كتابا غير هذا الكتاب ، ترجـــم الى اللاتينية على أيام الحروب الصليبية (٣) . وبطبيعة الحال ، لم يكن الفرنجة بحاثة أو رجال فكر ، مما أدى الى أن تصير كمية الترجمة من العربية الى اللاتينية فى فلسطين وسوريا بالغة الضآلة بشكل يبعث على الدهشة (٤) . هذا بالاضافة الى أن المركز الرئيسى للترجمة من العربية الى اللاتينية أصبح شبه جزيرة ايبريا ، حيث ازدهرت حضارة العرب ، وكثرت كتبهم فى مختلف العلوم والفنون ، ومن ثم اتجه كثير من اعلام النهضة الاوروبية فى القرن الثانى عشر الى أسبانيا ، بطلبون الارتواء من فيض الحضارة الاسلامية (٥) ؛

وبسبب الحروب الصليبية ، بلغ الصليبيون شأوا بعيدا فى التسامح فالصليبيون ــ كقاعدة ــ غلب عليهم الجهل ، فاعتقدوا فى الخزعبلات ، وصوروا

---

(١) الاعتبار ، ص ١٣٧ ــ ص ١٣٨ .

(٢) رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٨١٩ .

نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٩٩ ــ ص ٢٠٠ .

(٣) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٢٨١ .

(٤) Haskins : Studies in Med. Culture. p. 99

(٥) سعيد عاشور : النهضات الاوروبية ، ص ١٨٠ .

المسلمين فى نظرهم كوثنيين ، ولهم العذر فى ذلك ، فقد لقنوهم فى الغرب الأوروبى أن المسلمين يعبدون محمدا (صلى الله عليه وسلم) (١) ٠ ولكن مائتى عام من الاتصال اليومى مع المسلمين والاحتكاك بحضارتهم ، أوجدت تغييرا ملحوظا فى افكار الاوروبيين ، اذ وجدوا المسلمين اصحاب ديانة سماوية فى منأى عن الوثنية ، وان محمدا (صلى الله عليه وسلم) ليس بمعبود ، بل فى حقيقة الأمر من البشر ، وان كثيرا من تعاليم الاسلام مشابهة لتعاليم المسيحية ، واتضح لهم أن المسلمين يؤمنون بعيسى (عليه السلام) كنبى ، ولمسوا فى الاسلام عقيدة بسيطة وسهلة ، بعيدة كل البعد عن التعصب مفعمة بالتسامح لاسيما مع المسيحيين (٢) ٠ ومن ابرز الفئات التى كانت مستعدة لقبول الصورة المنقحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، زعماء اللاهوت الذين كانوا يرغبون فى امداد ابناء عقيدتهم بامضى سلاح ينازلون به العدو ، الذى كان تاثيره فى الفلسفة المدرسية فى العصور الوسطى Scholastic قد اخذ ينتشر انتشارا ذريعا (٣) ٠ ففى عام ١٢٧٣ م كتب وليم الطرابلسى رسالة عن حالة العرب ومحمد النبى صلى الله عليه وسلم وشريعتهم وعقيدتهم ، والصورة التى صور بها الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وان كانت ابعد ما تكون عن شخصيته التاريخية ، فان بها من العناصر الخرافية والمطاعن،قد انزل الى الحد الأدنى الذى لاغنى عنه لمدافع عن المسيحية فى العصور الوسطى ، فيقرر وليم أن العرب يعتقدون أن جبريل (عليه السلام) نقل الارادة الالهية Voluntatem Divinam الى النبى (صلى الله عليه وسلم) ، ثم صاغ المؤمنون ما كان ينطق به كتابا (٤) ٠

ويبدو ان محاورات دينية بين المسلمين والصليبيين كانت تحدث احيانا ، فقد تحدث ابن شداد فى حوادث عام ١١٨٩ م (٥٨٥ هـ) عن ريناld سيد صيدا والشقيف أرنون ، انه كان من دهاة الصليبيين ، تردد كثيرا فى خدمة السلطان صلاح الدين ، وقال عنه : « وكان يناظرنا فى دينه ونناظره فى

---

(١) Hulme : The Middle Ages. p. 511

(٢) Ibid. Loc. cit.

(٣) جروينباوم : حضارة الاسلام ، ص ٧١ ٠

(٤) نفس المكان ٠

بطلانه ، وكان حسن المحاورة متأدبا فى كلامه » (١) • ونكرر القول أن الصليبيين الاوائل عندما أتوا الى الشام ، وضعوا فى أذهانهم أنهم أرفع قدرا من المسلمين الذين الصقوا بهم تهمة الوثنية ، وعبروا عنهم بكلمة « الكفار » التى فاضت بها المصادر المعاصرة • وكثيرا ما سخروا من الرسول صلى الله عليه وسلم ، من ذلك أنهم عندما فرضوا الحصار على حلب عام ١١٢٤ م (٥١٨ هـ) ، عمدوا الى قبور المسلمين فنبشوها ، وأخرجوا بعض الجثث التى لم تنقطع اوصالها، وسلبوا الاكفان ، وربطوا فى أرجلهم الحبال ، وسحبوها مقابل المسلمين ، وجعل البعض منهم يقول : « هذا نبيكم محمد » ، وآخر يقول : « هذا عليكم »، كما أخذ البعض مصحفا ، ونادى على أحد المسلمين قائلا : « يا مسلم أبصر كتابكم » ، فثقبه بيده وشده بخيطين ، وعمله ثفرا (السير الذى فى مؤخر السرج) لبرذونه ، وظل البرذون يروث عليه ، والفرنجى يضحك عجبا وزهوا (٢) • ولكن الصليبيين لم يلبثوا ان أدركوا أن المسلمين أهل كتاب وحضارة تفوق حضارتهم ، ومن ثم تبدلت مفاهيمهم نحو المسلمين ، وزال التعصب الدينى البغيض ، وحل محله الاختلاط زمن السلم • والواقع ان اتصال الفرنجة مع شعوب الشرق اصحاب الديانات العريقة المختلفة ، فتح اعين الغربيين على حقيقة انه من الممكن أن توجد شعوب ذكية ومثقفة ، وحضارة متفوقة على حضارة أوروبا الاقطاعية ، وبذلك تكون الحركة الصليبية قد خلقت حالة فكرية جديدة • ووجد عشرات الالوف من الصليبيين فى المسلمين الهدوء والجاذبية ، بعد أن كانوا فى حالات عديدة الكفار ، المحتقرين ، المكروهين، الشريرين ، أبناء الشيطان (٣) • ولم يترك الاسلام فى نفوس البعض انطباعا قويا فقط ، بل هداية أيضا ، اذ ظهرت شكوى من « مرتدين » مسيحيين ، تخلوا عن المسيحية ، وآثروا اعتناق الاسلام ، حتى أن أحد رجال الدين وهو مبشر دينى من الفرنسيسكان أرسل الى افريقية ، عاد مسلما ، كما أن التجارة الضخمة المربحة بين المسلم والمسيحى اثرت أيضا تاثيرا بالغ الاهمية فى نمو

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ٩٨ •

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٤ — ص ٢٢٥ •

(٣) Thompson : op. cit. Vol. I p. 433

التسامح ، لأن العلاقات التجارية الدولية ، تتطلب التسامح ، والتعصب ضار بالنسبة لانتعاش التجارة (١) .

وأبرز مثل للتسامح الدينى بين المسلمين والصليبيين نراه فى تصرفات الامبراطور فردريك الثانى (١١٩٨ - ١٢٥٠ م) . فلم يشأ الدخول فى حرب ضد المسلمين ببلاد الشام ، ولا نستبعد حدوث ذلك من الامبراطور الذى حرص على تشجيع الحياة الثقافية فى مملكة صقلية ، ولا عجب فى ذلك فقد كان « محبا للحكمة والمنطق والطب مائلا الى المسلمين ، لأن منشاه بجزيرة صقلية ، وغالب أهلها مسلمون (٢) . وقد اجمعت المراجع المعاصرة على أن فردريك الثانى تعلم اللغة العربية على يد معلم عربى فى صقلية ، وبذلك اصبح بلاطه مركزا لحركة علمية واسعة ، واجتمع فيه عدد كبير من العلماء الغربيين والبيزنطيين، فضلا عن اليهود الذين اشتغلوا تحت رعايته بترجمة كتب الفلسفة العربية(٣) . وتصرفاته فى بلاد الشام كانت خير دليل على شعوره تجاه الاسلام والمسلمين. فقد حرص خلال وجوده فى بيت المقدس على زيارة المشاهد الاسلامية ، وعند دخوله ساحة الحرم الشريف فى مارس عام ١٢٢٩ م شاهد رجلا من رجال الدين المسيحى ، بيده الانجيل ، يهم بدخول المسجد الاقصى للتسول من الحجاج ، فغضب الامبراطور ، وبادر الى طرده فى قسوة ، واصدر أوامره الا يجتاز أى قسيس مسيحى عتبة الحرم الشريف دون اذن من المسلمين ، سوف يكون جزاؤه الموت (٤) . وبينما كان يطوف بقبة الصخرة ، رأى العبارة التى نقشها صلاح الدين فى الفسيفساء حول القبة وهى : « وقد طهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين » ، فسأل مبتسما : « ومن هم المشركون ؟» كذلك عندما لاحظ الامبراطور وجود اسياخ على النوافذ ، اخبره بأنها لم تثبت

---

(١) Ibid. pp. 433—434

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١٤١ .
سعيد عاشور : الامبراطور فردريك الثانى ، ص ١٩٨ .

(٣) سعيد عاشور : النهضات الاوروبية ، ص ٢٣ .

(٤) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٦٥٥ - ص ٦٥٦ .
سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ص ١٠١٤ ،
Kantorowicz : Frederic the Second. p. 190

الا لترد العصافير ، فقال : « قد أتى الله اليكم بالخنازير (١) » ، مستخدما بذلك اللفظ الدارج الذى يطلقه المسلمون على المسيحيين ، وكان بحاشيته جماعة من المسلمين منهم معلمه الذى كان يقرأ له المنطق والفلسفة وهو عربى من صقلية ، لانه لما دخل وقت الظهر ، وأذن المؤذن ، سارع جميع من معه من المسلمين بأداء الصلاة (٢) • ولما اطال الامبراطور البقاء فى القدس ، وحل موعد صلاة الفجر ، لم يسمع صوت المؤذن ، ولما استفسر عن السبب ، قيل لـــه : أن السلطان الكامل الأيوبى أصدر اوامره الى القاضى شمس الدين قاضى نابلس ــ مرافق الامبراطور خلال الزيارة ــ بعدم اقامة الآذان طيلة وجود للامبراطور بالمدينة ، « أعظاما للملك واحتراما له » فرد عليه الامبراطور مستاء اخطات فيما فعلت ، والله انه كان اكبر غرضى فى المبيت بالقدس أن اسمع آذان المسلمين وتسبيحهم فى الليل (٣)، ومن الممكن اضافة سبب آخر دفع فردريك الثانى الى التقرب من المسلمين والاسلام ، هو كرهه للبابويه والكنيســـة الغربية ، تلك الكنيسة التى ناصبت اباءه وأسلافه العداء ، والتى كرست جهودها لسحق الامبراطورية فى الغرب (٤) • وقد ظهر هذا الشعور واضــــحا خلال وجوده فى الشام ، عندما ناقش مسألة الخلافة مع القاضى شمس الدين وحقيقة مركز الخليفة عند المسلمين ، فأوضح له شمس الدين ان الخلافة العباسية تنحدر اصلا من العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانها لازالت فى عقبه ، وعندئذ اجاب فردريك بأن هذا النظام رائع ، ويفوق ــ الى حد بعيد ــ نظم أولئك الحمقى المسيحيين ، فالمسيحيون يختارون البابا زعيمهم الروحى ، الذى لاتربطه ادنى صلة بالمسيح • وهنا تحدث الامبراطور عن النزاع بينه وبين البابا ، واحقيته فى السيادة على البابا ، اذ أنه كان متحررا من روح الحماس الدينى المتطرف السائد فى عصره من جهة ، ومتبنيا عادات المسلمين من جهة أخرى ، ولهذا عنفه البابا ولامه (٥) • ومع أن المسلمين أبدوا اهتماما بالامبراطور فردريك ، الا أنه لم يترك فى نفوسهم عميق الاثر ، اذ أن مظهره خيب ظنهم ، فهو بلونه الأشقر ، وقصر النظر فى عينيه (الحول) لايساوى

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٥٦ •

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٥٦ •

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٣١ •

(٤) سعيد عاشور : الامبراطور فردريك الثانى ، ص ١٩٩ •

(٥) Kantorowicz : op. cit. pp. 192—193

مائتى درهم فى ســـوق الرقيق . ولكن سلوكه المهذب ورقته قدرهما المسلمون حق التقــدير (١) .

واذا كانت الحروب الصليبية قد كشفت الستار عن خيبة الصليبيين ، وفشلهم فى انتزاع بيت المقدس من أيدى المسلمين ، ليقيموا دولة مسيحية فى قلب العالم الاسلامى ، فانها رأت اجتذاب المسلمين الى اعتناق الديانة المسيحية عن طريق التفاهم والاقناع . وبذلك وضعت الحروب الصليبية مبدأ الحركـة التبشيرية المسيحية فى الشرق . بيد أن تلك الحروب خلفت من بعدها العداوة والبغضاء وانزلت افظع ماساة بالصلات بين المسلمين والنصارى فى الشرق الادنى (٢) . ففى عام ١١٥٤ م اسس راهب صليبى فى الارض المقدسة رهبنة عرفت فيما بعد بالرهبنة الكرملية نسبة الى جبل الكرمل حيث كانت تقيم ومن ثم انتشر اتباعها فى سوريا ولبنان ، واسسوا مركزا لهم فى طرابلس ، ثم تلاهم تاسيس رهبنتين جديدتين عند مستهل القرن الثالث عشر : الفرنسيسكان والدومينيكان (٣) . وفى عام ١٢١٩ م زار القديس فرنسيس الاسيســـــــى St. Francis of Assisi مؤسسى جماعـــة الفرنسيسكان بلاد الايوبيين فى مصـــر . واجـرى مناقشـــة دينية عقيمة مـــع الكامل الايوبى ، ثم بعد ذلك نزل على شاطىء عكا ، وجمع حوله مقرا رسميا للرئيس الفرنسيسكانى العام فى المنطقة . وبعد مدة قصيرة أسست ارسالية تبشيرية فرنسيسكانية فى مدينة طرابلس . واسس لهم ديرا فى بيروت (٤) . وفى عـــام ١٢٣٠ م وصلت الى دمشق ارسالية دومينيكانية ، من اتباع القديس دومينيك St. Dominic ، لتغييــــر عقيـــدة العـــالم الاســـلامى ومن ثم تقدمت الى طرابلس وعكا واماكن أخرى حيث اسست لها اديرة ، وقـــد كتب أحد اساقفة الدومينيكان وليم الطرابلسى ــ وهـــو راهب دومينيكانى عاش فى عكا ــ عام ١٢٧٠ م ، افضل كتاب ظهر عن الاسلام فى العصور

---

(١) سعيد عاشور : الامبراطور فردريك الثانى ، ص ١٩٩ .
Kantorowicz : op. cit. pp. 192--193

(٢) Kantorowicz : op. cit. p. 191

(٣) عمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ١١٤ ــ ص ١١٥ .

(٤) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٩٤ ــ ص ٣٩٥ .

الوســـطى أسماه مقالـــة فى حالـة المسلمين ' Tractus de Saracenorum دافع فيـــه عن النظرة الجديدة برغبتـه فى ارسال بعثات تبشرية لا جنود لا ستزداد الأرض المقدسة ٠ (١) وقد أعطى القديس لويس دورا جديدا للجهود التبشيرية ، عندما أرسل عام ١٢٥٢ م الراهب الفرنسيسكانى وليم الروبركوى William of Rubruquis الى خـــان المغـــول العظيم فى آســـــيا الصغرى ، بأمل أن تعتنق الامبراطورية المغولية الجديدة الديانة المسيحية ومن ثم تنتض على مؤخرةالمسلمين ، ويتم استرجاع فلسطين بطريقة سهلة ، ومثله أيضا البابا انوسنت الرابع Innocent IV الـــــذى كـــــــون عام ١٢٥٣ م أول « مجتمع تبشيرى » منذ أن سيطر على الغرب الأوروبى ــ فى معظم الأحوال ــ الرهبنة الفرنسيسكانية والرهبنة الدومينيكانية ٠ (٢) غير أن الشكل الرئيسى فى تطوير سياسة التبشير الصليبية بطريقة تنم عن الاقنـــاع كانت على يـــد ريمونـــد ال Rymond Lull فقـــد كرس حياته لتنظيم العمل التبشيرى ولاقى ميتة شهيد أثنـــاء محاولته تنفيذ مشاريعه ٠ وهو أسبانى تعلم اللغة العربية وأجادها ، وفى عـــام ١٢٩٤ م ظفر بمقابلة من البابا كلستين الخامس ، قدم له خطة للتبشير بين المسلمين . تعتمد على أن تتخذ الكنيسة العلم والمدارس وسيلة للتبشير ودرب رفاقـه من الرهبان على العمل كأتباع حقيقيين للمسيح ورسله ، وأن تكون اسلحتهم لغزو الوثنى : « الحب والصلوات وانهمار الدموع » ؛ وبعد عشر سنوات من انجاز الاعداد للتبشير بالطريقة السليمة ، بدأ بنشاط لا يعرف الكلل بين التتار والأرمن فى الشرق ومسلمى شمال افريقية ، ولم ييأس على الرغم من المعوقات التى اعترضت مجهوداته ، وكان يحث البابـوات والملوك على أن يوجهوا نشاطهم نحو العمل التبشيرى ٠ وبفضل جهوده وافق مجمع فيينا عـــام ١٣١١ م على تأسيس ستة مدارس للغات الشرقية فى أوروبـا ، بيـــد

---

(١) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٩٤ ــ ص ٣٩٥ ٠

C. Med. H. Vol. V p. 325

(٢) C. MedK H. Vol. V p. 325

Ibid. Loc. cit.

أن استشهاده فى ذلك العام هو الذى وضع حدا لجهوده ، ومن أجل حث الغرب الاوربى على استعادة الاماكن المقدسة ، بطريق تحويل الوثنيين (المسلمين) الى الديانة المسيحية (١) ٠

وهكذا ، فان النشاط التبشيرى الذى بدأ كرد فعل للحركة الصليبية ،واستمر خلال العصور الوسطى ، هذا النشاط احرز نجاحا كبيرا بوجه خاص فى آسيا حيث كانت البوذية عدوا أقل نشاطا وعداوة مباشرة للمسيحية من المسلمين ٠ وبمعنى اخر لم يفلح النشاط التبشيرى فى بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية لان اهلها كانوا مسلحين بعقيدة سماوية تمتاز بالتفوق فى مثلهـــا وآفاقها ٠ وليس معنى ذلك أن المجهود التبشيرى قد ضاع كله ، فمن الحركة الصليبية ، ومن النشاط التبشيرى الذى انبثق منها ، ومن كلاهما تعلمت شعوب أوروبا الكثير عن الحركة الصليبية (٢) ٠

واذا كانت الحركة الصليبية التى قام بها الغرب الاوروبى قد بـــاءت بالفشل فى جانبها التبشيرى ٠ الا أن النشاط الصليبى عموما له آثـــار هامة من ناحية ازدياد المحصول الجغرافى ٠ ولا أدل على ازدياد معرفة الاوروبيين بالعالم الخارجى فى عصر الحروب الصليبية من كثرة الكتابات التى وضعت فى ذلك العصر والتى حوت كثيرا من المعارف عن الشرق ٠ ومن الطبيعى أن يكون وصف الطرق المتعددة بين بيت المقدس والغرب الاوروبى هو المحور الاول لتلك الكتابات ، وبعد ذلك جاء وصف بلاد الشام ومدنها وجبالها ومسالكها وخيراتها ، على انه باتساع النشاط الصليبى اتسعت دائرة المعرفة الجغرافية فنرى كاتبا مثل جوانفيل يكتب عن نهر النيل ومنابعه وخصـــائص مياهه وفيضانه .صحيح أن تلك الكتابات لا تخلو من خ[illegible] [illegible] المدونة للعصور الوسطى ، الا انها ساهمت فى معرفة الغرب الاوروبى بمعلومات

---

(١) عمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ٧٧ ٠

(٢) C. Med. H. Vol. V pp. [illegible]

كان يجهلها (١) • ومما لاشك فيه ان معرفة تجار المدن الايطالية بجغرافية البحر المتوسط خلال الفترة الصليبية ، وظهور خرائط تفصيلية فى القرن الثالث عشر مثل خريطة العالم Mappa Mundi لهيرفورد Hereford التى يرجع تاريخها الى عام ١٢٨٠ م ، تتصف بعدم الوضوح ، حتى ان أوروبا تظهر فيها كمتاهة مبهمة لايسبر غورها (٢) • وببداية الحركة التبشيرية ترتب عليها ازدياد محصول المعلومات الجغرافية فى الغـــرب الاوروبى ، ذلك لأن المبشرين ارتادوا اماكن مجهــــولة للاوروبيين ، من ذلك ما رواه لنا وليم الروبركوى مبعوث لويس التاسع للخان العظيم عام ١٢٥٣ م من مغامرات فى آسيا الصغرى ، خلال بعثته التبشيرية التى قام بها (٣) • ومن الجدير بالذكر أن المغول ظهروا بمظهر عدائى للاسلام ، فى الوقت الذى لم يبد منهم قط عداء للمسيحية ، وكانت اوروبا فى القرن الثالث عشر تمنى نفسها جديا بأن تحولهم الى المسيحية ، وليس من شك فى أن المبشرين الذين أرســلوا اليهم ام يصادفوا سوى قدرا ضئيلا من النجاح لتحقيق اطماعهم الدينية ، بيد أن الصلات التى عقدوها مع أهل البلاد كان لها الفضل فى افتتاح طـــرق جديدة الى اسيا ، فتسارع الناس الى تلك البلاد الواسعة التى تكاد أن تكون مجهولة (٤) • وفى عام ١٢٧١ م بدا ماركو بولو رحلته الشهيرة فى آسيا ، فمر بالموصل وبغداد وخراسان حتى وصل الى بلاط خان المغول ، وهناك بعث

---

(١) C. Med. H. Vol. V pp. 326—327 &
سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١٢٧٩ ـ ص ١٢٨٠ •

(٢) C. Med. H. Vol. V. p. 327

(٣) Archer : op. cit. p. 442
C. Med. H. Vol. V p. 327

(٤) شارل ديل : البندقية ، ص ٦٢ ـ ص ٦٣ •
كان ماركو بولو أول الاوروبيين الذين توغلوا فى بلاد الصين ولمؤلفه « كتاب العجائب » الذى قص فيه أخبـــار رحلته التى استغرقت أربعــة وعشرين عاما (١٢٧١ ـ ١٢٩٥ م) عبر آسيا كلها ، وكان لماركو بولو عنـــاية بما يشاهد وروح قوية للملاحظة لا يفوتها تفصـــيل ما • فسرد فى كتابه جميع الاحوال التى شـــاهدها وجميع البلاد من شواطىء آسيا الصغرى الى قلب الصين ، ومن بلاد المغول واليــابان الى سيام وكه شنشين وسومطرة وسيلان وبلاد الهند وفارس •

به الخان الى بعض البلدان الآسيوية مثل بورما والصين والهند وغيرها ، وفى النهاية عاد ماركو بولو الى بلده البندقية عن طريق سومطرة والهند وفارس، فوصل البندقية عام ١٢٩٥ م حيث كتب رحلته التى ضمنها كثيرا من مشاهداته ومغامراته (١)٠ ومن المؤكد أن كتابات ماركو بولو قد بدأت فى الانشار الواسع فى الغرب الأوروبى ابتداء من القرن الرابع عشر ، الامر الذى أثار ادراكا بالغا عند الغربيين بالقارة الآسيوية ، ومهما قيل عن أن المعـــارف التى أتى بها ماركو بولو ورفاقه ، لايمكن أخذها بعين الاعتبار كثمرة مباشرة للحـــركة الصليبية ، لأن الاخوة بولو كانوا تجارا وليسوا صليبيين ، فانها فى الحقيقة هى التى أسرت خيال وانتباه أوروبا ، كما ان اتساع دائرة النشاط التجارى فى ذلك العصر وحب الاستطلاع كان احـــدى الثمار المباشـــرة للحركة الصليبية (٢) ٠ وعلى اية حال فقد قدم لنا ماركو بولو مثالا بديعا لروح الرجل البندقى ، اذ لم يكن بد من شجاعة فائقة ليلقى الانسان بنفسه ــ كما فعل ماركو بولو ــ فى هذه المغامرة ، مخترقا اقليما واسعا مجهولا ، ولكن ماركو بولو كان مزودا فى مغامرته بجميع صفات شعبه الباهرة ، فقد كان ذكيا شجاعا حاذقا وحكيما معا ، جمع الى روحـــه العلمية الواسعة حاسة مرهفـــة للملاحظـــة (٣) ٠

وعلى أية حال ، فالمعرفة الجغرافية كانت منحطة فى الغرب الأوروبى منذ أيام بطليموس ، وبالحملة الصليبية الاولى بدأت حقبة جديدة ، فاتسعت معرفة الرجال بالشرق ، والبلاد ، والبحار ؛ ووصلت معرفتهم الى ابعد نقطة فى الحدود الشرقية والجنوبية لقارة آسيا ، وأولئك الرحالة اول من جعلوا المعرفة الحقيقية بالشرق الاقصى شائعة فى أوروبا ، وبفضلهم بدأت المعرفة الجغرافية فى التقدم (٤) ٠

---

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٨٠ ــ ص ١٢٨١ ٠

(٢) C. Med. H. Vol. V p. 327

(٣) شارل ديل : البندقية ، ص ٦٣ ٠

(٤) Archer : op. cit. pp. 440--443

وأخيرا فان الحـــروب الصليبية امدت الغرب الاوروبى بمادة غـزيرة للخيال ، فالصليبى بدون شك يعتبر الوجه البطولى لاوروبا العصـــور الوسطى ؛ وكانت الرحلة الى الاراضى المقدسة فرصة طيبة للشاب الاوروبى أن يرى العالم على حقيقته ، بعيدا عن القيود المضنية فى وطنه من ناحية ، والمجتمع التقليدى الذى عاش فى اساره من ناحية أخرى ٠ كما تعلم الحجاج الصليبيون من الحروب الصليبية درسا كبير من رؤية الحياة على حقيقتها فليست الحياة كما كانت تصوره لهم التقاليد الدينية المسيحية ، فضلا عن أنهم أدركوا أن أوروبا والمسيحية ليساهما المحور الذى يدور حوله العالم فقط (١) ٠ لقد وجدوا رجالا نشيطين ، متدينين ، غير وثنيين ، شرفاء ، شجعان ، لايقلون انسانية عنهم ؛ ومن المستحيل أن يذهب مثل ذلك النوع من الدرس هباء ، اذ انها حولت افكار الرجال فى القرن الثانى عشـــر الى الانسانية العامة ، والى تصور جديد للجمال والحق (٢) ٠

* * *

(١) Emerton Mediaeval Europe, pp. 393–394

(٢) Ibid. p. 394

ثانيا ـ التفاعل الاجتماعى

لم تكن الحروب الصليبية مجرد معارك دموية متصلة كما يتضح لنا من اسمها ، وانما تخللتها علاقات انسانية عديدة نبتت فى أوقات السلم ، وأوقات السلم هذه كانت أطول من فترات الحروب ، وأعطت الفرصة للتدخل والاختلاط الاجتماعى بين الفريقين ·

ومن الملاحظ أن الصليبيين بعد انقضاء الجيل الأول منهم ، الذى عاصر بلدوين وجوسلين الاول (ت ١١٣١ م) ، نسوا تعصبهم الدينى الأعمى ، ولم يسعوا الا الى المحافظة على ما بأيديهم من أراض وأمـــلاك · صحيح أن العداوة السياسية ظلت قائمة بين المسلمين والصليبيين ، غير أن العلاقات الودية استمرت أيضا بينهما ؛ ومن المحتمل أن أوربان الثانى كان سينتابه الفزع ، لو علم أنه خلال جيل واحد عقب الاستيلاء على بيت المقدس ، سيتنقل التجار المسلمون فى حرية خلال الاماكن الواقعة تحت سيطرة الفرنجة (١) · أما جموع الصليبيين الذين كانوا يفدون من الغرب الأوروبى ، فكانوا أشد الناس غلظة ، جفاة ، اتصفوا بالتعصب الدينى ؛ وقد فطن أسامة بن منقذ الى هذه الحقيقة فقال : « فكل من هو قريب العهد بالبلاد الافرنجية أجفى اخلاقا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين (٢) » · ودلل أسامة على رأيه بقصة طريفة ، فيروى أنه اعتاد أن يصلى فى المسجد الاقصى ، وقد صار بيد الداوية بصفتهم أصدقائه ، وانهم كانوا يخلون له المسجد الصغير ليصلى فيه ؛ ولكن حدث ذات يوم أن دخل أسامة المسجد الأقصى للصلاة كعادته ، فلم يكد يقف ويكبر ، حتى هجم عليه أحد الفرنجة ورد وجهه الى الشرق وقال له : « كذا صل ! » ولكن بعض الداوية أبعدوا ذلك الفرنجى عن أسامه، وعاد الى الصلاة ، وعندما عاود الفرنجى فعلته أخرجه الداوية من المسجد ،

---

(١) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 324

(٢) الاعتبار ، ص ١٢٤ ·

واعتذروا اليه وقالوا له : « هذا غريب وصل من بلاد الفرنج فى هذه الأيام ، وما رأى من يصلى الى غير الشرق (١) » ٠

على أن العلاقات الودية التى ربطت بين المسلمين ، خلقت حياة اجتماعية بين الفريقين ، هى فى الواقع مزيجا من الحياتين الشرقية الاسلامية والغربية الصليبية ، تداخلت احداهما فى الأخرى ، واثرت كل واحدة منهما فى الأخرى ٠ فلا غرابة أن يكتسب العديد من الصليبيين الذوق الشرقى فى الاطعمة والأشربة والزى الشرقى تشبها بالمسلمين ٠

والواقع ان النبلاء والامراء وكبار السادة الاقطاعيين ، كانوا فى حياتهم ـ فيما عدا التجارة والحرب ـ أميل للدعة والتراخى ، دفعهم الى ذلك جو دافىء ، وفراغ كبير ، وايثار للراحة ، وتوفر ضرورات الحياة وكمالياتها ؛ ومن ثم سكنوا القصور الفخمة على الطراز السورى ، التى تتألفت فى العادة من طابقين فى وسطها من الداخل نافورة تتدفق فيها المياه ، كسيت نوافذها بالزجاج الملون ، وحليت أرضلها بالموزايكو (٢) ٠ وأضحى من وسائل تسلية كبار الصليبيين استخدام الفتيات الراقصات ، والولع بصيد الطيور ؛ حتى فى جنائزهم عملوا على استخدام النائحات (الندابات) المحترفات (٣) ٠

واقلعوا عن لباسهم الاوروبى ، وتعلقوا بالازياء والملابس الشرقية التى كانت أدعى الى الراحة ، فاذا لم يكن الفارس فى عدته وسلاحه ارتدى برنسا من الحرير ، فوق درعه سترة من الكتان لوقاية الزرد من حرارة الشمس ، كما

---

(١) الاعتبار ، ص ١٣٤ ـ ص ١٣٥ ٠

(٢) Small : Crusading Warfare.p . 43

Longnon : Les Français d'Outre-Mer en Moyen-Age. pp. 114—115

حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ١٥٣ ـ ص ١٥٤ ٠

(٣) Small : op. cit. p. 43

لويس شيخو : بيروت تاريخها وآثارها ، ص ٧٠ ٠

جعل على خوذته كوفية على نحو ما يفعل العرب (١) • وأقبل الصليبيون على الاقمشة الموصلية والبغدادية والدمشقية والشرقية والبسط والسجاد ، واخذوا عن العرب اطالة الملابس وتحليتها بالجواهر حسب مكانة المرء فى قومه واختلاف المراتب ، واطلق البعض منهم لحاه تشبها بالشرقيين ، واستعمل النعال التى يستعملها المسلمون فى بيوتهم ، حتى أن بلدوين ملك بيت المقدس (١١٠٠ ـ ١١١٨ م) ، استبدل ثيابه الغربية بأخرى شرقية ، وأرسل لحيته، وتناول طعامه على بساط متربعا على الأرض على الطريقة الشرقية ، وبلغ الامر بتانكرد صاحب انطاكية (ت ١١١٢ م) أن سك النقود وعليها صورته فى زى عربى (٢) • كما أن الصعوبات التى احاطت بهنرى دى شامبنى ملك بيت المقدس ، جعلته يحرص على كسب ود صلاح الدين ، فارسل اليه « يستعطفه ويستميله ويطلب منه خلعه » ، وقال له : « أنت تعلم أن لبس القبا والشربوس عندنا عيب، وأنا البسهما منك محبة »، وكان أن أرسل اليه صلاح الدين خلعة سنية منها القبا والشربوش ، ففرح بهما الملك الصليبى وارتداهما فى عكا (٣) • اما السيدات الصليبيات فاتبعن الزى الشرقى التقليدى ، وارتدت الواحدة منهن قميص مرسل طويل الى القدمين ، وسترة قصيرة أو رداء بكمين ، وكلها موشاة بخيوط الذهب ، واحيانا الجواهر ، وفى الشتاء ارتدت المرأة الصليبية الفراء مثلما يفعل زوجها ، وضربت الخمار على وجهها ، واذا خرجت من الدار اتخذت الحجاب ، شان النساء المسلمات المحتشمات (٤) •

وترتب على طول اقامة الصليبيين بالشام ومجاورتهم للمسلمين اكتسابهم الكثير من الذوق الشرقى والاطعمة والاشربة ، لاسيما مايتعلق بالسكر

---

(١) رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٠٩ •
(٢) جروينباوم : حضارة الاسلام ، ص ٨٢ •
نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٧٠ ـ ص ١٧٢ •
(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٥٨٨ هـ
(٤) رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٥٠٩
نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٧٢ •

والتوابل • ولقد اشرنا من قبل الى أن الفرنجة عرفوا السكر لأول مرة فى حياتهم فى بلاد الشام ، ليحل محل عسل النحل الذى لم تعرف أوروبا وسيلة غيره لتحلية الطعام وعمل الحلوى • وصارت القهوة العربية شراب الكثيرين • وثمة قصة يرويها أسامة بن منقذ نستشف منها التحول فى ذوق الصليبيين فى ناحية المأكل والمشرب ، وخلاصة تلك القصة أن احد اصحابه ذهب الى مدينة أنطاكية الصليبية ، فنزل فى بيت احد الفرسان الصليبيين الاوائل ، الذين أتوا ضمن الأفواج الصليبية الأولى ، ثم أعفى من الخدمة العسكرية ، وصار له ملك يتعيش منه • وعندما نزل صديق أسامة ضيفا على الفارس الصليبى ، أحضر له الاخير « مائدة حسنة وطعاما فى غاية النظافة والجودة » • ولكن صديق أسامة امتنع عن الأكل ، وعندئذ قال له الفارس الصليبى : « كل طيب النفس ، فأنا ما آكل من طعام الافرنج ، ولى طباخات مصريات ما آكل الا من طبيخهن ، ولا يدخل دارى لحم خنزير (١) » •

ويرى البعض أن الفرنجة كان من المحتم عليهم أن يحاولوا المواءمة مع البيئة الجديدة ، فلم يكن بوسعهم ان يتجنبوا الاتصال بجيرانهم ورعاياهم المسلمين ؛ وبالاضافة الى ذلك ينبغى تقدير حالة المناخ ببلاد الشام ، فالشتاء فى فلسطين والشام قارس البرودة ، ويكاد يضارع فى برودته اللاذعة ما هو مألوف فى الغرب الأوروبى ، غير أنه قصير الأمد • أما الصيف ، فقد تميز بالطول وشدة الحرارة ، الأمر الذى يناقض الصيف فى أوروبا ، لذلك لم يلبث الفرنجة أن اتخذوا ما هو بعيد عن طباعهم وعاداتهم فى الغرب الاوروبى من الملابس والاطعمة والساعات التى يلزمون فيها دورهم (٢) •

ومن العادات التى أعجب بها الفرنجة ببلاد الشام الاستحمام فى الحمامات العربية ، فتأثروا بها ، والمعروف أن وظيفة الحمام فى مجتمع العصور الوسطى لم تقتصر على الاستحمام ، بل امتدت الى الحلاقة وازالة الشعر من الجسد ،

---

(١) الاعتبار ، ص ١٤٠ •

(٢) رنسيمان : الحروب الصليبية ، جـ ٢ ص ٥٠٩ •

وهى العملية التى قام بها الحلاق بالنسبة للرجال والبلانـــة بالنسبة للنساء (١) • وقد اتخذت الحمامات أيضـــا نواد يجتمع فيها المستحمون لتناول المشروبات الساخنة ولتجاذب الاحاديث ، فى جو شرقى معبق بالدفء وأنواع الطيب ، بل لانغالى اذا قلنا أن كثيرا من المشكلات والصفقات قد تحل وتبرم فى هذه الحمامات (٢) • ولم يلبث أن أدى اعجاب الصليبيين بالحمامات الى ترددهم عليها لنظافة الجسد ، بل ان البعض منهم كان لايرى غضاضة فى احضار امرأته معه الى الحمام ، وأن يطلب من الحلاق العربى فى الحمام ازالة شعرها (٣) • وعندما أتى جوانفيل الى الاراضى المقدسة صحبة سيده لويس، أخبره تابعه انه تمكن من ايجاد منزل يأوى اليه قريب من الحمامات . حيث يستطيع ازالة ما علق به من الاوساخ ، وما تراكم من العرق اثناء وجوده فى الاسر ، ولما اقبل الليل دخل جوانفيل الحمام ، ولكن اعتراه هبوط فى القلب واغماء ، فأخذوه فى مشقة كبيرة من الحمام وسجوه فى فراشه (٤) • والعجيب فى أمر الصليبيين ، انهم كانوا ينكرون شد المئزر على الوسط فى الحمام ، وبذلك أمكن التمييز بين المسلمين والصليبيين من مرتادى الحمامات ، وثمة قصة طريفة يرويها أسامة بن منقذ ، فحواها أنه كان عندهم رجل حمامى يقال له سالم من أهل المعرة فى حمام لوالده ، وقد روى هذا الحمامى لاسامة قائلا : « فتحت حماما فى المعرة اتعيش فيها • فدخل اليها فارس (صليبى) منهم ، وهم ينكرون على من يشد فى وسطه المئزر فى الحمام ، فمد يده فجذب مئزرى من وسطى رماه (٥) » •

ومن النواحى الطريفة التى تمثل الحياة الاجتماعية عند الفرنجة فى بلاد

---

(١) سعيد عاشور : أضواء على الحروب الصليبية ، ص ١٠٨ •

(٢) حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ١٥٤ •

(٣) اســـامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٣٦ ــ ص ١٣٧ •

(٤) حسن حبشى : القديس لويس (مذكرات جوانفيل) ، ص ١٨٦ •

(٥) الاعتبار ، ص ١٣٦ •

الشام حفلات الزواج عندهم ، ويدعى اليها المسلمون والمسيحيون على السواء ، ويختلط فيها الرجال بالنساء (١) • وقد حضر ابن جبير (٢) • احدى هذه الحفلات بمدينة صور ، فترك لنا وصفا دقيقا عنها ، فقد ذكر ان الرجال والنساء قد اصطفوا صفين عند باب العروس ، وراحت الأبواق والمزامير وجميع آلات اللهو تضرب بين يديها ، حتى خرجت بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال ، والعروس فى أبهى زى وأفخر لباس ، تسحب أذيال الحرير المذهب ، وعلى رأسها عصابة من ذهب ، قد حفت بشبكة ذهب منسوجة ، ومثلها على لبتها ، وهى رافلة فى حليها وحللها ، تمشى مشى الحمامة ، وامامها جلة من رجالها من النصارى فى أفخر ملابسهم ، ووراءها اكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين فى انفس الملابس ، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا فى طريقهم سماطين يتطلعون فيهن ، ولاينكرون عليهم ذلك، فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها ، وأقاموا يومهم ذلك فى وليمة • وقد تأذى شعور ابن جبير من رؤية النساء فى اختلاط مع الرجال ، واستعاذ بالله من ذلك •

واذا كان الرحالة ابن جبير قد استنكر اختلاط الرجال مع النساء ، فان الغيورين على الدين الاسلامى استنكروه ايضا ، ورأوا فيه بعدا عن تقاليد المسلمين ، وانحرافا عن الشريعة الاسلامية • ولهذا دهش المسلمون عندما رأوا العادات الصليبية التى خالفت تقاليدهم • من تلك العادات حرية الاختلاط التى رآها اسامة بن منقذ فى اوساطهم ، ورأى فيها فظاعة لم يألفها المسلمون ، وصاروا فى نظره « وما فيهم غيره ولا نخوة (٣) » ، وليست لديهم غيرة جنسية ولا يشعر الرجل منهم بالغيرة على امرأته ، ولا يحرص على الا ينفرد بها سواه، ؟ يكون الرجل منهم (الفرنجة) يمشى هو وامرأته يلقاه رجل آخر ، يأخذ

(١) حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ٦١ •
(٢) الرحلة ، ص ٢٧٨ ــ ص ٢٧٩ •
(٣) الاعتبار ، ص ١٣٧ •

المرأة ويعتزل بها ، ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فاذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى (١) » ، ويروى أسامة بن منقذ قصة اخرى طريفة عن عدم الغيرة عند الرجل الصليبى ، وهى تبعث على الدهشة ، وخلاصتها ان احد الصليبيين دخل بيته ، « ووجد رجلا مع امرأته فى الفراش ، فقال له : أى شىء أدخلك الى عند امرأتى ؟ » ، قال : «كنت تعبان ودخلت استريح » • قال : « فكيف دخلت الى فراشى ؟ » قال : « وجدت فراشا مفروشا فيه » • قال : « والمرأة نائمة معك ؟ » قال : « الفراش لها • فهل كنت اقدر أمنعها من فراشها ؟ » • وقال : « وحق دينى ، ان عدت فعلت كذا تخاصمت انا وانت » ، ويعلق أسامة على موقف الزوج قائلا : « فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته (٢) » •

وعلاقات المودة بين المسلمين والصليبيين فى أوقات السلم ، أدت الى نشوء صداقات بين رجال من الفرنجة وآخرين من المسلمين ، فهم فى السلم « اخوة » ، حتى لنرى رجالا من الفريقين ينادى كل منهما صاحبه « يا أخى » ، وذلك لتمكن صلات المودة والمحبة بينهما • ونستدل على ذلك من قصة الصداقة التى قامت بين أسامة بن منقذ واحد الفرسان الصليبيين ، وفى هذا يقول : « كان فى عسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم افرنجى ، قد وصل من بلادهم يحج ويعود • فأنس بى وصار ملازمى يدعونى أخى ، وبيننا المودة والمعاشرة ، فلما عزم على التوجه فى البحر الى بلاده قال لى : يا أخى انا سائر الى بلادى ، واريد أن تنفذ معى ابنك ، (وكان ابنى معى وهو ابن اربع عشرة) الى بلادى يبصر الفرسان ، ويتعلم العقل والفروسية (٣) • ولكن اسامة أجاب بلباقة ولطف أن جدته شديدة الكلف به ، فلا يستطيع ـ لهذا السبب ـ ان يلبى طلب صديقه الفارس ؛ ولم يتمالك فى نفسه عن ابداء دهشته من هذا الطلب ، اذ كيف يعقل أن يطلب نصرانى مثل هذا الطلب من رجل مسلم (٤) •

---

(١) أسما بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٣٥ •
(٢) الاعتبار ، ص ١٣٦ •
(٣) الاعتبار ، ص ١٣٢ •
(٤) نفس المكان •

ومن المدهش أن علاقات المودة بين الفريقين الاسلامى والصليبى ، لم تتم فى اوقات السلم فقط ، ولكنها حدثت فى أشد أوقـــات الصراع الدموى بينهما ٠ فاذا حدث أن وقف الجيشان وجها لوجه مدة طويلة ، ولم تسـفر المواجهة عن نتيجة ما ، سئم الرجال القتال وتبادلوا الفكاهة والطرف ، الى آن يعود القتال من جديد ٠ من ذلك ما رواه ابن شداد (١) عندما طال القتال أمام عكا عام ١١٩٠ م « أنس البعض بالبعض بحيث أن كانت الطائفتان (المسلمون والصليبيون) تتحدثان وتتركان القتال ، وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة ، ثم يرجعون الى القتال بعد ساعة » ٠ وفى يوم سئم الفريقان من القتال ، فقالوا : الى كم يتقاتل الكبار ، وليس للصغار حظ ، نريد أن يصطرع صبيان : صبى منا وصبى منكم ، فأخرج صبيان من البلد (المسلمين) الى صبيين من الافرنج ، واشتد الحرب بين الصبيان ، فوثب أحد الصلبيين المسلمين الى أحد الصلبيين الكافرين (الصليبيين) ، فاختطفه وضرب به الأرض وقبضه أسيرا ، واشتد به ليأخذه فاشتراه بعض الافرنج بدينارين ، وقالوا : « هذا اسيرك حقا ، فاخذ الدينارين وأطلقه ، وهـــذه من نوادر القتال (٢) » ٠ وشتان بين تلك الروح التى سادت العلاقات بين المســلمين والصليبيين فى نهاية القرن الثانى عشر ، وبين ما كان عليه الوضع عند مجىء الحملة الصليبية الاولى فى نهاية القرن الحادى عشر (٣) ٠ ومن الومضات الانسانية التى تخللت القتال بين المسلمين والصليبيين ، ما حدث عندما عسكر السلطان صلاح الدين الأيوبى بجنوده أمام أسوار حصن الكرك فى نوفمبر عام ١١٨٣ م ، فقد تصادف الاحتفال بعقد قران داخل الحصن ، وبينما تعرضت أسوار الحصن للقذف بالحجارة ، استمر الاحتفال قائما ، فلم يقطع الرقص والغناء ، بل حدث أن اعدت ام العريس صحونا من طعام العرس ،وبعثت

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ١٠٨

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٠٨ ـ ص ١٠٩ ٠
ابو شامه : الروضتين ، ج ٢ ص ١٤٣ ٠

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٥٩ ٠

بها الى صلاح الدين • وفى مقابل ذلك التصرف ارسل صلاح الدين يسأل بأى الابراج ينزل العروسان ، ثم اصدر اوامره بالا يتعرض هذا البرج للقذف من أدوات الحصار ، وفيما عدا ذلك لم يخفف صلاح الدين جهوده الحربية (١) •

وثمة مشروع زواج كان سيعمل على تتويج علاقات التآلف والمودة بين المسلمين والصليبيين ، ذلك المشروع هو زواج الملك العادل سيف الدين أبى بكر الأيوبى اخى صلاح الدين ، بالاميرة الانجليزية جوانا أخت ريتشارد قلب الأسد • ففى الوقت الذى فتح فيه ريتشارد باب المفاوضات مع صلاح الدين ، اناب الاخير اخاه الملك العادل فى مفاوضة ريتشارد ، وقد تعثرت تلك المفاوضات بسبب تمسك ريتشارد على ارجاع مملكة بيت المقدس الى ما كانت عليه قبل موقعة حطين (٢) • وليس ابلغ من اجابة صلاح الدين على ذلك بقوله « القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا اعظم مما هو عندكم ، فانه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة ، فلا تتصور ان ننزل عنه ، ولا نقدر على التفريط بذلك بين المسلمين (٣) » • ولم يقنط ريتشارد من تمسك صلاح الدين وصلابة رأية ، رغم أن فكرة تحقيق السلام بالطرق الدبلوماسية جديدة على العصور الوسطى ، والجديد دائما يتطلب الصبر والحكمة ، ومعالجة الموضوع من زوايا أخرى وبطريقة جديدة ، ويكون عمل العاطفة فيها أقوى من العقل (٤) • فانفذ ريتشارد رسوله الى الملك العادل يوم الاثنين ٢٠ اكتوبر عام ١١٩١ م (٢٩ رمضان ٥٨٧ هـ) يقترح عليه زواجه من اخت ريتشارد ، أرمل وليم الثانى ملك صقلية ، على شرط ان يكون القدس وما مع المسلمين للعادل ، وعكا وما مع الصليبيين لجوانا • وأيضا على شرط ان يحكم العادل البلاد وتقيم زوجته جوانا فى القدس ، وبصحبتها القسس والرهبان فقط ، وأن يرضى

---

(١) رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧١١ ــ ص ٧١٢

(٢) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٢٤٤ ــ ص ٢٤٥ •

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٨٢ ــ ص ١٨٣ •

(٤) نظير سعداوى : الحرب والسلام ، ص ٣٨ ــ ص ٣٩ •

العادل قادة الصليبيين الشرقيين وهيئتى الداوية والاسبتارية ببعض القرى(١) ٠ ومن الطريف أن الملك العادل رحب بذلك الحل ترحيبا كبيرا ، « ورأى فى ذلك عين الصواب » ، وشاور أخاه السلطان صلاح الدين ، فوافقه وقبل الفكرة ورحب بها (٢) ٠ ولم تلبث أن ظهرت العقبة الكأداء فى سبيل تنفيذ هذا المشروع، ولكنها لم تأت من جانب صلاح الدين أو ريتشارد قلب الأسد وأنما أتت من جانب الاميرة جوانا التى أبت أن « تمكن مسلما من غشيانها » كذلك طلب ريتشارد من الملك العادل أن يعلن اعتناقه للديانة المسيحية (٣) ٠ ويروى أبو شامة (٤) أن بعض الفرنجة خوفوا أخت ريتشارد من عاقبة الزواج من العادل ، وعنفوها وقالوا لها مامعناه : « هذه فضيحة فظيعة ، وسبة شنيعة ، وقطع على النصرانية وقطيعة ، وأنت عاصية للمسيح لا مطيعة » ، وعندئذ عرف العادل أنها خديعة وصرف النظر عن الموضوع ٠ ويرى لين بـــول أنة ليس ثمة شك فى أن مشروع زواج العادل من جوانا ، يرجع الى عامل الصداقة الحميمة المتبادلة بين ريتشارد والعادل (٥) ٠ وليس أدل على الصـــداقة المتبادلة بين العادل وريتشارد ، أنهما كانا يجتمعان ، ويتجاريان حديث الصلح ، وفى احدى المرات طلب من العادل أن يسمعه غناء المسلمين ، فأحضر له مغنية تضرب بالجنك فغنت له ، فاستحسن ذلك (٦) ٠ وعلى أية حال ، فان فكرة زواج العادل من الاميرة الانجليزية فكرة طريفة وجديرة بالذكر ، فهى توضـــح مـدى تطور العلاقات بين المسلمين والصليبيين ، وتدل أيضا على التقـــارب السياسى والحضارى والفكرى بين المسلمين والصليبيين فى الشام من جهة ، وروح التسامح التى أخذت تسود فى بعض تصرفات الفريقين من جهة أخرى (٧) ٠

---

(١) ابن شداد : النوادر ، ص ١٩٥ ٠
ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٧ هـ ٠
(٢) أبو شامه : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٩٣ ٠
(٣) ابن شداد : النوادر ، ص ١٩٦ ٠
(٤) الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٩٣ ٠
(٥) Lane-Poole : Saladin. pp. 329—330
(٦) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٧ هـ ٠
(٧) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٢٥٢ ــ ص ٢٥٣ ٠

وقد وجد المسلمون أن أساليب الصليبيين فى معاقبة المجرمين والمذنبين بدائية ، وذلك اذا قورنت باقامة الحدود عند المسلمين طبقا للشريعة الاسلامية أو اللجوء الى احكام القضاء اذا ظهر نزاع أو خلاف بين اثنين على موضوع ما ٠ من ذلك ان اسامة بن منقذ زار نابلس ، واسترعى نظره محاكمة فرنجية ، كان سببها أن حرامية (١) من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس ، فالتقيت التهمة على رجل من الفلاحين ، فما كان منه الا أن لاذ بالفرار ، فأمر الملك فولك (١١٣١ ـ ١١٤٢ م) بالقبض على أولاده ، فعاد الرجل وقال للملك : « انصفنى أنا أبارز الذى قال عنى انى دللت الحرامية على القرية (٢) »٠ وعلى ذلك امر الملك صاحب القرية المقطع أن يحضر من يبارز هذا الرجل ، وحرصا من السيد الاقطاعى على فلاحيه خشية أن يقتل منهم واحد مما يؤدى الى خراب فلاحته ، استدعى حدادا شابا قويا ، ليبارز الرجل الآخر وهو شيخ ولكنه قوى النفس ، وتضارب الاثنان ، حتى شعر الشيخ بالاعياء ، فوقع ، فبرك عليه الحداد يداخل اصابعه فى عينيه ، ولا يتمكن من كثرة الدم فى عينيه ، ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله ٠ ويعلق أسامة على طريقة المحاكمة قائلا : «وهذا من جملة فقههم وحكمهم» (٣)٠ واذا كان من عادتهم المبارزة للفصل فى من هو على حق ، فقد كان من عادتهم رمى المتهم فى الماء للفصل فيما اذا كان مذنبا أو بريئا٠ فيروى اسامة قصة سمعها فى نابلس عن شاب كانت أمه مزوجة لرجل افرنجى ، فقتلته ٠ فاتهموه بالقتل وأجروا له محاكمة ٠ فأتوا بتية عظيمة وملاوها ماء ، وكتفوا المتهم وربطوا حبلا فى كتفيه ثم رموه فى البتية (٤) وكان فى رأيهم اذا كان المتهم بريئا غاص فى الماء وبذاك يرفعوه بالحبل حتى لا يموت فى الماء ، وان كان مذنبا لايغوص فى الماء ، ولهذا حرص الشاب على أن يغوص عندما رموه فى الماء ، ولكنه لم يستطع ، ومن ثم ثبتت عليه التهمة ، ووجب الحكم عليه ، فكحلوه (٥) ٠

---

(١) انظـــر ص ١٧٠ ٠

(٢) الاعتبـــار ، ص ١٣٨ ٠

(٣) الاعتبـــار ، ص ١٣٨ ـ ص ١٣٩ ٠

(٤) الاعتبار ، ص ١٣٩ ٠

(٥) الاعتبار ، ص ١٣٩ ـ ص ١٤٠ ٠

وعلى عصر الحروب الصليبية ، اتضحت جلية المواقف البطولية والانسانية والاخلاقية لتصرفات الحكام المسلمين . فاذا كانت الفروسية سواء كانت عربية أو غربية ، تتضمن الشجاعة والاتيان باعمال البطولة والكرم والسماحة والعفو عند المقدرة واحترام المرأة والوفاء بالعهد وحماية الضعفاء ، وهذه كلها صفات خلقية نبيلة ، فثمة فوارق واضحة بين تصرفات حكام المسلمين والحكام الصليبيين .

ويفخر التاريخ العربى والاسلامى بصلاح الدين الايوبى ، بوصفه الشخصية البارزة فى تاريخ الحروب الصليبية ، والبطل الذى لم يتوان فى العمل من اجل تحرير بيت المقدس من ربقة الصليبيين ؛ كذلك يفخر الاوروبيون بشخصية ريتشارد قلب الاسد ، ويرسمون هالة حوله ، بصفته البطل الذى اتى من الغرب الاوروبى ليقضى بضع سنوات فى ارض الشام ، اظهر فيها من الجلد والمثابرة فى محاربة المسلمين مالم يظهره ملك آخر من ملوك الغرب الاوروبى الذين اسهموا فى الحركة الصليبية (١) .

والواقع ان ما قام به ريتشارد قلب الاسد من أعمال فى بلاد الشام ، وما كان بينه وبين صلاح الدين الايوبى من علاقات حربية وعلاقات سلمية ، انما جذبت انظار المعاصرين وغير المعاصرين من المؤرخين . وقد زخرت كتب التاريخ بما تحويه من مقارنة شيقة بين فروسية الشرق ممثلة فى صلاح الدين ، وفروسية الغرب ممثلة فى ريتشارد قلب الاسد (٢) . ويظهر التناقض واضحا بين تصرفات صلاح الدين وريتشارد ، فى العمل الذى قام به الأخير عندما دخل عكا عام ١٢٩١ م ، فقد نسى شروط الامان التى منحها لحاميتها المسلمة ، ورمى بشروط الاتفاقية التى عقدها مع المسلمين عرض الحائط ، فقبض على من بداخل عكا من المسلمين « وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم » ، وساقهم الى تل قريب حيث « قتلوهم صبرا طعنا وضربا بالسيف » ، واخوانهم

---

(١) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ١٣٩ .

(٢) سعيد عاشور : أضواء على الحروب الصليبية ، ص ٨٣ .

المسلمون عن بعد يشاهدون رقابهم تتساقط ولا يدرون ماذا يفعلون لبعدهم عنهم (١) . وقد وصف جروسيه هذا العمل بالبربرية التى لم يسمع بمثلها ، اذ أن ريتشارد ارتكب ما ارتكبه فى رباطة جأش ، وشعور متمالك (٢) . ولاشك أن سلوك ريتشارد يتناقض مع سلوك صلاح الدين عندما سقطت مدينة بيت المقدس فى أيدى المسلمين ، فقد أمر صلاح الدين الا يتعرض دار من الدور للنهب ، والايحل مكروه باحد ، وكلف رجاله للطواف بشوارع المدينة لمنع أى اعتداء يقع على المسيحيين (٣) . وفوق ذلك اظهر صلاح الدين من الرحمة والشفقة الزائدة عن الحدود ، وأحسن الى الفقراء والارامل وأيتام القتلى ، واعتنى بالمرضى والعاجزين من الصليبيين ، أما الذين خرجوا من بيت المقدس من الصليبيين ، فقد اضحوا فى حالة يرثى لها من الارهاق والعذاب ، يلتمسون المعونة والمساعدة من الحكام الفرنجة ، ولكن الاخيرين كانوا يطردونهم ، ويوصدون الأبواب فى وجوههم (٤) .

والتناقض واضح بين ريتشارد وصلاح الدين ، فالاول تميز باخلاقه المتقلبة ، وطباعه الحادة ، والشجاعة ، أما صلاح الدين الذى يعتبر علما من أعلام التاريخ الاسلامى ، فقد تميز بالشجاعة والأمانة والعدل والفروسية النبيلة ، وكان ندا مناسبا لخصمه ريتشارد ، خافه الفرنجة واحترموه فى نفس الوقت (٥) .

وقد لاحظ وليم الصورى انه كلما ازداد صلاح الدين قوة ، اشتدت عداوته وخصومته للصليبيين ، الامر الذى أدى الى اثارة الرعب بينهم ؛ واذا استشير كان حكيما ، شجاعا فى الحروب اذا نهض لها ، بالغ السخاء اذا اعطى (٦) .

(١) ابو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٩ .
(٢) Grousset : op. cit. Vol. III p. 61
(٣) رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٥٢ .
(٤) Grant : The History of Europe. Part II p. 534
(٥) Thompson : The Middle Ages. p. 582
(٦) William of Tyre : History of the Deeds. Vol. 11 pp. 407—408

وليس ابلغ من الدرس الذى تعلمه ريتشارد من صلاح الدين ، عندما أوفد الاول رسولا يحمل رسالة الى صلاح الدين يطلب الاجتماع به ، فرد عليه صلاح الدين بقوله : « ان الملوك لايجتمعون الا عن قاعدة ، ولايحسن فيهم الحرب بعد الاجتماع والمواكلة (١) » • ويبدو أن صلاح الدين رأى أن هدف ريتشارد من الاجتماع هو المراوغة والماطلة ، والحصول على مكاسب من المسلمين ، أما الاجتماع فى نظر صلاح الدين فمعناه التفاهم بأسلوب واضح صريح من أجل عقد سلام بينهما قائم على الحق والعدل ، بالاضافة الى جمع شمل المسلمين • ولذلك آثر صلاح الدين أن يكون أخيه العادل وسيطا بينهما، ينقل وجهة نظر كل منهما الى الآخر • صلاح الدين بطبعه كان رجل سلام وحضارة ، ولو انه كان ملكا فى غير تلك العصور ، لكان كالمأمون وأمثاله ، ولكنه اضطر بحكم عصره أن يجعل حياته للكفاح والنضال (٢)» •

ولا أدل على نبل اخلاق صلاح الدين وسعة كرمه فى معاملة خصومه من أنه عندما علم بمرض خصمه ريتشارد قلب الأسد ، وبأنه فى حاجة الى بعض الفاكهة والثلج ، بادر بارسال الكمثرى والخوخ والشراب اليه ، ولم يكد يسترد صحته حتى عاود الحرب ضد صلاح الدين (٣) • وما قام به صلاح الدين من صنيع لعدوه ريتشارد ، يدل على انه كان انسانا قبل أن يكون محاربا ، غلبت عليه صفة التسامح والكرم ، ورأى أن الواجب الانسانى يحتم عليه مد يد المساعدة اليه •

وعلى اية حال ، فان صلاح الدين الايوبى كان صفحة رائعة فى تاريخ الحروب الصليبية ببلاد الشام ، ويكفى ان الشهرة الأسطورية التى عرفت بها فروسيته تركت انطباعا فى الغرب الاوروبى ، حتى أن العديد من الفرنسيين

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٤١٠ ـ ص ٤١١ •

(٢) محمد فريد ابو حديد : تاريخ صلاح الدين وعصره ، ص ١١٠ •

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٣١ ـ ص ٢٣٢ •
Grousset : Histoire des Croisades. Vot. III p. 61

لم يترددوا فى اعطاء اسم صلاح الدين لأطفالهم ، فضلا عن أنه صار احد الاسماء لعائلة فرنسية (١) ٠

وفاضت المصادر المعاصرة بمروءة صلاح الدين التى عمت الأعداء من الصليبيين ، فيروى المؤرخون فى حوادث عام ١١٩١ م (٥٨٧ هـ) أن مسلما دخل خيام الفرنج ليلا ، واستولى على طفل رضيع ، فلما اكتشفت الأم ضياع ابنها ، طار عقلها ، فنصحها البعض من الصليبيين بالذهاب الى صلاح الدين لما عرف عنه من شفقة ورحمة ، ولما رآها صلاح الدين تبكى فى الم وحرقه ،وتدق على صدرها ، وتمرغ وجهها فى التراب سال « عن قصتها ، فأخبروه ، فرق لها ، ودمعت عينيه ، وامر باحضار الرضيع ، فمضوا ووجدوه قد بيع فى السوق، فأمر بدفع ثمنه الى المشترى ، واخذه منه ، ولم يزل واقفا حتى احضر الطفل وسلم اليها ، وبكت بكاء شديدا ، وضمته الى صدرها ، والناس ينظرون اليها ويبكون (٢) » ، ويعلق ابن شداد (٣) على هذه القصة قائلا : « فانظر الى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشرية ٠ اللهم انك خلقته رحيما فارحمه رحمة واسعة من عندك ياذا الجلال والاكرام » ٠

وثمة شخصية صليبية ، كانت صورة للفارس اللص على عهد الحروب الصليبية ، ذلك هو رينودى شاتيون Reginald de Chatillon الذى عرف فى المصادر العربية باسم أرناط ، ووصف بانه شره وسافل ومتوحش ومتعصب دينى (٤) ٠ ولم يكن ارناط الذى اضحى حاكما لحصن الكرك الصليبى ، من نوع الفرسان الذين يحرصون على شرفهم ، ويتمسكون بمبادىء الفروسية ، وانما

---

(١) Longnon : Les Français d'Outre-Mer en Moyen Age. P. 157

(٢) أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٨٢ ـ ص ١٨٤ ٠
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ١١ ٠
مجير الدين الحنبلى : الانس الجليل ، جـ ١ ، ص ٣٧٢ ٠

(٣) النوادر السلطانية ، ص ٣٢ ـ ص ٣٣ ٠

(٤) King : The Knights Hospitallers. p. 111

كان لايصلح الا للسلب والنهب وشن الاغارات على الأبرياء والمسالمين (١) .
وقد وصفه المؤرخ أبو شامة (٢) قائلا أنه « أغدر الفرنجية وأخبثها وأفحصها عن الردى والرداءة وأبحثها وأنقضها للمواثيق المحكمـــة ، والايمان المبرمة، وأنكثها وأبخثها » . وقد عرف عنه نقضه للعهود ، فكثيرا ما قطع الطريق على القوافل التجارية المتجهة من مصر وغربى شبه الجزيرة العربية الى الشام ، وفى عام ١١٨٦ م (٥٨٢ هـ) قطع الطريق على قافلة ضخمة كانت فى طريقها من مصر الى الشام ، فأخذها بأسرها . ولما ناشده أفراد القافلـــة أن يطلق سراحهم ، وذكروه بعهود الامان والصلح التى بينه وبين المسلمين ، رد عليهم ردا يتضمن الاستخفاف والسخرية بالرسول صلى الله عليه وسلم وقال : « قولوا لمحمدكم يخلصكم » ، وبلغ ذلك السلطان ، فحملته الغيرة على الدين الاسلامى أنه نذر ان ظفر به قتله (٣) .

ولما انتصر صلاح الدين على الصليبيين فى موقعة حطين عام ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ، لم يلبث أن سيقت اليه الأسرى ، فكان من بينهم الملك جاى لوزجنان وأرناط صاحب الكرك ، وجيراردى ريدفورت مقدم الداوية ، فاستقبلهم صلاح الدين فى مخيمه استقبالا حسنا ، وأجلس الملك الى جانبه ، واخذ يذكر ارناط بأفعاله التى أضرت المسلمين ، وقال له : « كم تحلف وتحنث ، وتعهد وتنكث ، وتبرم الميثاق وتنقض ، وتقبل على الوفاق ثم تعرض ، فقال الترجمان عنه أنه يقول : « قد جرت بذلك عادة الملوك (٤) » . وكان الملك يلهث من شدة الظمأ ، وأحس بالرعب ، وعندئذ أمر صلاح الدين بتقديم اناء به ماء مثلوج للملك جاى ، فشرب منه ، وأعطى ماتبقى لأرناط فشرب ، وهنا غضب السلطان، ووجه كلامه للملك قائلا : « لم تأخذ فى سقيه منى اذنا ، فلا يوجب ذلك لهمنى

---

(١) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ١٦٤ .
(٢) الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٧٥ .
سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٨٩ .
(٣) الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٨١ .
(٤) أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٧٩ .
العماد الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ١٩ ــ ص ٢٠ .

أمنا (١) » • ويفسر المؤرخون هذا التصرف من ناحية صلاح الدين أنه « كان من جميل عادة العرب ، وكريم اخلاقهم ، أن الأسير اذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن ، فقصد السلطان بقوله ذلك (٢) • وكان أن التفت صلاح الدين الى أرناط ، وقال له : « ها أنا أنتصر لمحمد معك » ، ثم عرض عليه أن يعتنق الدين الاسلامى فلم يفعل ، وعندئذ استل صلاح الدين سيفه وضربه به ، فأطاح برأسه ، وأخرجت جثته ؛ فلما رأى الملك جاى ، ارتاع وظن أن دوره آت عن قريب ، ولكن صلاح الدين هدأ من روعه وقال له : « لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ! ، أما هذا فقد تجاوز الحد ، وتجرأ على الأنبياء (٣)» •

على ان الاخلاق العربية الكريمة لم تظهر فى تصرفات حكام المسلمين مثل صلاح الدين فحسب ، بل ظهرت أيضا فى تصرفات عامة الناس ، والمعروف أن الاعتراف بالجميل ، ورد المعروف ، من الصفات الأصيلة التى يتحلى بها العرب، فطالما حرصوا على رد الحسنة بأحسن منها (٤) • وثمة قصة طريفة رددتها المراجع الصليبية ، تدل على مدى تقدير العرب للمعروف والاعتراف بالجميل • ذلك أنه لم يكد يتم تتويج بلدوين الأول ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية، حتى شرع عام ١١٠١ م فى الاغارة على البلاد العربية المجاورة ، ففى ربيع ذلك العام هاجم قبيلة عربية كانت تعبر الأردن ، فقتل معظم رجالها وأسر النساء والأطفال ، وكانت من جملة الاسرى زوجة أحد شيوخ القبيلة ، وهى حامل على وشك الوضع ، فلما علم بلدوين بأمرها أطلق سراحها ومعها خادمتها وجملان وقدر من الزاد • ولم تلبث المرأة ان وضعت مولودها فى الطريق ، وعادت الى زوجها لتروى له قصتها (٥) • ولم تمض مدة طويلة حتى أتيحت الفرصة

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٩ •
(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٦ ، ص ١٧٦ — ص ١٧٧ •
(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨١ •
مجير الدين الحنبلى : الانس الجليل ، ج ١ ص ٣٢١ — ص ٣٢٢ •
(٤) سعيد عاشور : اضواء على الحروب الصليبية ، ص ٨٨ •
(٥) William of Tyre : Hist. of the Deeds. Vol. 1 pp. 429—430
سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٨٨ — ص ٨٩ •

لشيخ القبيلة ليعبر عن اعترافه بالجميل للملك الصليبى ، ذلك أن بلدوين خرج من بيت المقدس فى ١٧ مايو عام ١١٠٢ م ، قاصدا الرملة ، وكان فى استطاعة المسلمين الاستيلاء على الرملة والقبض على بلدوين ، ولكن حلول الظلام حال دون ذلك ، وجعلهم يؤجلون ذلك الى الصباح التالى • وفى منتصف الليل قدم احد الأعراب ، وطلب ان يقابل الملك ، فجرى السماح له بالدخول ، فكشف عن شخصيته بانه زوج السيدة التى اظهر لها بلدوين المروءة اثناء غارته على بلاد ما وراء نهر الاردن • فأعرب عن امتنانه للملك ، بأن أنذره بأن المصريين سوف يبداون الهجوم عند بزوغ الفجر ، فينبغى أن يبادر بالهروب • واستجاب الملك لنصيحته ، فتسال مع سائسه وثلاثة من أتباعه ، واجتازوا بخيولهم خطوط العدو (١) •

ومع أن التزاوج أحد العوامل الرئيسية فى الاختلاط والتفاعل الاجتماعى، فالمشاهد أن المسلمين لم يتم بينهم وبين الصليبيين ببلاد الشام عقد أيـــة زيجات الا فيما ندر للغاية • وبالطبع يرجع السبب فى ذلك الى اعتزاز المسلمين بدينهم وتراثهم ، وأنهم يشعرون أنهم أرقى ثقافة من الصليبيين • ولكن بعض الصليبيين تزوج من الوطنيات السوريات المسيحيات ، كمـــا تزوج بعض السوريين المسيحيين بالفرنجيات، فنشأ عن ذلك التزاوج جيل جديد مهجن جمع بين الجنس العربى والفرنجى ، وهو ما عرف بالبولانى Poulain (٢) • وهناك بعض الصليبيين المستقرين ، غيرت علاقتهم الاجتماعية بالوطنيين تغييـــرا جذريا ، الامر الذى أدى الى ربطهم بالكيان القومى العربى • فثمة عائلات لبنانية عديدة تدعى أنها من أصل افرنجى ، وتحتفظ باسماء لاتينية ، تدل على أنها

---

(١) William or Tyre : op. cit. Vol. 1 pp. 430—432

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٩٦ ـ ص ٢٩٧ •

(٢) انظر ص ٨٠ ـ ص ٨٢ •

تحدرت من الصليبيين الذين استقروا فى البلاد ، امثال فرنجية Frankieh وصليبى Crusading ، وبردويل Baldwin والدويهى le Douhal ودريان Comte d'Orient ، وطربية Torbey ، وغالب هذه العائلات تنتمى الى الطائفة المارونية (١) .

* * *

(١) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ١٩٠
تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ .

خاتمـــــــة

وبعد ، ليس الغرض من هذه الكلمة الختامية أن تكون تلخيصا لما انتهى اليه الكتاب من نتائج ، والا صار الأمر تكرارا لامبرر له • وانما أردت بهذه الكلمة أن اعبر عن النتائج التى انتهيت اليها والتى أعتقد أننى ان لم أكن توصلت اليها فقد أكدتها •

والفكرة الأولى التى أردت توكيدها فى الفصل الأول ، هى أن بلاد الشام خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، عاش منها مزيج عجيب من الناس ، مكونا بذلك مجتمعين أساسيين هما المجتمع الاسلامى والمجتمع الصليبى • والمجتمع الاسلامى تألف من جنسيات عرقية وطوائف دينية عديدة ، منها القبائل العربية التى ترجع فى اصولها الى القحطانيين ، والعدنانيين ، والأكـــراد ، والتركمان ، والاتراك • وثمة طائفة لعبت دورا خطيرا فى الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين ، تلك الطائفة المعروفة بالاسماعيلية أو الباطنية ، التى استطعت أن احدد أهدافها وخصائصها • ومن الطوائف التى ألقيت الضـــوء عليها : الدروز ، والنصيرية • وقد حرصت على رسم الاطار العام لكل من هذين المجتمعين وبيان حدوده وأبعاده •

وبمجىء الحملة الصليبية الأولى الى بلاد الشام ، واستيلائها على بيت المقدس عام ١٠٩٩ م ، كان ولابد أن يأخذ العنصر اللاتينى مكانه بين عناصر السكان الموجودة • فالمجتمع الصليبى الذى استعرضته ــ فى الفصل الثانى ــ ساهم فى وجوده العديد من الجنسيات التى وفدت من جميع أنحاء الغرب الأوروبى مثل الفرنسيين ، والألمان ، والنورمان ، والأسبان ، والبيازنة ، والجنوية ، والبنادقة ، والانجليز، وغيرهم • وعلى الرغم من أن الفرنسيين كانوا أحد العناصر التى سيطرت على بلاد الشام ابان الحروب الصليبية ، الا أنها وضعت بصماتها الواضحة على احداث تلك الحروب ، فى اللغة والنظم الاقطاعية والفن ـ

وفى ذلك الفصل ايضا ابرزت الدور الذى قامت به المدن الايطالية : بيزة وجنوة والبندقية . وبذلك صارت بلاد الشام مجتمعا عالميا ، فريدا فى نوعه .

أما عن الأقليات الدينية التى عاشت مع المسلمين جنبا الى جنب قبـــل مجىء الصليبيين ، وهم طبقة المسيحيين الشرقيين المحليين ، والبيزنطيين (الاغريق) ، والسريان ، واليعاقبة ، والأرمن ،والموارنة ، والأقباط ، واليهود، والسامرة ، والنساطرة ، فقد أوضحت ميول وظروف كل منها خلال فترة الحروب الصليبية .

غير أن بلاد الشام شهدت ابتكارا فذا ، أوجده نجاح الحملة الصليبية الأولى ، ويتمثل ذلك فى الطوائف الدينية الحربية التى جمعت بين حياة الرهبنة والفروسية فى رباط واحد . واهم تلك الطوائف ، طائفتا الاسبتار والداوية ، واقلها شأنا طوائف الفرسان التيوتون ، وسانت لازاروس ، وسانت توماس وغيرهم . وقد اوضحت الدور التى لعبته تلك الطوائف فى الدفـــاع عن مملكة بيت المقدس الصليبية ، وكيف صارت على درجة خطيرة من القــوة واتساع النفوذ ونمو الثروات الضخمة .

ولايستطيع المرء التحدث عن المجتمع الصليبى ببلاد الشام دون اغفـــال الطبقات التى تألف منها وهى : الأرستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان ، التى كانت العمود الفقرى للمجتمع الصليبى ، وطبقة البولانيين وهم الأبناء المنحدرين من الزيجات المختلفة بين الفرنجة والمسيحيين الوطنيين ، وطبقـــة الأحرار أو البورجوازية ، وطبقة الرقيق او الاقنان . ومن الثابت ان البنــــاء الاجتماعى للكيان الصليبى بالشام تألف من طبقات مختلفة ، غير متجانسة ، ظلت متميزة بالفوارق الواضحة .

ومع اعترافنا بوجود بواعث عديدة للحركة الصليبية ، فان العـــامل الاقتصادى كان بالغ الأهمية ، اذ أن الصليبيين سعوا وراء تحقيق مكاسب اقتصادية فى الشرق العربى . والمتتبع لدور الصليبيين فى تجارة الشام . يتضح

له انهم لم يجنوا من ورائها الا ارباحا ضئيلة · واعتقد أننى استطعت فى الفصل الثالث ان القى المزيد من الضوء على النشاط التجارى للمدن الايطالية ، فلاريب أنها كانت ــ أول الأمر ــ بالغة الحذر ازاء الحركة الصليبية ، وبالغة الميل الى التمهل فى بذل ماوعدت به من مساعدة ، ولكنها غيرت رأيها بعد أن أدركت أن الحروب الصليبية الأولى تبشر بالنجاح ، ومن ثم بادرت الى ارسال أساطيلها الى الشرق الأدنى لمساعدة الصليبيين ، مقابل امتيازات فى كل مدينة أسهموا فى الاستيلاء عليها · وعالجت فى ذلك الفصل طرق التجارة البرية والبحرية المؤدية الى الشام ، وأهم المراكز التجارية وما ارتبط بها من ازدهار على عصر الصليبيين · وكشف النقاب عن اهم السلع التى كانت محور النشاط التجارى ببلاد الشام ، فقد أولع الغرب الأوروبى بالسلع الشرقية واشتد اقباله عليها ، خاصة التوابل التى حازت المكانة الأولى بين تلك السلع حتى نهاية العصور الوسطى · وانتقلت بعد ذلك الى النظم والمعاملات التجارية المختلفة ، التى خدمت النشاط التجارى ببلاد الشام ·

أما الفصل الرابع ، فقد كان مجاله الحديث عن الفنون الحربية على زمن الحروب الصليبية · ومن الواضح أن المسلمين والصليبيين كان لكل منهم خصائصه الاستراتيجية فى الهجوم والدفاع والتكتيك والأسلحة · ولما كانت اللياقة البدنية ضرورية للجند فى كل عصر ، بوصفها تكسب الجسم المرونة والرشاقة والنشاط ، فقد حرصت على أبرازها · وكان لابد أن نلم بالتربية الاجتماعية فى المعسكر الاسلامى ، بالاضافة الى الروح المعنوية التى لاغنى عنها لاحراز النصر ، فبفضلها أمكن انقاذ موقف المسلمين المتهالك ، وانتزاع النصر من براثن الهزيمة ·

وقد أدى النقص فى القوة البشرية الى جعل الصليبيين يبنون القلاع الهائلة · ولكى يحتفظوا بتثبيت أقدامهم على الشاطىء كان عليهم أن يحتفظوا بالسيادة على صلتهم بالبحر ، ولهذا شيدوا سلسلة من الأبراج والقلاع والحصون من اجل تامين العمليات الحربية · وقد استفاد الصليبيون من

أساليب العمارة الحربية للبيزنطيين والعرب • على انهم لم يقفوا عند حد الافادة والاقتباس ، بل أضافوا من عندهم اضافات جديرة بالاهتمام • وعلى الرغم من القلاع والحصون الضخمة التى بناها الفرنجة ببلاد الشام ، الا انها فى النهاية سقطت فى ايدى المسلمين • ويرجع السبب فى ذلك النقص فى القوة البشرية الفرنجية ، والجهد النفسى ، والمعاناة ، اذ ظل الصليبيون ــ كقوة محاربة ــ فى حالة من اليقظة المستمرة والرقابة والخوف • ومن المشاهد تطور أساليب الحصار واسلحته فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، فضلا عن تجهيز القلاع بالمؤن والامدادات التى تكفى حصارا طويلا • وعندما وقع عبء الدفاع عن مملكة بيت المقدس الصليبية على كاهل الطوائف الدينية العسكرية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، نتيجة ضغط القوات الاسلامية ، صار لتلك الطوائف قلاعها وحصونها التى تميزت بالضخامة والمناعة والقوة ، فضلا عن انها ارتبطت بنظام صارم • وعلى أية حال ، فان بلاد الشام خلال فترة الحروب الصليبية ، كانت تمثل بيئة غنية من التحصينات الحربية من الطراز الأول ، لم تتوفر فى أى بقعة أخرى من العالم •

ومن المؤكد أن الحروب الصليبية التى اتخذت من بلاد الشام مسرحا لأحداثها مدة تقرب من قرنين من الزمان ، أدت الى وجود احتكاك حضارى بين المسلمين والصليبيين ، الامر الذى أدى الى انتقال بعض التاثيرات الحضارية الاسلامية الى الغرب الأوروبى • وقد كان من الصعب فى عصر الحروب الصليبية ــ كما أوضحت فى الفصل الخامس ــ ، ايجاد تفاعل فكرى بين الفرنجة والمسلمين ، لأن ذلك التفاعل لايتم الا فى ظل استقرار كامل • هذا بالاضافة الى أن مجتمع الجنود والتجار لم يهيىء فى الواقع مناخا صالحا لاقامة مستوى فكرى رفيع • وقد أوضحت فى ذلك الفصل الانتاج العقلى للفرنجة ببلاد الشام ، والفوارق الحضارية فى الناحية الفكرية بينهم وبين المسلمين •

وبسبب الدروس المستقاة من الحروب الصليبية ، بلغ الصليبيون شأوا بعيدا فى التسامح الدينى ، بعد أن وقفوا على صورة أوضح واضبط عن الاسلام

والمسلمين ، وهم الذين كانوا فى نظر الغرب الأوروبى « كفارا » وثنيين • وأبرزت فى الفصل الخامس أيضا أن الحروب الصليبية كشفت الستار عن خيبة الصليبيين ، وفشلهم فى انتزاع بيت المقدس من أيدى المسلمين ، ليقيموا دولة مسيحية فى قلب العالم الاسلامى ، ولهذا رأوا ضرورة التفكير فى اجتذاب المسلمين الى اعتناق الديانة المسيحية عن طريق التفاهم والاقناع وهو تحول أرسى قواعد الحركة التبشيرية المسيحية •

أما عن التداخل والاختلاط والتفاعل الاجتماعى بين المسلمين والصليبيين، فالواقع أن الحروب الصليبية ببلاد الشام أتاحت فرصة طيبة لذلك ، لأن انقضاء الجيل الأول من الصليبيين ، جعلهم ينسوا تعصبهم الدينى الأعمى ، وربطت بينهم وبين المسلمين العلاقات الودية من جراء طول المعاشرة ، وقد اختلفت عنهم جموع الصليبيين الذين كانوا يفدون من الغرب الأوروبى ، وقلوبهم مفعمة بالغلظة والجفاء •

وقد وضح فى ذلك الفصل كيف أن كبار السادة الاقطاعيين الصليبيين ، قد تبنوا عادات المسلمين وتقاليدهم فى الأزياء والاطعمة والأشربة والحمامات الشرقية • وثمة عادات سار عليها الصليبيون ، لكن المسلمين استنكروها ورأوا فيها خروجا على مبادىء الشريعة الاسلامية ، وجهلا بأبسط القواعد الانسانية ، مثل أساليب معاقبة المجرمين والمذنبين • وهنا لابد من عقد مقارنة بين فروسية الشرق ممثلة فى صلاح الدين الأيوبى ، وفروسية الغرب الأوروبى ممثلة فى ريتشارد قلب الأسد • وقد ظهر التناقض واضحا بين تصرفات الاثنين، فالاول غلب عليه الرحمة والمروءة والانسانية ، أما الأخير فقد غلب عليه تقلب المزاج والغدر ، بشهادة المؤرخين المعاصرين وغير المعاصرين •

ومهما كان الأمر ، فان الحركة الصليبية ببلاد الشام بالنسبة للغرب الاوروبى ، كانت مغامرة فاشلة كلفته الكثير من التضحيات فى الأرواح والأموال،

ولكنها بالنسبة للعلاقات بين الشرق والغرب ، كانت لقاء حضاريا ، مكن الغرب الأوروبى من النهوض من سباته الطويل • وبمعنى اخر ، اذا كانت الحركة الصليبية فشلت كمحاولة مبكرة قصد بها استعمار الشرق الأدنى ، الا انها ـــا فتحت الغرب الأوروبى على آفاق جديدة ، وساهمت فى احداث التغيرات والأفكار الجديدة التى خرجت به من عزلته •

* * *

المصـــادر والمراجـــع

١ ـ المصادر العربية :

ابن الأثـــير :

(على بن أحمد بن أبى الكرم ، ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٨ م) :

ـــ الكامل فى التاريخ ، ٩ أجزاء ، ط • القاهرة سنة ١٣٥٧ هـ •

ـــ التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل ، نشره وحققه د • عبد القادر طليمات ، ط • القاهرة سنة ١٩٦٣ م •

ابن ايـــاس :

(أبو البركات محمد بن أحمد ، ت ٩٣٣ هـ / ١٥٢٤ م) :

ـــ بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ط • القاهرة سنة ١٣١١ هـ •

ابن أيبك الدوادارى :

(أبو بكر بن عبد الله ، ت بعد ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م) :

ـــ كنز الدور وجامع الغرر ، الجزء السابع وعنوانه : الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق د • سعيد عبد الفتاح عاشور ، ط • القاهرة سنة ١٩٧٢ م •

ابن بهـــادر :

(محمد بن محمد بن محمد ، ت ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م) :

ـــ فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر ، جزءان ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦١٦٦ •

ابن جـــبير :

(أبو الحسين محمد بن أحمد الكنانى الأندلسى ، ت ٦١٤ هـ/١٢١٧ م):

ـــ الرحلة ، ط • بيروت سنة ١٩٦٤ م •

ابن الجـــوزى :

(أبو المظفر بن قيزوغلى ، ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م) :

ـــ مرآه الزمان ، الجزء الثامن ط · حيدر آباد سنة ١٩٥١ م ·

ابن حبيـــب :

(الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر ، ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) :

ـــ درة الأسلاك فى دولة الأتراك ، جزءان ، مخطوط مصور بمكتبـــة جامعة القاهرة رقم ٢٢٩٦١ ·

ابن حوقـــــل :

(أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى ، ت بعد ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) :

ـــ المسالك والممالك ، ط · ليدن ١٨٧٢ م ·

ابن خلـــدون :

(عبد الرحمن بن محمد ، ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) :

ـــ العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط · بيروت بدون تاريخ ·

ابن خلكـــان :

(شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم ، ت ٦٨١ هـ / ١٢٨١ م) :

ـــ وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، ٦ أجزاء ، ط · القاهرة ١٩٤٨ م ·

ابن شاهنشـــاه الأيوبى :

(محمد بن تقى الدين بن عمر ، ت ٦١٧ هـ / ١٢٣٠ م) :

ـــ مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق د · حسن حبشى ، ط · القاهرة سنة ١٩٦٨ م ·

ابن الشحنة :

(أبو الفضل محمد ، ت فى حدود سنة ٨٠٠ هـ) :

ـــ الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ، ط • بيروت سنة ١٩٠٩ م •

ابن شداد :

(بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع ، ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م) :

ـــ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق د • جمال الدين الشيال ، ط • القاهرة سنة ١٩٦٤ م •

ابن العديم :

(كمال الدين عمر بن أحمد العقيلى ، ت ٦٦٠ هـ / ١٦٧٨ م) :

ـــ زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، ٣ أجزاء ، تحقيق د • سامى الدهان ، ط • دمشق سنة ١٩٤٥ ـ ١٩٥١ م •

ابن العماد الحنبلى :

(أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد ، ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) :

ـــ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ٨ أجزاء ، ط • القاهرة سنة ١٣٥١ هـ •

ابن الفرات :

(محمد بن عبد الرحيم ، ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م) :

ـــ تاريخ ابن الفرات ، جزء ٧ ، ٨ ، تحقيق د • قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ، ط • بيروت سنة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٨ م •

ابن فضل الله العمرى :

(شهاب الدين احمد بن فضل الله ، ت ٧٤٢ هـ/١٣٤١ م) :

ـــ التعريف بالمصطلح الشريف ، ط • القاهرة سنة ١٣١٢ م •

ابن القـــلانس :

(أبو يعلى حمزه ، ت ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م) :

ـــ ذيل تاريخ دمشق ، نشره أمدروز ، ط · بيروت سنة ١٩٠٨ م ·

ابن كثـــــير :

(عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر الحافظ ، ت ٧٧٤ هـ/١٣٧٢ م) :

ـــ البداية والنهاية ، ١٢ جزءا ، ط · بيروت ١٩٦٦ ·

ابن منكلـــى :

(محمد بن منكلى الداعى ، ت ٧٦٤ هـ/١٣٦٣ م) :

ـــ التدبيرات السلطانية فى سياسة الصناعة الحربية ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٣٣٧ ·

ابن ميســـر :

(محمد بن على بن يوسف ، ت ٦٧٧ هـ/١٢٧٨ م) :

ـــ تاريخ مصر ، نشر هنرى ماسيه ، ط · القاهرة سنة ١٩١٩ م ·

ابن واصـــل :

(جمال الدين محمد بن سالم ، ت ٦٩٧ هـ/١٢٩٨ م) :

ـــ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ج ١ ـ ٣ تحقيق د · جمال الدين الشيال ط · القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٦٠ م · ج ٤ تحقيـــق د · حسنين ربيع ، ط · القاهرة سنة ١٩٧٢ م ·

ابن الـــوردى :

(أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر ، ت ٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م) :

ـــ تتمة المختصر أو تاريخ ابن الوردى ، ط · القاهرة سنة ١٢٨٥ هـ ·

ـــ خريدة العجايب وفريدة الغرائب ، ط · القاهرة سنة ١٢٨٠ م ·

ابو شـــــامة :

(عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان ، ت ٦٦٥ هـ/١٢٦٨ م) :

ـــ الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جزءان ، ط ٠ القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ ٠

ابو الفـــــدا :

(اسماعيل بن عماد الدين صاحب حماه ، ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١ م) :

ـــ المختصر فى أخبار البشر ، ٤ أجزاء ، ط ٠ القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ ٠

ابو المحـــــاسن :

(جمال الدين يوسف بن تغرى بردى ، ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٩ م) :

ـــ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ١٤ جزءا ، ط ٠ القاهرة سنة ١٩٢٩ ـ ١٩٧١ م ٠

اســـامه بن منقـــذ :

(أبو المظفر بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر ، ت ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م) :

ـــ كتاب الاعتبار ، نشره وحققه فيليب حتى ، ط ٠ برنستـــون سنة ١٩٣٠ م ٠

ـــ كتاب العصا ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٠ القاهرة سنة ١٩٥١ م ٠

الاصطخـــــرى :

(ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارس المعروف بالكرخى ، المتوفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) :

ـــ المسالك والممالك ، تحقيق د ٠ محمد جابر عبد العال الحينى ، ط ٠ القاهرة سنة ١٩٦١ م ٠

البـــــلاذرى :

(احمد بن يحى بن جابر ، ت ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م) :

ـــ فتوح البلدان ، ط ٠ بيروت سنة ١٩٥٧ م ٠

بكتــــوت الرماح :

(بدر الدين بكتوت الرماح الظاهرى ، ت حوالى ٧١٦ هـ/١٣١١ م) :

ـــ علم الفروسية وعلاج الدابة ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٣٣٩ ٠

الحسن بن عبد الله :

(ت ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م) :

ـــ آثار الأول فى ترتيب الدول ، ط ٠ القاهرة سنة ١٢٩٥ هـ ٠

الحســــــينى :

(صدر الدين بن حسن بن ناصر بن على) :

ـــ أخبار الدولة السلجوقية ، نشره محمد اقبال ، ط ٠ لاهور سنة ١٩٣٣ م ٠

الحنبلــــى :

(احمد بن ابراهيم ، عاش فى القرن السابع الهجرى ، الثالث عشـــر الميــــلادى) :

ـــ شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٣١ ٠

الخالـــــدى :

(بهاء الدين محمد بن لطف الله العمرى ، ت ٩٢٧ هـ / ١٥٣١ م) :

ـــ المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الانشا . مخطوط مصـــــور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٤٥ ٠

صالح بن يحيى :

(ت ٨٣٩ ـ ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م) :

ـــ تاريخ بيروت ، نشره لويس شيخو ، ط ٠ بيروت سنة ١٩٢٧ م٠

عبد اللطيف البغدادى :

(موفق الدين عبد اللطيف ، ت ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م) :

ـــ الافادة والاعتبار ، نشره وعلق عليه دى ساسى ، ط ٠ القاهرة ، بدون تاريخ ٠

عماد الدين الاصفهانى :

(أبو عبد الله محمد ، ت ٥٩٧ هـ/١٢٠١ م) :

ـــ الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ط ٠ القاهرة سنة ١٣٢١ هـ ٠

ـــ تاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار الشيخ الفتح بن على بن محمد البندارى ، ط ٠ القاهرة سنة ١٣١٨ هـ ٠

القلقشـــندى :

(شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على ، ت ٨٢١ هـ/١٤١٨ م) :

ـــ صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ١٤ جزءا ، ط ٠ القاهرة سنة ١٩١٣ م ٠

مجير الدين الحنبلى :

(قاضى القضاة ابو اليمن ، عاش فى القرن العاشر الهجرى / الخامس عشر الميلادى) :

ـــ الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ط ٠ القاهرة سنة ١٢٨٣هـ ٠

المســـعودى :

(ابو الحسن على بن الحسين بن على ، ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) :

ـــ التنبيه والاشراف ، ط ٠ ليدن سنة ١٨٩٣ م ٠

ـــ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، ٤ أجزاء ، ط · القاهرة سنة ١٩٦٤ م ·

المقدســـى :

(أبو عبد الله محمد بن أحمد البشارى ، توفى حوالى عام ٣٨٧ هـ/٩٩٧ م) :

ـــ أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ط · ليدن سنة ١٩٠٦ م ·

المقريـــزى :

(تقى الدين أحمد بن على ، ت ٨٤٥ هـ/١٤٤١ ـ ١٤٤٢ م) :

ـــ السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ـ ٢ (٦ أقسام) تحقيق د · محمد مصطفى زيادة ، ج ٣ ـ ٤ (٦ أقسام) تحقيق د · سعيد عبد الفتاح عاشور ، ط · القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٧٣ م ·

ناصر خســـرو :

(ت ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م) :

ـــ سفر نامة ، نقله الى العربية د · يحيى الخشاب ، ط · القاهرة سنة ١٩٤٥ م ·

النعيمـــى :

(عبد القادر بن محمد ، ت ٩٢٧ هـ / ١٥٢٠ م) :

ـــ الدارس فى تاريخ المدارس ، جزءان ، ط · دمشق سنة ١٩٥١ م ·

ياقوت الحمـــوى :

(شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى ، ت ٦٢٢ هـ/١٢٢٩ م) :

ـــ معجم البلدان ، ١٠ أجزاء ، ط · القاهرة سنة ١٩٠٦ م ·

٢ ـ المراجع العربية والمترجمة :

ابراهيم طرخــــان :

النظم الاقطاعية فى الشرق **الأوسط فى العصور** الموسطى .

(القاهرة ١٩٦٨ م)

احمد احمد بـــدوى :

الحياة العقلية فى عصر الحروب **الصليبية** .

(القاهرة بدون تاريخ)

احمد امـــين :

الصعلكة والفتوة فى **الاسلام** .

(القاهرة ١٩٥٢ م)

ظهر الاســــلام .

جزء ١ (القاهرة ١٩٤٥ م

احمد عارف الزين :

تاريخ صيدا

(صيد ١ ١٩١٣ م)

احمد كمال زكى :

أسامه بن منقذ .

(القاهرة ١٩٦٨ م)

ارشيبالد لويس :

القوى البحرية والتجارية فى **حوض البحر المتوسط** ٥٠٠ ـ ١١٠٠ م .

ترجمة احمد محمد عيسى .

(القاهرة ١٩٦٠ م)

ارنست باركـــر :

الحروب الصليبية ٠

نقله الى العربية د ٠ السيد الباز العرينى ٠

(القاهرة ١٩٦٠)

اسطفان الدويهـــى :

تاريخ الطائفة المارونية ٠

(بيروت ١٨٩٠ م)

برجـــــز :

(مارتـــن) ٠

تراث الاســـــلام ٠

(القاهرة ١٩٣٦ م)

برنارد لويـــس :

العرب فى التاريخ ٠

تعريب نبيه امين فارس ومحمود يوسف زايد ٠

(بيروت ١٨٨٠ م)

توفيق اســـــكندر :

بحوث فى التاريخ الاقتصادى ٠

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ٠

(القاهرة ١٩٦١ م)

جـــاك هيـــرز :

« جنوه ٠ مثل لمدن البحر المتوسط فى العصور الوسطى » ٠

ترجمة د ٠ على رأفت ((مقالة بمجلة ديوجيين التى تصدرها هيئة اليونسكو ، العدد ١٧ ، السنة السادسة ١٩٧٢ م ٠

جروينبـــاوم :
(جوســـتاف) .
حضـــارة الاســـلام .
ترجمة عبد العزيز جاويد .
(القاهرة ١٩٥٦ م)

جمال الدين ســـرور :
النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق .
(القاهرة ١٩٦٤ م)
الدولة الفاطمية فى مصر .
(القاهرة ١٩٦٥)

جوانفيـــــل :
(جان سيردى)
القديس لويس ، حياته وحملاته على مصر والشام ، مذكرات جـــان سيردى جوانفيل .
ترجمة وتعليق د . حسن حبشى .
(القاهرة ١٩٦٨ م)

جورجى زيـــدان :
تاريخ التمدن الاسلامى .
جزء ٤ " " .
(القاهرة ١٩٤٧ م)

جورجى ينـــى :
تاريخ ســـوريا .
(بيروت ١٨٨١ م)

جوستاف لوبون :

حضارة العرب •

نقله الى العربية محمد عادل زعيتر ☆

(القاهرة ١٩٤٥ م)

حامد زيـــان :

حلب فى العصر الزنكى

رسالة ماجستير لم تطبع ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ١٩٧٢ م

حسن ابراهيم حسن :

تاريخ الاسلام السياسى

٣ اجزاء (القاهرة ١٩٥٥ م)

حسن حبشـــــى :

الحرب الصليبية الأولى ☆

(القاهرة ١٩٤٧ م)

نور الدين والصليبيون ☆

(القاهرة ١٩٤٨ م)

حنا ابى راشـــد :

جبل الدروز مع صحيفة اعمال زعيمهم الحربى سلطان باشا الأطرش •

(القاهرة ١٩٢٥ م)

خليل ســـركيس :

تاريخ اروشـــليم ☆

(بيروت ١٨٧٤ م)

رنسيمــــان :

(ستفن) ٠
تاريخ الحروب الصليبية ٠
ترجمة د ٠ السيد الباز العرينى ٠
٣ أجزاء (بيروت ١٩٦٧ ـ ١٩٦٩ م)

زكى محمد حسن :

فنون الاســـلام ٠
(القاهرة ١٩٤٨ م)

سامى سلطان سعد :

الاسبتارية فى رودس ١٣١٠ ـ ١٥٢٢ م
رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة القاهــرة ، لم تطبع ، عام ١٩٧٥ م ٠

سعيد عبد الفتاح عاشور :

ـــ أوروبا العصور الوسطى ٠
جزءان (القاهرة ١٩٥٨ م)
ـــ النهضات الأوروبية في العصور الوسطى وبداية الحديثة ٠
(القاهرة ١٩٦٠ م)
ـــ الظاهر بيبرس ٠
(القاهرة ١٩٦٣ م)
ـــ العصر المماليكى فى مصر والشام ٠
(القاهرة ١٩٦٥ م)
ـــ الحركة الصليبيـــة ٠
جزءان (القاهرة ١٩٧١ م)
ـــ « الامبراطور فردريك الثانى والشرق العربى » ٠
مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، مجلد ١١ لسنة ١٩٦٣م ٠

— « شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية » •
مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، مجلد ١٦ لسنة ١٩٦٩م •

— المدنية الاسلامية وأثرها فى الحضارة الأوروبية •
(القاهرة ١٩٦٣ م)

— المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك •
(القاهرة ١٩٦٢ م)

— اضواء جديدة على الحروب الصليبية •
(القاهرة ١٩٦٤ م)

السيد الباز العرينى :

— غوطبقة النبلاء الاقطاعيين بمملكة بيت المقدس فى القرن الثالث عشر الميلادى ، فصل من مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد ٢٠ ، العدد الثانى ديسمبر ١٩٥٨ م •

— الشرق الأوسط والحروب الصليبية •
(القاهرة ١٩٦٣ م)

— مؤرخو الحروب الصليبية •
(القاهرة ١٩٦٢ م)

— الاقطاع الحربى عند الصليبيين بمملكة بيت المقدس فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى •
(القاهرة ١٩٥٩ م) •

— الاقطاع فى الشرق الأوسط منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر الميلادى • فصل من حوليات كلية الآداب ، العدد الرابع ، يناير ١٩٥٧ م •

شـــارل ديـــل :

البندقية جمهورية ارستقراطية •
تعريب د • احمد عزت عبد الكريم ، وتوفيق اسكندر •
(القاهرة ١٩٤٨ م)

عبد الرحمن زكى :

« القلاع فى الحروب الصليبية »
المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ١٥ لسنة ١٩٦٩ م

عبد اللطيف حمزة :

الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام .
(القاهرة بدون تاريخ).

عبد اللطيف حمزة :

أدب الحروب الصليبية .
(القاهرة ١٩٤٨ م).

عبد النعيم حسنين :

سلاجقة ايران والعراق
(القاهرة ١٩٥٩ م) .

عمر فــــروخ :

التبشير والاستعمار فى البلاد العربية .
(بيروت ١٩٧٣ م)

على بن حسين السليمان :

النشاط التجارى فى شبه الجزيرة العربية أواخر العصـــور الوسطى.
١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م
رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، لم تطبع ، عام ١٩٧٤ م.

عمر كمال توفيق :

مقدمات العدوان الصليبى .
(الاسكندرية ١٩٦٦ م).

فيليب حتـــى :

لبنان فى التاريخ ·
ترجمة د · أنيس فريحه ، مراجعة د · نقولا زيادة ·
(بيروت ١٩٥٩ م)

تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ·
ترجمة د · كمال اليازجى ·
جزءان
(بيروت ١٩٥٩ م)

لويس شيخـــو :

بيروت ، تاريخها وآثارها ·
(بيروت ١٩٢٥ م)

مجهـــول المؤلف :

تاريخ الدروز وأصلهم ·
(طبعة بدون تاريخ)

محمد أحمد حسين :

أسامه بن منقذ
(القاهرة ١٩٤٦ م)

محمد أمين زكى :

خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن
ترجمه الى العربية محمد على عونى ·
(القاهرة ١٩٣٦ م)

محمد خلف الله أحمد :

الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة ·
(القاهرة ١٩٥٥ م)

محمد فريد ابو حديد :

صلاح الدين الأيوبى وعصره .•

(القاهرة ١٩٢٧ م)

محمد كامل حسين :

طائفة الدروز ، تاريخها وعقائدها •

(القاهرة ١٩٦٨ م)

محمد كرد علي :

خطط الشـــــام

٦ أجزاء (دمشق ١٩٢٥ ـ ١٩٢٨ م)

الاسلام والحضارة العربية

(القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٣٦ م)

محمد محمد الشيخ :

الامارات العربية فى بلاد الشام

رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، سنة ١٩٧١ م •

محمود محمد الجويرى :

أسوان فى العصور الوسطى •

رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، (لم تطبع) عام ١٩٧٢م

نظير حسان سعداوى :

ثلاثة من مؤرخى الحروب الصليبية •

(القاهرة ١٩٥٧ م)

الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى

(القاهرة ١٩٦١ م)

جيش مصر فى أيام صلاح الدين
(القاهرة ١٩٥٦).

التاريخ الحزبى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى
(القاهرة ١٩٥٧ م).

هـــــاو :

(سونيا . ى .)
فى طلب التوابل .
ترجمة محمد عزيز رفعت ، مراجعة محمود النحاس
(القاهرة ١٩٥٧ م).

هنرى لامنس :

(الأب) .
تسريح الأبصار فيما يحتوى لبنان من الآثار .
(بيروت ١٩١٤ م)

يوسف الدبس :

الجامع المفصل فى تاريخ الموارنة الموصل .
(بيروت ١٩٠٥ م)

يوسف دريان :

نبذة تاريخية فى أصل الطائفة المارونية واستقلالها بجبل لبنان من قديم الدهر حتى الآن .
(القاهرة ١٩١٦ م)

* * *

٣ ـ المصادر والمراجع الأجنبية :

Archer (T.A.) & Kingsford (C.L.) :
The Crusades.
(London, 1919)

Boissonade (P.) :
Life and Work in Mediaeval Europe.
(London, 1937)

Cahen (Claude) :
La Syrie du Nord à l'époque des Croisades.
(Paris, 1940)

Cambridge Mediaeval History. Vol. IV, V.

Chalandon (F.) :
Histoire de la Première Croisade jusqu'à l'élection de Godefroi de Bouillon.
(Paris, 1962)

Cheyney (Edward P.) :
The Waning of the Middle Ages.
(London, 1962)

Day (Clive) :
A History of Commerce.
(London, 1940)

Delaville Le Roulex (J.) :
Les Hospitaliers en Terre — Sainte et à Chypre.
(Paris, 1904)

Deschamps (P.):
Le Crac des Chevaliers.
(Paris, 1938)

Duggan (Alfred) :

The Story of the Crusades.

(London, 1963)

Dussaud (R.), Deschamps (P.) and Seyring (H.) :

La Syrie Antique et Medievale illustrée.

(Paris, 1931).

Emerton (Ephraim) :

Mediaeval Europe.

(London, 1894).

Encyclopaedia of Religion and Ethics. edited by James Hastings.

Encyc. Britt.

Articles, Castle, Crusades, Knighthood,
Chivalry and Orders.

Enlart (Camille) :

Les Monuments des Croises dans Le Royaume
de Jérusalem. 2 Vols.

(Paris, 1925—1928).

Fedden (Robin) :

The Journal of a Voyage through the more
unfrequented regions of mons libanus

(Cairo, 1945).

Fedden (Robin) :

Crusades Castles

(London, 1950).

Fischel (W.J.) :

Jews in the Economic and Political Life of
the Mediaeval Islam.

(London, 1958)

Gibb (H.A.R.) :

The Caliphate and the Arab States.

Gerard de Nerval :

Voyage en Orient. T.2.

(Paris, 1869)

Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum :

Edited by Rosalind Hill.

(London, 1962)

Grant (A.J.) :

A History of Europe. Part II.

Grousset (R.) :

Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem.

3 Vols. (Paris, 1943—46)

L'Empire du Levant.

(Paris, 1946).

Guides Bleus Les :

Syrie — Palestine.

(Paris, 1932).

Haskins (C.H.) :

Studies in Mediaeval Culture.

(Oxford, 1929)

Hayes (F.H.), Baldwin (M.W.) :

History of Europe. Vol. I.

(New York, 1959).

Hearnshaw (F.J.C.) :

Chivalry and its place in History.
Edited by E. Prestage.

(London, 1928).

Heyd (W.) :

Histoire des Commerce du Levant.

2 Vols. (Paris, 1936).

Hitti (P.K.) :

The Origins of the Druze People and Religion.

(New York, 1928).

Hitti (P.K.):

History of the Arabs.

(London, 1972).

Huizinga (J.) :

The Waning of lde Middle Ages.

(London, 1948).

Hulme (E.M.) :

The Middle Ages.

(U.S.A., 1938).

Iorga (N.) :

Histoire des Croisades.

(Paris, 1924).

Iorga (N.) :

L'Armenie Cilicienne.

(Paris, 1930).

Kantorowicz (E.) :

Frederick the Second.

(London, 1931).

King (E.J.) :

The Knights Hospitallers in the Holy Land.

(London, 1931).

Lamb (H.) :

The Crusades (the flame of slam).

(London, 1931).

La Monte (J.) :

Feudal Monarchy in the Latin Kingdom.

(Cambridge, 1932).

Lammens (H.) :

La Syrie précis Historique.

Vols. (Beyrouth, 1921).

Lane Poole (Stanly) :

Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem.

(London, 1893).

The History of Egypt in the Middle Ages.

(London, 1901).

Lethaby (W.R.) :

Medieval Art.

(London, 1949).

Longnon (J.) :

Les Français d'Outre-Mer au Moyen-Age.

(Paris, 1929).

Loti (Pierre) :

Jerusalem.

(Paris, No date of Printing).

Marco Polo :

The Travels. Translated into English from the text of L.F. Benedetto.

(London, 1903).

Miller (W.) :

The Latin in the Levant.

(London, 1908).

Nau (François) :

Les Arabes Chrétiens de Mésopotamie et de Syrie du VIIe au VIII Siècle.

(Paris, 1933).

Oman (C.W.) :

A History of the Art of War in the Middle Ages.

2 Vols. (London, 1924).

Orton (Previté) :

Outlines of Medieval History.

(London, 1924).

Parry (J.H.) :

The Age of Reconnaissance.

(London, 1963).

Pierenne (H.) :

Medieval Cities.

(Princeton, 1934).

Pirenne (H.) :

Economic and Social History of Medieval Europe.

(London, 1936.).

Rappoport (A.S.) :

Histoire de la Palestine.

(Paris, 1932).

Recueil des Historiens des Croisades Publ.

Académie des Inscriptions et Belles Lettres

(Historiens Occidentaux).

Reinaud (M.) :

Notice sur la Vie de Saladin.

(Paris, MDCCCXXIV).

Revusky (Abrahim) :

Les Juifs en Palestine.

(Paris, 1906).

Schlumberger (G.) :

Campagnes du Roi Amaury de Jerusalem en Egypte.

(Paris, 1906).

Small (R.C.) :

Crusading Warfare. (1097 — 1193).

(London, 1956).

Stephenson (Carl) :

Mediaeval History.

(U.S.A., 1943).

Stubbs (William) :

Seven Lectures of the Study on Mediaeval and Modern History.

(Oxford, 1900).

— Select Charters and other illustrations of English Constitutional History from the earliest times to the reign of Edward the first.

(Oxford, 1921).

Thompson (J.W.) :

Economic and Social History of the Middle Ages.

(2 Vols. (London, 1959).

— The Middle Ages. 300 — 1500.

(London, 1931).

Ziadeh (Nicola) :

Urban Life in Syria under the Early Mamluks.

(B eirut, 1953).

فهـــرس

رقم الايداع ٧٩/٥٠٥٥

الترقيم الدولى ــ ٩ ــ ٨٦٠ ــ ٢٤٧ ــ ٩٧٧

مطبعة التضـــــامن

٢٣ شارع سامى ميدان لاظوغلى

ت : ٣٠٥٥٦